يحي بوعزيز

الموجز في تاريخ الجزائر



الجزء الثاني

الجزائر الحديثة

ديوان المطبوعات الجامعية

الدكتور يحيى بوعزيز

الموجز

في تاريخ الجزائر

الجزء الثاني

الجزائر الحديثة



الطبعة الثانية

ديوان المطبوعات الجامعية



رقم النشر : 4.07.4352
رقم ر.د.م.ك.(I.S.B.N.) : 978.9961.0.1045.7
رقم الإيداع القانوني : 2007/272

القسم الثالث

الجزائر الحديثة

الجزائر في عهد الأتراك العثمانيين
918 ـ 1246هـ ـ 1514 ـ 1830م

أصل الأتراك:

ينتمي الأتراك العثمانيون إلى قبائل الغزالتركستانية بقلب آسيا هاجروا موطنهم الأصلي بأذربيجان، واتجهوا غربا إلى شبه جزيرة آسيا الصغرى (الأناضول) وكونوا دولتهم في نهاية القرن الثالث عشر 1288م على حساب الدولة البيزنطية، ومن هناك عبروا بحر مرمرة ومضيقي البوسفور والدردنيل، ورموا بكل ثقلهم في شرق أوروبا، وأطاحوا بالدولة البيزنطية واستولوا على عاصمتها بيزنطة في عهد السلطان محمد الثاني الفاتح عام 1453م، واتخذوها عاصمة لهم، ثم أخذوا يوسعون رقعة دولتهم على حساب الإمارات المسيحية النصرانية الأخرى، البلغارية، والمجرية، والرومانية، واليونانية.

وفي السبعين سنة التي تلت فتح مدينة القسطنطينية، ركز الأتراك على تدعيم وجودهم بشرق أوروبا، وحاولوا غزو بلاد فارس، وسيطروا على بلاد الشام عام 1516م، ومصر عام 1517م وتسلموا منصب الخلافة الاسلامية من آخر الخلفاء العباسيين بها في نفس العام، واكتسبوا بذلك احترام وتقدير الشعوب الاسلامية، وجمع سلاطينهم بين السلطتين، الدينية والزمنية.

وفي عهد السلطان سليمان القانوني، توغل الأتراك العثمانيون في شرق أوروبا عبر نهر الداتوب، حتى وصلوا الى مدينة فيينا في وسط أوروبا وفرضوا عليها الحصار مرتين: الأولى في القرن السادس عشر 1529م

والثانية في القرن السابع عشر 1683م، وتوغلت أساطيلهم في غرب البحر المتوسط حتى وصلت إلى شواطيء إسبانيا.

وقد بلغ الأتراك أوج قوتهم، في الوقت الذي أشتد فيه الصراع بين فرانسوا الأول ملك فرنسا، وشارلكان الإسباني ملك اسبانيا، وأمبراطور الامبراطورية المقدسة.

وكانت شعوب أوروبا الشرقية في هذه الفترة ضعيفة، أكتفت فقط بالدفاع والمقاومة المحدودة واستعانت بقراصنة البحر، وقوات شارلكان الاسباني وبعض الدويلات الإيطالية، وعلى رأسها البندقية وفرسان مالطة.

فأحتاط الأتراك العثمانيون للأمر، وأذنوا لبعض رجال البحر بارتياد الحوض الغربي للبحر المتوسط لمقاومة أساطيل القراصنة الأوروبيين واعتداءاتهم وذلك لهدفين رئيسيين:

أولهما: الدفاع على موانئ المغرب الاسلامي الساحلية وحماية سكانها وتقديم العون والمساعدة لمسلمي الأندلس المضطهدين والمطاردين.

وثانيهما: إشغال أساطيل قراصنة أوروبا، والاسبان خاصة، عن المشاركة في حروب شرق البحر المتوسط التي يتحمس لها البابوات، ويدعون لعالميتها ضد المسلمين عامة، والأتراك بصورة خاصة.

فالتحق بهذا الحوض الغربي للبحر المتوسط أبناء الفخارجي يعقوب بن يوسف، الثلاثة، وهم عروج، وخيرالدين، واسحاق، منذ حوالي عام 1502م تقريبا واستحدثوا لأنفسهم أسطولا بحريا هاما، وشرعوا في مواجهة القراصنة الأوروبيين انطلاقا من جزيرة جربة، والمهدية، وحلق الوادي، وجيجل.

وأثمرت جهودهم وأعمالهم بمرور الزمن خاصة بعد أن استقروا بمدينة الجزائر عام 1516م وضموها هي وباقي بلاد المغرب الأوسط إلى الدولة

العثمانية كتيابة جديدة تابعة لها ابتداء من عام 1518م، فبرزت الجزائر الحديثة لتلعب دورها الموجه في الأحداث العالمية بهذا الحوض البحري العظيم غربه، وشرقه شماله وجنوبه لعدة قرون.

وإذا كان المشرق العربي الاسلامي قد خضع بالقوة لسيطرة العثمانيين، وهو ما يفسر نظرة مفكري المشرق إلى العثمانيين، على أنهم غزاة استعماريون، فأن المغرب الاسلامي، على العكس من ذلك تماما، لأن شعوبه هي التي طلبت النجدة منهم ضد الزحف الأوروبي الاسباني، ورضيت عن طواعية أن تنضوي تحت لواء الخلافة التي انتقلت اليهم، والتي كانت لها قداسة عند المسلمين كافة آنذاك.

ورأينا نحن هنا بالمغرب الاسلامي والجزائر بصفة خاصة، واضح في أن الأتراك إخوان لنا في الدين، وقدموا لبلداننا خدمات جليلة، وحالوا دون تمسيحها وتنصيرها، كما كانت ترغب القوى الأوروبية الطاغية المتعصبة آنذاك وخاصة الاسبان.

لقد بذل الأتراك العثمانيون خلال القرنين 16 و 17م جهودا جبارة إلى جانب الأهالي ضد التحديات الأوروبية الغازية، وسجلوا صفحات مشرقة في تاريخ هذه البلدان الحديث ستبقى خالدة أبدا الدهر.

وليس هناك أدنى شك في أن شعوب المغرب الأسلامي تكن لهؤلاء الأتراك العثمانيين، كامل التقدير والاحترام كقوى وطنية قبل أي اعتبار آخر. ولن ينال من هذا التقدير والاحترام ما صدر من بعض ولاتهم في العهد الأخير من سوء التصرف، والظلم، والعسف، لأن ذلك أمر طبيعي في كل البلدان ولدى كل الشعوب والأجناس.

الفتح التركي العثماني للجزائر

الغزو الاسباني لموانيء الجزائر:

كان لضعف دولة بني زيان، تأثير سيء على أوضاع الجزائر فانقسمت على نفسها إلى إمارات صغيرة مفككة متناحرة، أمثال: إمارة جبل كوكو ببلاد القبائل، والامارة الحفصية بقسنطينة، وامارة الدواودة بالحضنة والزاب، وإمارة بني جلاب بتقرت ووادي ريغ، وإمارة بني بزناسن وفقيق بالحدود الغربية، وإمارة الثعالبة بجزائر بني مزغنة ومتيجة.

وشجع هذا التفكك الاسبان للقيام بغزو موانئها ومدنها الساحلية والسيطرة عليها واحدة بعد الأخرى وفق مشروع استعماري واسع يهدف إلى استعمار المغرب العربي كله، ممهدين له بحركة جوسسة واسعة. فكلف الكاردينال كزيمناس شخصا يدعى لوراندودي باديا، بمهمة التجسس في مملكة تلمسان الزيانية وذهب إليها في زي تاجر مسلم، وبصحبته البندقي الايطالي جيرونيمو فينالي، وبقي ما يقرب من عام جمع المزيد من المعلومات، ثم شرعت اسبانيا في اعداد خطة الغزو على الشكل التالي:

احتلال المرسى الكبير ووهران:

ففي شهر سبتمبر من عام 1505 أعد الملك الاسباني فرديناند حملة عسكرية أسند قيادتها إلى (دون ديغو فيرنانديز) وكلفه بالهجوم على المرسى الكبير الذي كان يستقر به عدد كبير من مسلمي الأندلس المطرودين. فهجم عليه يوم 9 من نفس الشهر واحتله بعد معارك دامية، وبخيانة بعض من لا ضمير لهم، وارتكب الاسبان مجازر رهيبة تؤكد مدى الحقد الديني الدفين

في قلوبهم ضد المسلمين. وبعد حوالي خمس سنوات وجه الاسبان ضربتهم الثانية إلى مدينة وهران، فأعدوا حملة ضخمة خرجت من قرطاجنة باسبانيا يوم 16 ماي 1509 بقيادة الكاردينال كريمناس نفسه ووصلت إلى وهران يوم 19 من نفس الشهر وفرضت عليها الحصار حتى استولت عليها بفضل خيانة بعض ضعفاء الذمة والسماسرة اليهود كذلك، وفعلوا فيها ما فعلوه بالمرسى الكبير من تقتيل وتخريب وهتك للأعراض. وبعد هذا النجاح عين الاسبان أحد قراصنتهم وهو بيدو نافارو حاكما عاما عليها وعلى المرسى الكبير ومملكة بني زيان التلمسانية التي أعلنت خضوعها لهم وهو ما يؤكد نيتهم في احتلال البلاد كلها.

احتلال بجاية:

ولم يتوقف الاسبان عند هذا الحد، بل أخذوا يتحرشون ضد مدينة بجاية التي كانت تخضع لأمير حفصي تابع لإمارة قسنطينة الحفصية يدعى عبدالرحمان، وينافسه في الحكم أخوه عبدآلله، فشنوا عليها حملة كبيرة يوم 5 يناير 1510 واحتلوها بعد أن فتكوا بأهلها وخربوا الكثير من آثارها ومعالمها التاريخية الاسلامية.

واحتلوا في نفس العام عنابة، وطرابلس الغرب، ولكنهم فشلوا في احتلال جزيرة جربة، وقرطاج التونسية، وخافت الدولة الحفصية بتونس مغبة الأمر من الاسبان بعد احتلالهم لبجاية، فتقرب سلاطينها منهم وأعلن السلطان الحفصي أبو عبدآلله قبوله لدفع أتوات مالية لهم كعنوان للخضوع والاستسلام.

التمركز أمام مدينة الجزائر:

وكما ارتاع الحفصيون بتونس من الاسبان، شعر بالخطر كذلك سكان مدينة الجزائر وتوجسوا من أن يهاجمهم الاسبان بين حين وآخر بعد أن

أسبانيا من فتكٍ كما شاهدوا قريباً من بجاية ووهران وكذلك رأوا أن يظهروا للأسبان رغبتهم في الأمن والسلام، فوجهوا وفداً إلى بيدور نافرو بمحلة تعهد له بإطلاق سراح الأسرى المسيحيين ومسالمة القوات الأسبانية في البحر، ودفع أتاوة مالية سنوية للأسبان في بجاية بقدر مبلغها بنفس المبلغ الذي كانت تدفعه مدينتهم لحماية الحفصية قبل ذلك. وفي مقابل هذا لا يتعرض الأسبان بسوء لمدينة الجزائر. وأكثر من هذا سافر وفد جزائري آخر إلى أسبانيا عام 1511 وتنازل للأسبان عن الجزر الساحلية المواجهة لمدينة الجزائر ليقيموا عليها حصوناً ومراكز لهم فأسسوا في احداها حصناً كبيراً أصبح يدعى صخرة الجزائر وصار شوكة في حلق هذه المدينة يهدد أمنها وسلامتها باستمرار.

اخضاع مستغانم:

وعلى غرار هذا، فعلت مستغانم، ومزغران، بالناحية الغربية قرب وهران فشعر سكانها بالخطر وقدموا عام 1511 فروض الطاعة والولاء للأسبان بوهران وبذلك أحكم الأسبان قبضتهم على سواحل الجزائر الشرقية والغربية كما اخضعوا إمارة بني زيان بتلمسان وصاروا يتلاعبون بأمرائها ومستقبلها.

ظهور الأخوة الأتراك عروج وخيرالدين واسحاق:

عروج وخير الدين واسحاق أبناء لأب من أصل تركي بإقليم الروملي اسمه يعقوب بن يوسف كان يقطن بجزيرة مدلي (ميتلان) في الأرخبيل اليوناني، ويحترف صناعة الفخار، وله زيادة على الأبناء الأولين ولد آخر هو محمد إلياس. وولد عروج حوالي عام 1473م وخيرالدين في العام الموالي وكان عروج وخيرالدين يبيعان الفخار لأبيهما في الجزائر اليونانية بواسطة بعض المراكب، وفي احدى المرات وقع عروج أسيراً وبيع عبداً لشخصين بجزيرة رودس. وفي أثناء توجهه إلى مصر كمجدف في سفينة تحمل أسرى

مسلمين جرى افتداؤهم بالمال، اغتنم فرصة حدوث زوبعة بحرية فقر من المركب والتي به المطاف إلى أضاليا بامارة (قرمان) حيث تعرف على شخص اسمه: علي ورايس أستوقه وصاحبه معه إلى مصر وكلفه بقيادة مركب بحري يحمل الأخشاب لصنع السفن، ولسوء الحظ اعترضه بعض قراصنة جنوة الايطاليين وأحرقوا له سفينته فعاد إلى أضاليا وتعرف بالأمير قرقود شقيق السلطان سليم، فأكرم مثواه لما لاحظه عليه من سمات البطولة والنخوة، وجهز له سفينة للجهاد في البحر المتوسط الشرقي ضد القراصنة المسيحيين، وساقته الظروف إلى جزيرة جربة جنوب شرق تونس حوالي عام 1504 فاستقر بها ولحق به أخواه خيرالدين (خسرف — الخضر) وإسحاق وأصبح لديهم حوالي اثني عشرة سفينة، واتفق مع الأمير الحفصي أبي عبدالله محمد على ان يسمح لهم بجعل جربة مركزا لأسطولهما، ويفتح كل الموانئ التونسية لهم عند الضرورة مقابل خمس الغنائم التي يغنمونها في البحر، فأخذوا يجاهدون ضد القراصنة المسيحيين وبخاصة الاسبان منهم والبرتغاليين. ولما كانت جربة بعيدة عن ميدان الجهاد الحقيقي في الحوض الغربي للبحر المتوسط حيث كثرت هجمات الاسبان على السواحل الافريقية فقد اتفقوا مع الأمير الحفصي على نقل مركزهم العسكري من هناك إلى حلق الوادي في أقصى شمال شرق تونس في نفس العام تقريبا.

محاولة تحرير بجاية من الاسبان:

ابتداء من عام 1512 بدأ نجم الاخوة الأتراك يخترق الآفاق، وأخذ الناس يسمعون عن انتصاراتهم الرائعة ضد القراصنة الاسبان في عرض البحر وفي شواطئ الأندلس نفسها. ولذلك اتصل بهما علماء وأعيان بجاية، وأمير قسنطينة الحفصي أبو بكر في نفس العام، واستصرخوهم للنجدة ورفع كابوس الاسبان عن بجاية فلبوا الرغبة وزحفوا على المدينة بعمارة بحرية من حلق الوادي، ولكنهم لم يصادفوا نجاحا بسبب تحصينات الاسبان القوية وتعاون أمراء قلعة بني عباس مع الاسبان، وجرح عروج أثناء محاولة اقتحام المدينة واضطر المشرفون على علاجه أن يقطعوا ذراعه بعد أن استعصى عليهم علاجها.

التمركز في مدينة جيجل:

وقد أثرت حية بجاية في نفس عروج وأدرك أن تمركزهم بحلق الوادي يبعدهم عن ميدان المعركة ولا يساعد على التفوق على الأسبان، ولذلك قرروا البحث عن مركز جديد لهم يكون قريبا من بجاية ووجدوا أن جيجل أحسن مكان لهما للتمركز والاستعداد، وكانت مدينة جيجل محتلة من طرف قراصنة جنوة الإيطاليين منذ عام 1260 كمركز تجاري بين افريقيا وايطاليا، ثم هجم عليها أندري دوريا الذي كان في خدمة فرنسا عام 1513، واحتلها وسنحت الفرصة لعروج وأخيه عندما استنجد بهما سكانها فحملا عليها وانتزعاها منه منذ عام 1514 ونقلا إليها مركزهما من حلق الوادي وأصبحا على مقربة من بجاية.

إعادة الكر على بجاية:

بعد الاستقرار في مدينة جيجل اهتم عروج وإخوته بأمر المسلمين المضطهدين بالأندلس فأخذوا يترددون بأسطولهما على شواطئ الأندلس وينقلان المهاجرين إلى شمال إفريقيا ولم يكتفوا بهذا فأغار خيرالدين على جزر البليار وأسر ما يقرب من ستة الآف أسير اسباني كانتقام من الأسبان. ونظرا للنجاح الذي حققه عروج بجيجل فقد بايعه سكانها أميرا عليهم واستحثه شيوخ القبائل وأمير جبل كوكو أحمد بن القاضي على إعادة الكرة على الأسبان في بجاية فنظم حملة عليهم عام 1514 بجيش بري وحاصرها ما يقرب من ثلاثة شهور دون جدوى واضطر إلى رفع الحصار، وكرر المحاولة في ربيع العام الموالي بقوة برية كبيرة ولكن نفاذ الذخيرة الحربية وامتناع الأمير الحفصي بتونس عن تزويده بالذخيرة اضطره إلى الانسحاب منها بعد أسر عدة مئات من الأسبان 600. ومن حسن حظ عروج واخوته في هذه الفترة أن السلطان العثماني بعث اليهم أربع عشرة سفينة ومجموعة من المجدفين المهرة وكمية من الأسلحة والذخائر جزاء الهدية الثمينة التي أرسلها له بعد فتح جيجل، وقد جاءت هذه الهدية في الوقت المناسب.

الاستقرار في مدينة الجزائر:

تحولت القلعة والحصن العسكري الذي أنشأه الاسبان على الصخور المواجهة لمدينة الجزائر عام 1510 إلى وكر للجوسسة والتخريب يشن منه الاسبان دوما الغارات على المدينة فيسلبون منهم أموالهم وأغنامهم ويعرضون باستمرار حياتهم للخطر الشديد مما جعلهم يعيشون في حالة استنفار دائم.

ونتيجة لذلك ذهب وفد من سكان المدينة إلى جيجل عام 1516 وشكا لعروج ما هم عليه من الضيق والخطر المحدق بهم وبمدينتهم باستمرار، وكان هو وأخوه يهيئان لضربة قاضية ضد الاسبان في بجاية. فخلف أمر بجاية وقرر النجاد سكان مدينة الجزائر، وخرج عروج على رأس قوة برية بعضها من الأتراك وأغلبها من سكان القبائل، بينما قاد خير الدين أسطولا بحريا في نفس الاتجاه والتقيا معا بمدينة الجزائر واستقبلهما السكان استقبالا حسنا وشرعا في الحال في قذف الحصن الاسباني بمدافعهما، وأثناء تلك المدة اتجه عروج إلى شرشال التي كانت تخضع لشخص تركي آخر اسمه قارة حسن كان يتعاون مع بعض المهاجرين الاندلسيين فقضى عليه، وسيطر على المدينة ثم عاد إلى مدينة الجزائر وبايعه السكان أميرا للجهاد في سبيل الله. فأثار ذلك حقد سالم التومي وأشياعه الذين كانوا يحتفظون بالسلطة في المدينة فحاولوا التآمر ضده ولكنه فطن للمؤامرة فقبض على سالم التومي وأغتاله في منزله وقيل في الحمام يوم جمعة.

الاسبان يتحركون:

اعتبر الاسبان استقرار عروج وأخويه بمدينة الجزائر خطرا شديدا عليهم وعلى مستقبلهم لا في هذه المدينة فقط وانما في كل الشمال الافريقي، ولذلك عزموا على مقاومتهم وتحطيم سلطتهم وطردهم وتحالفوا مع أمير تنس الخاضع لهم واستمالوا إليهم أشياع سالم التومي وبعض زعماء القبائل المجاورة للمدينة بواسطة عملائهم وجواسيسهم، ثم وجهوا من وهران حملة كبيرة

بقيادة حاكمها الاسباني (ديقودو فيرا) وصلت إلى الجزائر أواخر سبتمبر 1516 ونزلت قرب باب الواد وتركهم عروج حتى نزلوا إلى البر ثم أخذ يناوشهم لاستنزاف قوتهم وطاقتهم وأغتنم فرصة تقهقرهم وظهور ريح شمالية فزحف بقواته عليهم وأغرق الكثير منهم وقتل البعض وأسر البعض الآخر. وكانت هزيمة وكارثة مهولة بالنسبة للاسبان، وانتصارا عظيما بالنسبة لعروج واخوته وللسكان الذين لم يخفوا ابتهاجهم وفرحتهم في المدينة وأحوازها مما دفع سكان البليدة ومليانة والمدية ودلس، وبلاد القبائل إلى مبايعة عروج واعلان الخضوع والطاعة له فامتد نفوذه وتوسع نتيجة لذلك.

تلمسان تستنجد:

ولما كان موقف أمير تنس الزياني مخزيا لتعاونه مع الأسبان، فقد قرر عروج الانتقام منه، واخضاع مدينته فذهب إليها على رأس قوات كبيرة واقتحمها في شهر جوان 1517، وافتكها منه، وقتله وطرد الأسبان المتمركزين بها ثم قسم مملكته الجديدة إلى قسمين قسم شرقي مركزه دلس ويشرف عليه أخوه خيرالدين، وقسم غربي مركزه مدينة الجزائر ويحكمه هو نفسه. وبينما كان عروج في تنس ينظم أمورها ويصلح من شؤونها، حضر إليه وفد من سكان مدينة تلمسان ليشكو له أوضاع بلادهم السيئة وتهديد الأسبان باحتلال مدينتهم بسبب اختلاف أمراء بني زيان على العرش والسلطة. فقد قام أبو أحمد الثالث بالاستيلاء على العرش في تلمسان بالقوة بعد أن طرد منه ابن أخيه أبا زيان الثالث ووضعه في السجن ولم يقنع بهذا فعمل على ممالأة الأسبان والتعاون معهم وقبول حمايتهم مما شجعهم على التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد. لبى عروج رغبة الوفد واستخلف أخاه خير الدين على مدينة الجزائر وأحوازها واتجه هو إلى تلمسان، ومر على قلعة بني راشد قرب معسكر فوضع بها حامية تركية كبيرة تحت قيادة أخيه إسحاق لتحمي ظهره، وواصل هو الزحف إلى تلمسان واستطاع بسهولة أن يتغلب على أبي حمو الثالث المتآمر وحشوده ودخل إلى المدينة وأخرج أبا زيان من السجن وأجلسه على عرشه من جديد.

ولكن هذا السلطان سرعان ما تآمر على عروج وحاول أن يغتاله أو يطرده من البلاد مما دفع عروج إلى القبض عليه واغتياله. أما أبو حمو الثالث فقد ذهب إلى وهران ليطلب النجدة من أعدائه القدماء الاسبان، وهكذا تعاون الاسبان وأبو حمو مع بعض المتوترين بالبلاد وشنوا حملة على قلعة بني راشد واحتلوها وطردوا منها صاحبها إسحاق بن يعقوب ثم قتلوه في الطريق في أواخر جانفي 1518، وواصلوا السير إلى تلمسان وفرضوا عليها حصارا شديدا واضطر عروج ان يعتصم بالمشور عدة أيام. ثم غادرها ليلا في اتجاه بني يزناسن قرب ساحل البحر، ولكن الاسبان تفطنوا لخروجه وتتبعوه واغتالوه بين المالح (ريوصالادو) وزاوية سيدي موسى في نفس العام وحزوا رأسه و أرسلوه إلى اسبانيا حيث طيف به في معظم مدنها ومدن أوروبا الأخرى كما أرسلوا جلبابه الذي كان يلبسه إلى كنيسة القديس جيروم حيث اتخذوه شارة لهم.

إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية:

بعد مقتل عروج، تحرج مركز أخيه خيرالدين بالجزائر وأصبحت الأخطار تهدده من كل جانب في الداخل وفي الخارج.

ففي الداخل كثر المعارضون ضده وتمرد عليه أحمد بن القاضي في جبل كوكو، وتمردت شرشال وتنس، وتواطأ بنو زيان مع الاسبان، وتقاعس أمير تونس الحفصي عن مدّيد المساعدة له، بل انه عزم على محاولة اخضاعه لسلطته واتضحت سوء نيته عندما رفض تزويد عروج بالذخيرة الحربية أثناء الحصار الثالث الذي فرضه على بجاية عام 1515م.

وفي الخارج كانت أخطار الاسبان بادية تهدد بابتلاع شمال افريقيا كله بسبب تمركزهم في عدة نقاط من الساحل أمثال: وهران، وبجاية، وبتدخلهم المستمر في شؤون الامارة الزيانية بتلمسان.

وهكذا وبسبب هذه العوامل كلها اعتزم خيرالدين مغادرة الجزائر ليستأنف الغزو والجهاد ضد القراصنة في البحار حتى يبني قوته، ولكن

عقال مدينة الجزائر وكبراءها ألحوا عليه بأن يبقى في المدينة. وعندئذ عرض عليهم فكرة ربط الجزائر بالدولة العثمانية وإدخالها ضمن أملاكها حتى تكسب نوعا من الحماية الدولية ويجد هو الحكمة وسيطرته على البلاد. وهذه الفكرة تدل على بعد نظر خير الدين لأن الجزائر سنداً بوسائلها الخاصة لا تستطيع ان تقف في وجه الزحف الاسباني، ولأن الدولة العثمانية هي الدولة الوحيدة انذاك التي بمقدورها ان تدعم سلطته وتمده بكل ما يحتاج إليه من مال وسلاح وعتاد ورجال. وقد استحسن كبار المدينة الرأي فأرسل خيرالدين وفدا إلى السلطان سليم الأول عام 1518م، الذي كان موجودا بمصر، عرض عليه الفكرة وقبلها وأرسل إلى خيرالدين التعيين كأول حاكم تركي على الجزائر بلقب (بايلرباي) مع مجموعة من الجنود الانكشاريين 2000 وعدد من المدافع والذخائر الحربية وأذن لخير الدين بتجنيد عدد من المتطوعين ليساعدوه في حفظ الأمن والنظام.

وبذلك دخلت الجزائر تحت سيطرة الدولة العثمانية وأصبحت ضمن ولاياتها واكسبها ذلك الوضع نوعا من الحماية ودرأ عنها كثيرا من الأخطار خاصة اطماع الاسبان كما سيأتي على أن الذي لا نزاع فيه هو أن عهد الأتراك يمثل عهد الأمجاد والبطولات العسكرية والأنتصارات السياسية المرتبطة بها، لأن النبوغ كان واضحا في العقلية العسكرية أكثر من أي جانب آخر، والسبب هو تعرض هذه البلاد لمحاولات الصليبيين الذين أنهزموا وطردوا من الشرق فحاولوا أن يحققوا حلمهم بالمغرب الاسلامي، وكان انتصار الأسبان على مسلمي الأندلس من العوامل التي أغرتهم وشجعتهم على تلك المحاولات، ولكن أبطال شمالي افريقيا لقنوهم دورسا قاسية وأشبعوهم من الهزائم ما لم يستطيعوا نسيانه عبر قرون عديدة.

وفي الفصول التالية عرض مرتب ومتسلسل للحوادث حسب العهود الأربعة للفترة التركية العثمانية التي تواضع المؤرخون على تحديدها، مع ذكر الخصائص والميزات التي يتصف بها كل عهد، والغزو الاسباني لموانئ الجزائر وأهدافه من ذلك، ولابد من التأكيد بأن العرض موجز لأن حجم الكتاب لا يسمح بالتوسع كثيرا.

عصر ولاة البايلربايات:

ينقسم الحكم التركي بالجزائر إلى أربعة عهود وأدوار هي:

1 — عصر البايلربايات: 1518 إلى 1587.
2 — عصر الباشاوات: 1587 إلى 1659.
3 — عصر الآغاوات: 1659 إلى 1671.
4 — عصر الدايات: 1671 إلى 1830.

ويبدأ عصر البايلربايات بتاريخ الحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 1518 وتعيين خيرالدين بايلرباي (حاكم حكام) عليها من قبل السلطان العثماني مع تزويده بقوة عسكرية وأسلحة وذخائر، وقد جاء هذا التعيين ليدعم سلطة خيرالدين في البلاد، فاتخذ مركزه في مدينة الجزائر، وعين أحمد بن القاضي الغبريني سلطان جبل كوكو (على بعد 18 كم من أربعاء نايت ايراثن) حاكما على بلاد القبائل والناحية الشرقية، ولم يرتح الحفصيون والمرينيون لذلك، وأخذ كل واحد يدبر المؤامرات ضدّ خيرالدين ونظامه.

فالاسبان من جانبهم نظموا ضده حملة عسكرية كبيرة وضخمة قادها هو قودومونكاد ونزلت بوادي الحراش في شهر أوت 1519، ولكنها أصيبت بهزيمة ساحقة وفقد الاسبان معظم قواتهم وأسلحتهم وسفنهم وكان من ضمن أسباب هزيمتهم تأخر إمدادات الزيانيين المتحالفين معهم من تلمسان وسيكون لهذه الهزيمة تأثير كبير على تحرشات الاسبان على شمال افريقيا. والحفصيون والمرينيون استعملوا الدسائس واستمالوا اليهم ابن القاضي، ومحمد ابن علي، ودفعوهما إلى الثورة ضد خير الدين للتخلص منه خاصة الحفصيين فتزعما تمردا واسعا واستطاع ابن القاضي ان يهزم خيرالدين. ويقطع عليه خط الرجعة إلى الجزائر التي استولى عليها فاضطر ان ينسحب إلى قاعدته البحرية القديمة بجيجل لمدة ست سنوات تقريبا (1521 — 1527م) ظل أثناءها يحارب الاسبان ويرقب الأمور ويستعد

لاعادة الكرة. ولقد عانى سكان مدينة الجزائر كثيرا من جور ابن القاضي وظلمه خاصة في ميدان جبي الضرائب، ولذلك راسلوا خير الدين كما راسله أمراء القلعة وسكان القبائل، فعاد إلى المدينة عام 1527 واستعاد سلطته ونفوذه ومدهما إلى جهات كثيرة وقضى على الحصن الاسباني ببرج الفنار في 16 ماي سنة 1529 وأزال بذلك كابوسا خانقا كان يجثم على صدر سكان مدينة الجزائر حوالي 19 عاما تقريبا، ولم يكتف بتحطيمه فردم البحر بينه وبين ساحل المدينة وأوصله بها بواسطة رصيف طويل أصبح يكون ميناء الجزائر الحالي، وكان طرد الاسبان من هذه القلعة على هذا الشكل صدمة كبيرة لهم ولذلك صمموا على الانتقام وارغموه على شرشال عام 1531م بواسطة حملة كبيرة قادها أندري دوريا الايطالي الأصل وأحدثوا في المدينة تخريبا وفي أهلها تنكيلا، ولكن خيرالدين هب لانجادها واضطر الاسبان إلى الفرار بفضل شجاعة الأهالي وصمودهم. ونظرا لما أبداه خيرالدين من مقدرة في الإدارة وفي الحروب البحرية، وقيادة الأساطيل استدعاه السلطان العثماني إلى القسطنطينية عام 1535م ليعينه وزيرا للبحرية العثمانية وقبل رحيله استخلف في مكانه لحكم الجزائر حسن آغا.

دور الاسبان بعد رحيل خيرالدين:

ظن الاسبان أن رحيل خيرالدين سيسهل عليهم احتلال الجزائر وطرد خلفائه منها فركزوا جهدهم على موانىء تونس واحتلوا الكثير منها، وشارك في الصراع ضدهم خيرالدين نفسه. ثم رأوا ان يضربوا الجزائر نفسها، فأعدوا حملة كبيرة استغرق أعدادها وتجهيزها عدة أشهر، وقادها ملكهم شارلكان نفسه، ونزل بجهة حسين الداي في عاصمة الجزائر يوم 1541/10/23 وكان مصيرها الفشل الذريع مثل باقي الحملات السابقة، واستغل البايلرباي حسن آغا ظروف هذا النصر الكبير ليوسع نفوذه ويمد سيطرته إلى الجنوب حتى بسكرة والزيبان. وبعد فشل الاسبان أمام مدينة الجزائر، حولوا جهودهم إلى الناحية الغربية إلى إمارة بني زيان الضعيفة،

والمهارة، والمخادعة بتلمسان. وأخذوا يتدخلون في شؤونها الداخلية، وحاولوا أن يتحدوا الأمير الزياني عبدالله ضد شقيقه أحمد، ولكن حملتهم أبيدت عن آخرها. قرب عين تموشنت عام 1543م، ومع هذا لم يتعظوا بالهزيمة فأعادوا الكرة على تلمسان في العام الموالي 1544م واقتحموها، ونهبوا خزائنها ونصبوا فيها عميلهم، وحليفهم عبدالله الزياني مدة إلى أن ثار سكان المدينة ضده وطردوه ليعيدوا أخاه أحمد.

السعديون يتدخلون في شؤون تلمسان:

وكما أشتد تدخل الاسبان في شؤون تلمسان كذلك أشتد طمع المرينيين فيها وأخذوا هم الآخرون يتدخلون في شؤونها ويحاولون احتلالها وضمها إلى السلطة المغربية فأرسل السلطان محمد المهدي السعدي حملة من مراكش احتلت تلمسان بعض الوقت ولكن حسن باشا بن خيرالدين 1544 ـ 1552م قاوم هذه القوات وأوقع بها هزيمة قرب مستغانم أثناء توسعها وطرد القوات التي كانت تتمركز بتلمسان، ونصب على عرشها الحسن الزياني عام 1552م.

صالح رايس والقضاء على الدولة الزيانية:

كانت الدولة الزيانية في هذه الفترة جسما بلا روح، وهيكلا بلا محتوى وكان بقاؤها على هذا الوضع من العوامل التي كانت تشجع الاسبان على التدخل في شؤونها تمهيدا لاحتلالها وذلك لا يمثل خطرا عليها فحسب وانما على مستقبل الوجود التركي نفسه بالجزائر خاصة بعد ما أصبح أمراؤها بمثابة كرة في أيديهم يستعملونها كيفما شاؤوا، ومن أجل هذا اعتزم صالح رايس البايلرباي الجديد 1552 ـ 1556م وأحد رفاق خيرالدين، أن يضع حدا لها ويصفي وجودها. فبعد فتوحاته بالجنوب وسيطرته على تقرت وورقلة، أعد حملة عسكرية كبيرة ضد الأشراف السعديين بفاس الذين كانوا يحيكون المؤامرات مع الاسبان ضد الاتراك بالجزائر، وفي طريق

عودته مر بتلمسان، وعزل عنها الحسن الزياني في عام 1554م لعلاقته الوثيقة بالاسبان وتآمره معهم ضد إخوانه ووطنه، وألحق المملكة الزيانية بالسلطة التركية بالجزائر العاصمة رأسا. وبذلك وضع حدا لهذه الدولة المنهارة كما وضع حدا لتدخل الاسبان وقطع كل أمل لهم في احتلالها.

تحرير بجاية عام 1555م:

ولم يكتف صالح رايس بهذا فقام بطرد الاسبان من بجاية وأعادها إلى حضيرة الوطن وكان في حالة استعداد لتحرير وهران عندما وافته المنية عام 1556م وفقدت الجزائر فيه بطل وحدتها ومحررها.

نواة الادارة التركية بالجزائر:

كان لجهود صالح رايس أثار حسنة على مستقبل الجزائر بحيث أمتد نفوذ السلطة التركية إلى معظم المناطق بالبلاد الحالية في الجهات الثلاث الشرقية والغربية والجنوبية. ومن أجل ذلك اهتم البايلرباي حسن باشا ابن خيرالدين خلال ولايته الثانية بتنظيم إدارتها فقسمها إلى أربع بايليكات (عمالات):

1 — **بايليك الجزائر العاصمة**: ومركزه مدينة الجزائر نفسها (أو دار السلطان).

2 — **بايليك الشرق**: ومركزه مدينة قسنطينة.

3 — **بايليك التيطري**: ومركزه مدينة المدية.

4 — **بايليك الغرب**: ومركزه مازونة، ثم معكسر، ثم وهران.

وبدأت شخصية الجزائر تتخطى حدودها إلى الخارج، وأصبح لقادتها ولأسطولها دور في أحداث منطقة البحر المتوسط، فشارك حسن باشا بقوات الجزائر في محاصرة جزيرة مالطة بعض الوقت، وعندما استدعى إلى

القسطنطينية مثل أبيه ليتولى منصب قبطان البحرية العثمانية، خلفه في حكم الجزائر البايلرباي العلج علي 1568 — 1571م، أحد رفاق خيرالدين وكان ضمن القواد الكبار الذين شاركوا وخاضوا معركة ليبانتو الشهيرة بأسطوله في اليونان عام 1571م وكان الوحيد الذي نجا بأسطوله وأنقذ كثيرا من المراكب العثمانية مما دفع السلطان العثماني أن يكلفه بإعادة تنظيم أسطوله، وقد اشترك مع سنان باشا، وعرب أحمد، في طرد الاسبان نهائيا من تونس عام 1574 لتتألف منها نيابة تركية جديدة إلى جانب طرابلس، والجزائر.

مميزات وخصائص عهد البايلربايات:

يتسم عهد البايلربايات بعدة ميزات وخصائص أهمها:

1 — معظم ولاة هذا العهد كانوا أقوياء ذوي سلطة ونفوذ واسعين أتاح لهم مركزهم الممتاز أن يمدوا سيطرتهم حتى إلى تونس وطرابلس، ويتحكموا في أقدارهما ويشاركوا في الصراع الدائر بهما ضد الاسبان أساسا، وضد الثورات الأهلية الداخلية. وهم الذين بحكم لقبهم (بايلرباي) يعينون باشوات تونس وطرابلس عن الدولة العثمانية ويعينون من يخلفهم بالجزائر عندما ينقل أحدهم. ومن أشهر هؤلاء خيرالدين وإبنه حسن، وصالح رايس، والعلج علي، وحسن فنزيانو.

2 — معظم هؤلاء من طائفة الرياس البحريين الذين كان أغلبهم من رفاق خير الدين نفسه، والسلطان العثماني هو الذي يعينهم أو يوافق على من يقترحه الرياس بحكم تبعية الجزائر للدولة العثمانية وكانت صلاتهم بالسلطان قوية ويتولون في هذه البلاد تنفيذ أوامره وتعليماته بحذافرها دون معارضة. وكثيرا ما يبقى الواحد منهم في الحكم عدة سنوات نظرا لما لهم من قدرة في حكم البلاد. كما أن عددا منهم نقل إلى الأستانة ليتولى منصب قبطان باشا أو وزارة البحرية بسبب كفاءتهم في قيادة الأساطيل البحرية مثل خير الدين وابنه حسن باشا والعلج علي.

3 — أنصبت جهود هؤلاء (البايلربايات) على مقاومة النصارى الاسبان في البحر الأبيض المتوسط وتصفية جيوبهم في الداخل بالموانىء التي يحتلونها وتقديم يد المساعدة لمسلمي الأندلس المنكوبين كجزء من المقاومة الداخلية والمحلية.

4 — تم للجزائر في هذا العهد تحقيق وحدتها الاقليمية والسياسية لأن البايلربايات اهتموا بمد نفوذهم وسيطرتهم إلى كل جهاتها في الشرق والغرب والجنوب، وقضوا على كل الامارات والسلطانات المحلية كالدولة الزيانية بتلمسان والامارات الحفصية في قلعة بني عباس، وقسنطينة، وعنابة، وإمارة جبل كوكو بالقبائل. ويعتبر صالح رايس بطل تحقيق هذه الوحدة لأنه هو الذي اجتهد في مد نفوذ الأتراك إلى الواحات بالجنوب، وقضى على الدولة الزيانية بتلمسان وفرض طاعة السلطة بالجزائر على كل المناطق.

5 — ونظرا لأهمية تلمسان بالنسبة لمستقبل الجزائر السياسي والوجود التركي بالجزائر، وفي مقاومة الاسبان بالجيوب التي يحتلونها بالمناطق الساحلية خاصة وهران، والمرسى الكبير، وعنابة، فان البايلربايات دخلوا حلبة الصراع ضد السلطة المغربية بالمغرب الأقصى التي كانت لها أطماع كذلك بها واضطروا أن يشنوا الحملات العسكرية على فاس نفسها لتأديب سلاطينها السعديين.

ففي عام 1550 شن الشريف محمد المهدي مؤسس الدولة السعدية حملة كبيرة ضد تلمسان واحتلها بعد حصار دام تسعة أشهر ولم يكتف بهذا فأخذ يتقدم نحو الجزائر واحتل مستغانم وتوجه نحو مجرى نهر الشلف ولكن الأتراك بقيادة حسن باشا ابن خيرالدين واجهوا حملة السعديين وقضوا عليها واسترجعوا مستغانم وطردوها إلى داخل حدود المغرب الأقصى وراء نهر ملوية. وفي أول عام 1554 شن صالح رايس حملة أخرى على المغرب الأقصى صحبة أبي حسون الوطاسي الذي كان يحاول استرجاع

عرش أجداده من السعديين ووصل صالح رايس إلى فاس وأرغم الشريف المهدي على الفرار ونصب أبا حسون على عرش المغرب تحت حماية الأتراك ولكن سرعان ما حاول محمد المهدي السعدي أن يحتل تلمسان بالتعاون مع الاسبان فطارده إلى أحواز فاس دون أن يحاول احتلالها.

وفي ولاية البايلرباي قائد رمضان 1574 — 1577م حاول أن يدخل المغرب الأقصى تحت الحكم التركي فلم ينجح، ولكن قراصنة البحر استطاعوا أن يأسروا الشاعر الاسباني سرفانتيس مؤلف دون كيشوت أو الطواحين الهوائية فبقي في الجزائر خمس سنوات حتى فك سراحه عام 1585م. وعاود جعفر باشا 1585 — 1587م المحاولة ضد مراكش بمساعدة العلج علي لنفس الغرض، ولكن السلطان العثماني استجاب لتوسلات حكومة فاس وأمر برفع الحصار فعاد العلج علي إلى الشرق.

6 — نظرا لأهمية موقع الجزائر الاستراتيجي وقوة السلطة الجديدة بها فقد دخلت كطرف في الصراع الدولي الذي دار على أشده في هذه المنطقة واحتد بين الامبراطورية العثمانية والاسبان، وفرنسا. وكان من أبرز ميزات هذا الصراع توثق العلاقات بين الدولة العثمانية وفرنسا، والجزائر، بالتبعية واشتراكها في محاربة الاسبان ومقاومة مشاريعهم العدوانية في حوض البحر المتوسط الغربي بسبب عداء الأتراك والجزائريين التقليدي للاسبان وتنافس فرنسا التقليدي لهم حول مشاكل القارة ووراثة العروش زيادة على تكرار اعتداءات شارلكان على الشواطيء الفرنسية.

وبناء على هذا التقارب والعلاقات الوثيقة بين الأتراك والجزائريين والفرنسيين استنجدت فرنسا بأسطول الجزائر مرة لقمع ثورة داخلية بمرسيليا، ومرة أخرى لرد هجومات الأسبان على الجنوب الفرنسي، وقاد خيرالدين أسطول الجزائر إلى الشواطيء الفرنسية عام 1543م لقيادة العمليات الحربية ضد شارلكان الاسباني، وتعود العلاقات الطيبة بين فرنسا

والدولة العثمانية إلى أيام السلطان سليمان القانوني وفرانسوا الأول حيث حصلت فرنسا من السلطان على امتيازات واسعة في أملاك الدولة العثمانية عام 1535م.

7 ــ أصبح للجزائر في هذا العهد أسطول بحري قوي وكبير تطور بمرور الزمن وكان من ضمن دوافع انشائه مقاومة القرصنة الأوروبية وخاصة الاسبانية. واستطاعت الجزائر بهذه القوى البحرية أن تفرض إرادتها على الدول الأوروبية وترغمها على دفع اتاوات مقابل ضمان الأمن والسلام لمراكبها في حوض البحر المتوسط الغربي كما استطاعت أن تشارك في توجيه الأحداث في المنطقة، كما أن أسطولها شارك في المعارك الكبرى إلى جانب الدولة العثمانية كما حصل في معركة ليبانتو عام 1571م. على أن هذا الأسطول الذي كان الدافع الأول لإنشائه في البداية هو الجهاد في سبيل الله ومقاومة القراصنة الأوروبيين، تحول بمرور الزمن عن عمل الجهاد إلى ممارسة القرصنة بعد أن ضعفت روح الحروب الدينية وانطفأت جذوتها لدى الأروبيين وظهرت بدلا منها رغبة الاثراء عن طريق التجارة والغنم البحري.

8 ــ بدأ النفوذ الفرنسي في هذا العهد يتسرب إلى الجزائر ويتغلغل فيها كنتيجة للعلاقات الطيبة بين الدولة العثمانية وفرنسا.

فمنذ عام 1561م سمح السلطان العثماني لبعض الفرنسيين من تجار مرسيليا بإنشاء مراكز لهم تجارية في ساحل القالة، وعنابة، والقل، لصيد المرجان وبيع البضائع الفرنسية وشراء السلع الجزائرية (قمح، وشمع، وجلود، وزيوت) على الأ تحصن وتسلح. وكان ذلك بداية لربط العلاقات بين الجزائر وفرنسا، وطلب الباب العالي من الرياس البحريين بالجزائر ألا يتعرضوا للسفن الفرنسية بسوء. واشترط الا تحصن هذه المراكز، ولا تحاط بأسوار ولا توضع فيها أسلحة. وكان مفروضا على الفرنسيين أن يوفوا بهذه

العهود والمواثيق ولكنهم سرعان ما اخلفوا وأخلوا يظهرون نياتهم العدوانية. وهكذا نجد شارل التاسع يقترح على السلطان العثماني اعلان الحماية الفرنسية على الجزائر وتعيين ملك فرنسي عليها مقابل دفع جزية سنوية له. كما نجد الفرنسيين يعمدون إلى تحصين حصون القالة وتسليحها وتحويلها إلى أوكار للجوسسة، والتخريب على مر الأيام مما جعلها تتسبب دوما في تعكير صفو العلاقات بين الدولتين حتى حملة الأحتلال عام 1830م.

الجانب الحضاري لعهد البايلربيات:

يمثل عهد ولاة البايلرباي دور القوة لحكم الأتراك في الجزائر في مختلف الميادين السياسية والحضارية ولو أن الجانب السياسي والعسكري كان أبرز من غيره ولكن الجانب الحضاري له مكانته كذلك.

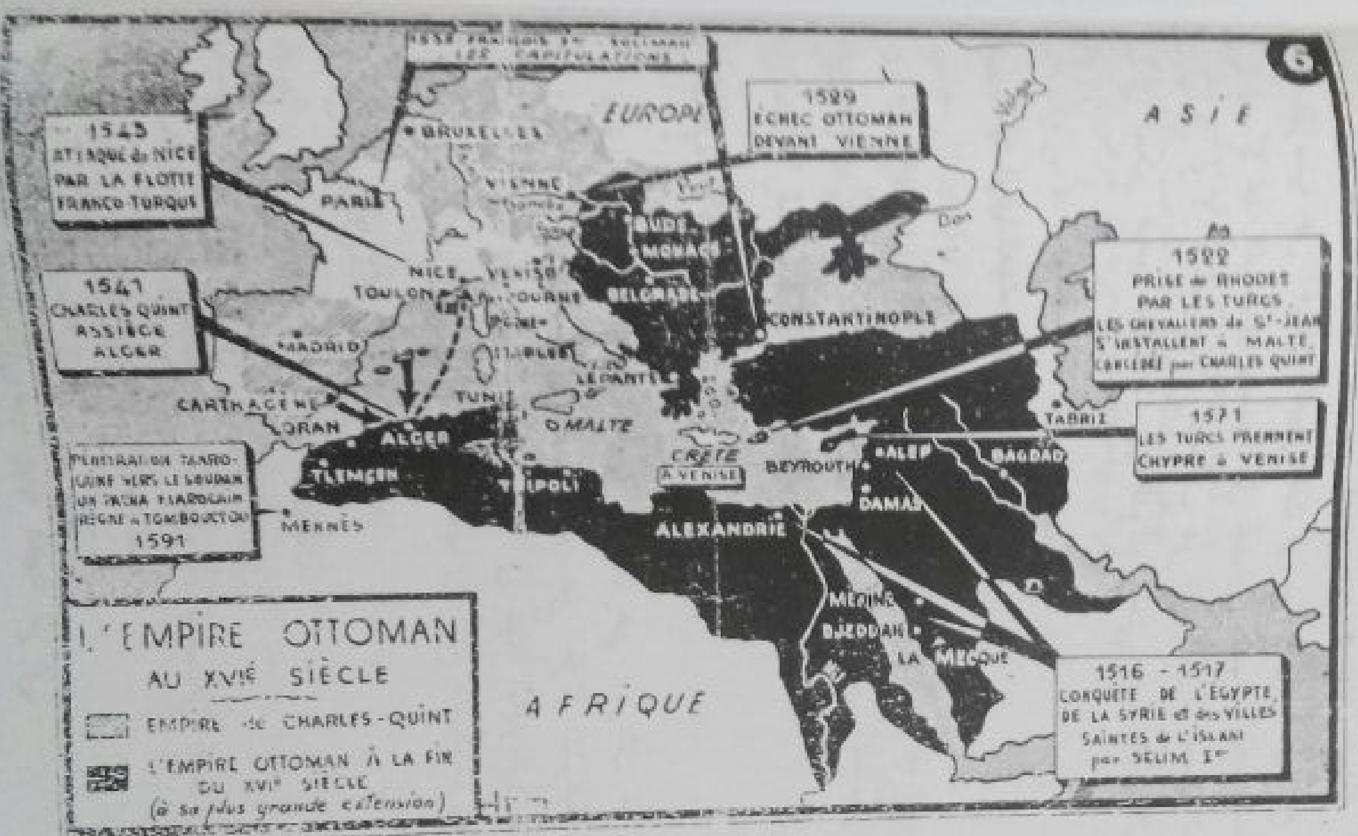
فمن الناحية الادارية:

عرفنا فيما سبق أن خير الدين بعد أن عين بايلرباي على الجزائر العاصمة وما حولها احتفظ بها لنفسه وعين على الجزائر الشرقية والجزائر الغربية عمالا من قبله وبقي الأمر هكذا إلى عهد البايلرباي حسن بن خيرالدين الذي أعاد تنظيمها إداريا وقسمها إلى أربع بايليكات (عمالات) على كل منها باي نائبا على باشا:

1 ــ باليك الجزائر أو دار السلطان.
2 ــ بايليك الشرق ومركزه قسنطينة.
3 ــ بايليك الغرب ومركزه مازونة، فمعسكر، فوهران.
4 ــ بايليك التيطري ومركزه المدية.

وبقي هذا التنظيم إلى غاية نهاية العهد التركي:

وتحرير الأتراك لها



توسعات الدولة العثمانية في شمال افريقيا، وشرق أوروبا، والمشرق العربي خلال القرن السادس عشر

تحرشات الإسبانية
من مرافئ الشمال الأفريقي
في القرن السادس عشر
وتحرير الأتراك لها

1415
1497
1505
1510
1511
1509
1510
1510
1541
1547
1558
1708
1732
1791
1516
1519
1541
1510
1555
1535
1574
1510
1530
1560
1551

1535 FRANÇOIS Ier - SOLIMAN
LES CAPITULATIONS
EUROPE
1529
ÉCHEC OTTOMAN
Volga
ASIE
6



ESPAGNE
GRENADE
CADIX
TANGER
1497 MELILLA
1505 MERS EL KEBIR
1511 MOSTAGANEM
1509 ORAN
1510 TENES
CHERCHEL
1510 ALGER
1510 BOUGIE
LA CALLE
BONE
TUNIS
LA GOULETTE
DJERBA
1510 TRIPOLI
TLEMCEN
1510
LE ROI DE TLEMCEN SE RECONNAIT VASSAL DE FERDINAND LE CATHOLIQUE
REPRIS 1732
MAROC
AFRIQUE
ALGÉRIE
DU NORD
TUNISIE
CÉDÉ AUX CHEVALIERS DE MALTE PAR CH-QUINT. — CHASSÉS EN 1556 PAR DRAGUT.
OBJECTIF DE L'INSTALLATION ESPAGNOLE A TUNIS-LA GOULETTE
— CRÉER DE GRANDS EMPÊCHEMENTS AUX TURCS SE RENDANT A ALGER PAR VOIE DE MER.
— LEUR INTERDIRE TOUTE COMMUNICATION TERRESTRE.
TANT À TUNIS QU'À TLEMCEN, LES ESPAGNOLS SE CONTENTENT D'INSTALLER DES ROIS VASSAUX
LES ESPAGNOLS EN AFRIQUE DU NORD AU 16ème SIÈCLE
1510 CONQUÊTES
ÉCHECS DU TENTATIVES MALHEUREUSES

XVI[e] SIÈCLE :
ÉTAPES DE L'EXPANSION TURQUE À PARTIR D'ALGER ET DE TRIPOLI.

PROTECTORATS ESPAGNOLS CONSIDÉRÉS COMME "LES FRONTIÈRES DE L'ESPAGNE"

11

BARCELONE
ITALIE
NAPLES
ESPAGNE
MER MÉDITERRANÉE
SICILE
ALGÉRIE
MAROC
MERS EL KÉBIR
MOSTAGANEM
TLEMCEN
MARRAKECH
ALGER
DJIDJELLI
BONE
LA CALLE
LA GOULETTE
TUNIS
KAIROUAN
GAFSA
GABÈS
DJERBA
TRIPOLI

LA LIGNE TUNIS-SICILE-NAPLES PEUT ÊTRE CONSIDÉRÉE COMME FRONTIÈRE DE L'EMPIRE ESPAGNOL À LA LIMITE DU BASSIN OCCIDENTAL

RUPTURE DES RELATIONS MARITIMES ESPAGNE-ITALIE (OBJECTIF IDENTIQUE À CELUI DE LA FRANCE).

PREMIÈRE BASE DES FRÈRES BARBEROUSSE

1535
1545

1551
LES TURCS À TLEMCEN DÉFINITIVEMENT

1550
LES MAROCAINS À TLEMCEN

1534
KHEIR ED DINE À TUNIS

1535
CHARLES QUINT À TUNIS

1569

1573
DON JUAN À TUNIS

1574 LES TURCS À TUNIS-LA GOULETTE

مراحل التوسع العثماني في القرن السادس عشر انطلاقا من الجزائر وطرابلس



مجموعة الجزر الصخرية التي كانت أمام مدينة
الجزائر قبل إنشاء مينائها الحديث من طرف خيرالدين

امارات مغولية وروسية

المحيط الأطلسي

البحر الأسود

بحر قزوين

البحر المتوسط

اليمن

السودان

الجزائر في القرن السادس عشر بين القوتين العظيمتين:

الأمبراطورية العثمانية

الأمبراطورية الإسبانية

ومن الناحية العمرانية:

اهتم البايلربايات ببناء الحصون والقصور والمساجد والحمامات والمدارس بل وحتى الموانئ، وشهدت مدينة الجزائر بصفة خاصة إزدهارا كبيرا في العمران فشيدت بها قصور جميلة مزخرفة بالرخام، ومدت قنوات المياه والعيون إلى مختلف الأحياء، وأسست حمامات للاستحمام بالمجان، ومستشفيات للمرضى وقلع ضخمة ما تزال تشهد بعظمة هؤلاء الولاة. وكان لمهاجري الأندلس دور كبير في هذا الازدهار العمراني بخبرتهم الفائقة في العمارة والزخرفة.

ومن الناحية الاقتصادية:

تمتاز الجزائر في هذا العهد بغنى اقتصادي يرجع إلى غنى البلاد زراعيا وتنوع الموارد المالية التي تتزود بها خزانة الدولة ومن أهمها:

1 ــ أموال الزكوات على الماشية والحبوب والزيتون وأنواع الضرائب الأخرى التي تجمعها فرقة (المحلة).

2 ــ رسوم الحكر على أراضي المخزن.

3 ــ ضريبة الأحد عشر في المائة على الصادرات والواردات وحقوق الديوانية.

4 ــ الغرامة واللزمة.

5 ــ خمس غنائم البحر التي يغنمها الرياس.

6 ــ أموال الجزية المفروضة على الدول الأروبية.

7 ــ العوائد والهدايا التي يقدمها قناصل الدول عند تعيينهم في مناصبهم الجديدة أو تعيين باشا جديد أو تجديد معاهدة سابقة.

وفي الميدان العسكري:

عرفت الجزائر نظاما جديدا للجيش والقوات العسكرية يتمثل في القوات التركية الوافدة إليها مع بداية الفتح التركي، وتتنوع هذه القوات إلى نوعين:

1 ـــ طائفة الرياس التي تتكون من الجنود البحارة الذين قدموا مع عروج وخيرالدين وطعموا بعد ذلك بعدة عناصر من الأرقاء المسيحيين الذين يسلمون ويحسن اسلامهم ويظهرون كفاءة ومقدرة، وهذه الطائفة هي التي كانت تمد البلاد بالولاة.

2 ـــ طائفة الجنود المشاة أو (الانكشاريين) الذين بعث بهم السلطان العثماني إلى خيرالدين أثناء تعيينه بايلرباي، واستمروا بعد ذلك في النمو والزيادة على مر الزمان بعناصر أخرى تركية وغيرها ولكن الأتراك هم أكثر عناصر هذه الطائفة. وكانت هناك خصومات وحزازات بين الطائفتين وعندما جاء صالح رايس حاول إدماجها ففشل.

أما الجزائريون فلم يكن يسمح لهم في هذا العهد بالدخول إلى الجيش والتدرج في مناصبه خوفا من تمردهم على السلطة في مستقبل الأيام. وعندما حاول حسن باشا بن خيرالدين ان يدخل منهم عناصر إلى الجيش دبرت ضده مؤامرات انتهت بعزله عن الجزائر عام 1568م.

عهد الباشوات الثلاثيين 1587 ـــ 1659:

أسباب تغير النظام السابق:

لقد كان ولاة عهد البايلرباي أقوياء وأصحاب نفوذ واسع تخطت سلطتهم الجزائر إلى تونس وطرابلس بحكم أنهم أصحاب فضل في فتح هذين البلدين والحاقهما بالدولة العثمانية التي كافأتهم على ذلك باعطائهم امتيازات واسعة من بينها تعيين باشوات تونس وطرابلس واختيار من يخلفهم في منصب البايلرباي عندما يتقرر رحيلهم إلى القسطنطينية لتسلم منصب كبير وجديد مثل قبطان باشا على البحرية العثمانية، ولما كانت آماد حكم هؤلاء البايلربايات غير محدودة فكثيرا ما تمتد فترة الواحد منهم عدة سنوات في منصبه ويصبح صاحب مركز قوي ونفوذ واسع لدرجة أن الدولة العثمانية

بدأت تشتم رائحة التمرد ومحاولة الانفصال عنها والاستقلال بهذه البلاد خاصة وان الشقة بعيدة بين القسطنطينية والجزائر ويتضح ذلك من الشكوك الكثيرة التي تراودها تجاه حسن بن خيرالدين والعلج علي. ومن أجل ذلك فكرت في علاج المشكل وايجاد أنجع وسيلة لضمان بقاء ولاية الشمال الافريقي لها واعتبرت ان تقصير مدة حكم الوالي إلى ثلاثة سنوات فقط والتنقيص من امتيازاته السابقة، واختصاصاته، وتغيير لقبه إلى الباشا سيتيح نوعا من الاستقرار، ويضمن إحكام سيطرتها على البلاد ورقابتها على الولاة أكثر.

ولذلك فبعد انتهاء ولاية البايلرباي حسن فنزيانو عام 1587م عينت الدولة العثمانية أحمد باشا والي جديدا على الجزائر لمدة ثلاث سنوات وافتتح عهده بالقيام بعدة غزوات إلى الشواطىء الايطالية والاسبانية وبذلك ظهر وبدأ عهد الباشاوات الثلاثيين. ورغم أن هذا النظام الجديد ضمن للباب العالي سيطرته على الجزائر وباقي بلدان الشمال الافريقي عدا المغرب الأقصى، ولكنه كان يحمل في طياته مظاهر الضعف والعجز والعنف في آن واحد. ذلك أن هؤلاء الباشاوات بحكم تحديد مدة حكم كل منهم أصبحوا لا يهتمون بمصلحة البلاد العليا، وخدمة الأهالي بقدر ما كانوا يهتمون بجمع الأموال بمختلف الوسائل للإثراء قبل رحيلهم عن البلاد. وتفشت فيهم ظاهرة شراء منصب الباشوية بالأموال والرشاوي والهدايا مما جعلهم يرهقون السكان بالضرائب المختلفة.

وإلى جانب هذا فان هؤلاء الباشوات بمرور الزمن أخذوا يفقدون سلطاتهم التي تحولت إلى مجلس الديوان أو الأوجاق الذي أصبح يسيطر على الأوضاع والشؤون العامة وصار يحد من سلطات الولاة ويفتك منهم امتيازاتهم واختصاصاتهم، وهو يتألف من عدد كبير من الشخصيات العسكرية والمدنية والدينية وكان لطبقة الرياس نفوذ واسع داخله كما سيأتي.

الأحداث البارزة لهذا العهد:

هناك عدة أحداث بارزة تميز هذا العهد بعضها خارجية، وبعضها داخلية، أما الأحداث الخارجية فتتمثل في بداية الصارع مع الدولة العثمانية ومواصلة الجهاد ضد القراصنة الأوروبيين في البحار وخاصة ضد فرنسا. وأما الأحداث الداخلية فتتمثل في الصراع ضد إمارة قلعة بني عباس، وفي ظهور عدد من الثورات الداخلية في العاصمة وفي شرق البلاد، والجنوب، وفي الصراع بين القوات العسكرية الانكشارية البحرية وطائفة الرياس البحرية.

الصراع ضد الدولة العثمانية:

لقد كان الدافع الكبير لاستحداث نظام الباشوات هو الرغبة في أحكام الدولة العثمانية سيطرتها على البلاد ومنع حدوث التمرد ضدها. ولكن الأمور صارت في غير هذا الاتجاه، فلقد بدأ ديوان الأوجاق يتقوى ويوسع من نفوذه وسيطرته خلال هذا العهد وعمل بالتدرج على التخلص من الهيمنة العثمانية، وتلاقت جهوده مع جهود الباشوات لتجسيم هذا الاتجاه وابرازه.

فشجع الباشا خضر طائفة الرياس على الغزو البحري، وسعى لوضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين في ساحل القالة وعنابة، وأمر بهدم مركزهم التجاري هناك، وأسر ما فيه من الأشخاص المشبوه في أمرهم. ولم يستطع خلفه أن يعالج الموقف كما تريد الدولة العثمانية لأن الديوان عارض بشدة أوامر السلطان وتعليماته التي حملها إليه مبعوثه الخاص الآغا مصطفى القابجي، القاضية بإعادة بناء المركز الفرنسي واطلاق سراح الفرنسيين الأسرى.

توتر العلاقات بين الجزائر وفرنسا:

ولقد انجز عن هذا الصراع بين الجزائر والدولة العثمانية توتر العلاقات بينهما وبين فرنسا كذلك، واستفحال أزمة الثقة بينهما بسبب عدة مشاكل ذات صلة بالقرصنة والحروب البحرية، فقد نشط الرياس في هذا العهد، في الغزو

والحروب البحرية ولمعت أسماء كثير من الرياس، أمثال مامي فورصو، ومامي نابوليتانو، ورجب رايس، ومحمد عوجية رايس، وعلي بتشيني، وأخذوا يترددون على الشواطيء الفرنسية بأمر من الباب العالي استجابة لاستنجاد الملك الفرنسي هنري الرابع ضد الاعتداءات الاسبانية. وبعد أن فشلت الحملة الاسبانية على مدينة الجزائر في أوت عام 1601 التي وضع خطتها قرصان فرنسي إسمه روكي، عمل باشوات الجزائر على وضع حد لامتيازات التجار الفرنسيين، واشتكى هنري الرابع إلى الباب العالي من تصرفات الباشا خضر الذي أمر بتحطيم المركز الفرنسي بالقالة وأسر رواده، فعزله ولكن خلفاءه عجزوا عن ارضاء فرنسا بسبب معارضة الديوان لذلك، ولم تفلح محاولة القابيجي رسول السلطان في ايجاد حل للمشكلة كما سبق القول، ولذلك مال كل فريق لاستعمال القوة وأخذ الفرنسيون يعتدون على السفن الجزائرية كما أخذ الرياس الجزائريون يردون على هذا العنف بمثله فألقوا القبض على القنصل الفرنسي بالجزائر وأرغموه على اطلاق سراح الأسرى الجزائريين الذين احتجزوهم بمرسيليا. وكان من المفروض ان تهدأ الأحوال بين البلدين بعد هذا لكن قيام أحد القراصنة الفرنسيين المدعو سيمون دانسا بسرقة مدفعين من البرونز والفرار بهما إلى فرنسا عقد الأمر بينهما وحفز الرياس الجزائريين على مهاجمة السفن الفرنسية أينما وجدت فتضخمت الخسائر الفرنسية المادية والبشرية وتعرضت تجارتهم للأضرار الفادحة وعجزت الديبلوماسية الفرنسية وقواتها العسكرية على التغلب على الصعوبات الكثيرة واضطرت فرنسا إلى مفاوضة الجزائر والوصول معها إلى توقيع اتفاقية 24 مارس 1619 التي تنص على تبادل الأسرى وإعادة المدفعين المهربين وذلك بفضل ضغط تجار مرسيليا المتضررين أكثر. وجاء حادث إعادة المدفعين واطلاق سراح 200 أسير جزائري (1626) ليخلق جوا من التفاؤل بين البلدين ساعد على إبرام معاهدة 19 سبتمبر 1628 وذلك بفضل جهود المبعوث الفرنسي الذي اهتم باصلاح ذات البين وايجاد نوع من التقارب خدمة للمصالح الفرنسية

السياسية والتجارية وقد نصت هذه المعاهدة التي وافق عليها الديوان الجزائري في نفس ذلك التاريخ على:

1 — اطلاق سراح الأسرى من الجانبين.
2 — التوقف عن الأسر من الجانبين.
3 — مسالمة البواخر الفرنسية في البحر.
4 — تعيين قنصل فرنسي بالجزائر يتمتع بالحصانة.
5 — إعادة بناء مركز القالة الفرنسي التجاري.

وكان من المفروض أن تسير الأمور على ما يرام بعد ابرام هذه المعاهدة ولكن حوادث العنف سرعان ما تجددت بسبب عدم احترام الفرنسيين لنصوص المعاهدة وقيامهم بالاعتداء المتكرر على السفن الجزائرية وشواطئها وقتل الكثير من الجزائريين في مناسبات مختلفة تحت سمع وبصر الرسميين الفرنسيين مما جعل الجزائريين يردون على العنف بمثله ويتتبعون المراكب الفرنسية ويأسرونها بما فيها.

الخلاف مع تونس:

ومن الأمور ذات الدلالة اشتداد الخلاف بين الجزائر وتونس بسبب الأحداث التي تجري في شرق الجزائر، فقد قام الباشا حسين الشيخ بإبرام معاهدة مع باي تونس لتحديد مناطق الحدود ولكن الباشوات الذين جاؤوا بعده شعروا بأن بايات تونس هم الذين يشجعون على قيام الاضطرابات في شرق الجزائر فقام الباشا خضر باعلان الحرب على تونس واستمرت مدة من الزمن وحصلت بينهما عدة وقائع حربية في منطقة الحدود إلى أن تم في عهد الباشا حسين الشيخ في ولايته الثانية ابرام معاهدة صلح بين البلدين خططت فيها الحدود بينهما، في نفس العام الذي أبرمت فيه معاهدة الصلح مع الفرنسيين عام 1628.

الصراع بين القوة الانكشارية وطائفة الرياس:

لقد استقدمت الى الجزائر فرق تركية انكشارية برية منذ تعين خير الدين بايلرباي عليها ونمت وكبرت هذه الفرق بمرور الزمن وأخذ ضباطها يتطلعون إلى الحكم والسيطرة بمختلف الوسائل ومن أجل ذلك عمل كثير من ولاة البايلربايات على التخلص منها وتصفية وجودها إما بادماجها مع فرق الجنود البحارة تحت سلطة الرياس أو خلق فرق من المشاة الجزائريين، كما حاول ذلك الباشا حسن بن خير الدين، ومحمد بن صالح رايس، ولكن كل هذه المحاولات لم تنجح لأن ضباط هذه الكتائب الانكشارية كانوا ذوي جرأة ومغامرة يسبقون الحوادث.

وقد حاول الباشا خضر أن يتخلص من هذه الفرق التي أصبحت خطرا يهدد السلطة والدولة من الناحيتين الأخلاقية والسياسية وصار الشعب يعاني الأمرين من ظلمها وجبروتها وسطوتها على الأموال، وهكذا ثار الناس ضدها بالعاصمة وامتد الغضب إلى الأحواز فهب الناس من كل جهة للقضاء على هؤلاء الجنود العتاه، ولكن المحاولة باءت بالفشل وانتهى الأمر بعزل الباشا خضر مما دفع الناس إلى الاستنجاد بقوة إمارة بني عباس التي حاصرت مدينة الجزائر قرابة نصف شهر حتى تدخل السلطان العثماني في الأمر وعالجه بصورة وقتية إلى حين.

الصراع ضد قلعة بن عباس:

كانت امارة القلعة بني عباس تحكمها أسرة تابعة للحماديين بقلعة بني حماد ببجاية ثم خضعت للحفصيين وصارت تتبع للامارة الحفصية بقسنطينة. وحملت لواء المقاومة ضد الاتراك منذ أيام خيرالدين الذين فشلوا في اخضاعها رغم كل المحاولات التي بذلوها، فقد بذل صالح رايس جهده لاخضاعها واستعمل حتى وسائل الخداع للايقاع بها فلم ينجح فاستدعي أميرها عبدالعزيز إلى الجزائر العاصمة على أمل القبض عليه بعد أن استأمنه

وعندما تفطن للمكيدة فر ليلا من قصره بحي الجنينة ونظم مقاومة شديدة ضد الأتراك وألحق بقوات محمد بن صالح رايس هزائم ساحقة وشتت شمل عساكره كما ألحق بسنان رايس والقائد رمضان نفس الهزائم في العام الموالي بواد اللحم. وجدد حسن باشا بن خيرالدين نفس المحاولة ضد إمارة القلعة التي أصبحت تكون خطرا شديدا على طريق المواصلات بين الجزائر وقسنطينة، فصاهر سلطان جبل كوكو أحمد بن القا ضي ليضمه إلى جانبه ثم حشد قوات كبيرة اتجه بها إلى القلعة لمهاجمتها واستولى في طريقه على عدة مدن وقرى، وأسس عددا من القلع والحصون العسكرية في المسيلة، وبرج بوعريريج، وزمورة، لتكون مراكز دائمة لقوات الأتراك. ولكن حسن بن خير الدين فشل في تحطيم امارة القلعة لأنها اتبعت ضده وضد قواته حرب العصابات وساعدتها طبيعة المنطقة الجبلية المنيعة على ذلك. ورغم مقتل السلطان عبدالعزيز في إحدى المعارك إلا أن أخاه أحمد أمقران استطاع أن يحرز النصر على الأتراك ويرغمهم على الأنسحاب ويطردهم حتى من امارة جبل كوكو ويفتك منهم الاعتراف بامارته وسلطته. ونتيجة لتجدد أخطار امارة القلعة وتهديدها المستمر لطريق المواصلات بين الشرق والغرب أمر الباشا مصطفى بتأسيس مدينة صور الغزلان لتكون مركزا ومحطة لتأمين الطريق بين الجزائر وقسنطينة ولمقاومة قوات امارة القلعة التي أصبحت تهدد فرق المحلة المكلفة باستخلاص الضرائب. وحاول الباشا سليمان فنزيانو أن يضع حدا لقوات القلعة فجهز حملة عسكرية ضد أحمد أمقران ولكنه هزم كما هزم في العام الموالي ابنه ناصر في قرية جمعة الصهريج. على أن هذه الامارة سرعان ما خضعت بسبب تشديد الأتراك عليها.

الصراع الداخلي وقيام الثورات:

لقد استحدثت الدولة العثمانية نظام الباشوات الثلاثيين من أجل أن تحكم سيطرتها على البلاد وتجنب ربما ما يمكن أن يحدث ضدها من العصيان والتمرد، ولكن هؤلاء الباشوات سرعان ما فقدوا نفوذهم وسيطرتهم على الأوجاق الذي كان يرفض باستمرار كل سلطة تخالف اتجاهه مما جعل الباشوات يتعرضون لضغط مزدوج من السلطان العثماني ومن ديوان الأوجاق بالجزائر.

وكانت طائفة الرياس داخل مجلس الديوان تميل إلى مقاومة نفوذ السلطان مثل السكان الجزائريين الذين يستفيدون منهم في الميدان التجاري، ذلك لأن الرياس البحريين يغنمون في البحار أموالا وبضائع كثيرة ومتنوعة ويعرضونها للبيع في الموانئ والمدن الساحلية فتروج التجارة وتنمو الثروات الخاصة بالسكان مما يجعلهم يميلون بعواطفهم إلى أفراد هذه الطائفة. ولقد كان من أهم قرارات الديوان ضد نفوذ الباشوات اخضاع خزينة الدولة لادارته وارغام الباشوات على دفع مرتبات الجنود من اختصاصاتهم المالية وحدها، وجاء هذا الحدث ليشعل نيران ثورة عارمة عام 1633م تزعمها عنصر الكراغلة (الأب تركي والأم جزائرية) الذين هاجموا مدينة الجزائر وحاصروا القوات التركية بالقصبة بسبب عجز الولاة عن دفع المرتبات للجنود.

وحصلت بالمدينة مذبحة كبيرة ورهيبة بسبب انفجار مخزن للبارود وانتهى الأمر بسيطرة الرايس علي بتشيني على السلطة وهو صاحب المسجد المعروف بالعاصمة وصاحب سمعة وشهرة واسعة في الجزائر وفي البلدان الأوروبية بفضل الانتصارات الكبيرة التي أحرز عليها الأسطول الجزائري في البحر المتوسط، والأطلسي، وبحر الشمال. وكان ذاميول استقلالية وصاهر سلطان كوكو كتقوية لمركزه ونفوذه في هذه الفترة.

على أنه من جهة أخرى تعرضت الجزائر لحادث أليم أدى إلى فقدانها لنصف أسطولها البحري، فقد استنجد الباب العالي بأسطول الجزائر لمساعدته في حروبه في منطقة البحر الأدرياتيكي بشرق المتوسط وذهب علي بتشيني على رأس هذا الأسطول واضطرته العواصف الهوجاء إلى الاحتماء ببعض الموانيء الايطالية، (لافالون) حيث تعرض لهجوم غادر أدى إلى تحطيم نصفه تقريبا ومقتل كثير من قادته. ورغم أن الباب العالي وعد بتعويض تلك الخسائر إلا أنه لم يوف بعهده مما جعل الجزائر تتأكد من سوء نوايا السلطان وتعمل بجد على معارضة كل التعليمات التي تأتي منه ما دامت

لا تعمل ولا تفكر إلاّ في مصالحها الخاصة. ولم تمض بضعة سنوات على ثورة الكراغلة بالعاصمة حتى شبت ثورة أخرى عارمة امتد لهيبها إلى الأعماق الصحراوية وإلى منطقة القبائل الكبرى، فقد رفض الباي دفع الضرائب للسلطة التركية وتعرض الحكم التركي لهزات عنيفة وإلى هزائم في أكثر من ميدان نتج عنها اضطرابات في سير الادارة بالجزائر نفسها، وانتهى الأمر بسيطرة الفرق الانكشارية على السلطة واختفاء نظام الباشوات وقيام نظام الآغوات.

عهد الآغوات

1659 — 1671

خصائص هذا النظام:

في أواخر عهد الباشا ابراهيم (1656 — 1659) قامت ضده ثورة عارمة تزعمها رياس البحر من جهة، والجنود الانكشاريون من جهة ثانية. أما الرياس فقد ثاروا بسبب قيام الباشا ابراهيم بحرمانهم من المبالغ المالية التي خصصها لهم الباب العالي تعويضا عن خسائرهم في الأدرياتي. وقيامه بدفعها كرشاوي لرجالات الدولة في القسطنطينية حتى يبقوه في منصبه. ومن أجل ذلك هاجم الرياس قصره واعتقلوه وأودعوه السجن. وأما الجنود الانكشاريون فكانوا باستمرار يحاولون اغتنام الفرص للاستيلاء على الحكم فوجدوا في هذا الحادث فرصة لهم وقاموا بانقلاب مفاجيء على الرياس وقضوا على سلطة الباشا الذي أصبح منصبه شرفيا فقط، واتفقوا على اسناد السلطة التنفيذية للآغا، على ألا تزيد مدة حكمه عن شهرين فقط ليأتي بعده آغا آخر. وجعل السلطة التشريعية في يد مجلس الديوان (الأوجاق) وأرغم السلطان على قبول هذا مكرها ولكنه اشترط أن يتولى الديوان دفع رواتب الجند التركي. وبذلك بدأ عهد الآغاوات. ولأول مرة تصبح طائفة الرياس في مركز ثانوي بالنسبة لشؤون الحكم، ومنذ البداية كان هذا النظام يحمل في طياته بوادر الانحلال والتفكك والفوضى. فتولية الآغا لمدة شهرين ثم عزله والاتيان بآخر، لا يساعد على الاستقرار أبدا، كما أن الآغاوات أصبحوا يرفضون التخلي عن مناصبهم عندما تنتهي مدة حكم كل منهم، ويؤدي ذلك إلى قيام خصومات واضطرابات ومؤامرات وإلى استعمال القوة مما جعل

معظم آغاوات هذا العهد يموتون موتة غير طبيعية بالاغتيال والقتل والبعض منهم يعزلون بالقوة كذلك. ومن الأمور ذات الأهمية والدلالة أن طائفة الرياس كانت تشارك في اثارة الاضطرابات ضد الآغاوات كمحاولة منها لاستعادة السلطة والحكم منهم.

أهم أحداث هذا العهد:

في الميدان الخارجي حاول ديوان الأوجاق أن يحسن علاقاته مع فرنسا ولكنها أعرضت عن ذلك وواصل القراصنة الفرنسيون اعتداءاتهم على السفن والمراكب الجزائرية في البحر، وعلى شواطىء الجزائر نفسها وأشتدت حالة الحروب البحرية بين البلدين وعادت بالأضرار على التجارة الفرنسية وعلى الأوضاع الداخلية بالجزائر. فدخل حلبة الصراع ضد الجزائر إلى جانب الفرنسيين كل من قراصنة الأنجليز، والاسبان، والهولنديين، وكاد الأمر أن يتحول إلى تحالف أروبي ضد الجزائر لولا أن السلطات الجزائرية كانت حاذقة واتبعت طريقة محالفة البعض ومعادات البعض الآخر على التوالي تجنبا لقيام جبهة أروبية ضدها. فصالحت الهولنديين سنة 1663 لتتفرغ لمحاربة الفرنسيين، وصالحت فرنسا لتحارب الانجليز والهولنديين، وصالحت عام 1671 الانجليز لتعود إلى الحرب ضد فرنسا وهكذا.

أطماع لويس الرابع عشر في الجزائر:

لقد كان لويس الرابع عشر (1643 — 1715) شديد الحقد على الاسلام والمسلمين وفي نفس الوقت كانت لديه أطماع استعمارية. كما أن وزيره كولبير كان شديد الاهتمام باحياء التجارة الفرنسية بالمشرق وتأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية فيما وراء البحار ولما كان ذلك لا يتأتى ولا يتحقق ما دامت بحرية الجزائر القوية صاحبة السلطة والنفوذ الواسع في البحر المتوسط الغربي، فقد جرى الاهتمام بوضع الخطط لتحطيمها والعمل على احتلال الجزائر نفسها وتم إرسال بعض الجواسيس إليها منذ عام 1658

لدراسة أوضاعها واختيار المكان المناسب لاحتلالها. فاقترحوا على كول...
عام 1662 احتلال القل وجيجل فحشد قوات كبيرة ووجهها لاحتلال ال...
في ربيع عام 1663 فتعرضت لفشل ذريع هناك كما تعرضت لهزيمة ساحق...
أمام مدينة الجزائر عندما اتجهت إليها في نفس العام. وفي جويلية 1664
وجه لويس 14 حملة عسكرية أخرى ضد جيجل احتلها قرابة ثلاثة شهو...
ثم طردها الأهالي بعد أن كبدوها خسائر جسيمة. واضطرت فرنسا إل...
مفاوضة الجزائر وامضاء اتفاقية 7 ماي 1666 التي نصت على تطبيق اتفاق...
1628م واطلاق الأسرى من الجانبين ومسالمة سفن الجانبين في البحار...
وبعد ابرام المعاهدة حصل هدوء نسبي بين البلدين لتدخل قوات أخرى
في الصراع.

أطماع الانجليز:

لم يتعظ الانجليز بما لحق فرنسا من خسائر في تجارتها وتجربتها فأخذوا يهاجمون الجزائر منذ عام 1669 ويعتدون على مراكب الجزائر في عرض البحر وأحدثوا تخريبا في مدينة بجاية عام 1671 وبالجزائر العاصمة كذلك وأدى إلى ظهور تذمر شعبي في البلاد ضد ضعف حكم الآغوات تحول بسرعة إلى ثورة عارمة انتهت بمقتل علي آغا وانهاء عهد الآغوات نفسه.

في الميدان الداخلي:

لم يستطع الآغوات ان يركزوا سلطتهم ويفرضوا نفوذهم على الأوضاع بسبب التناقضات التي تتخلل نظامهم، واشتداد الغزو الأروبي للبلاد وتحفز طائفة الرياس باستمرار لاستعادة السلطة منهم، وتصارعهم فيما بينهم على السلطة. ومن أجل ذلك شبت عدة ثورات ضدهم في جهات كثيرة وخاصة حول العاصمة وبلاد القبائل عام 1668 نالت من هيبتهم وجعلتهم عاجزين على القبض بزمام الأمور، وضبط النظام بأيدي

قوية، وفي أواخر عهد الآغا علي (1665 — 1671) الذي امتد حكمه بضعة سنوات انقض عليه الرياس وقتلوه ولم يستطع أحد أن يخلفه في الحكم لخوفهم من عاقبة الاغتيال التي أصبحت عادة ضد كل آغا. فاجتمع ديوان الأوجاق ودرس الوضع وقرر في النهاية، إلغاء نظام الآغوات وتعويضه بنظام جديد هو نظام الدايات (جمع داي ومعناه زعيم باللغة التركية) على أن يبقى الداي في الحكم طول حياته ويتولى تنفيذ أوامر وتعليمات الديوان صاحب السلطة العليا في البلاد وسيكون لهذا النظام الجديد دور مهم في تاريخ البلاد الجزائرية كما سيأتي:

عهد الدايات

(1830 — 1671)

كان للهجومات المتوالية التي شنها الأوروبيون على الجزائر أواخر عهد الأغوات تأثير كبير على الوضع الداخلي للبلاد. وعلى السلطة نفسها. فقد فقدت البلاد كثيرا من سفنها التجارية، وتأثرت طائفة الرياس بصفة خاصة لأنها هي التي تضررت أكثر من غيرها باعتبار انها مالكة الأسطول والمراكب البحرية. ومن أجل ذلك تآمر الرياس على آخر الأغوات علي آغا، وقتلوه أوائل عام 1671 ورفض عدد آخر من الأغوات قبول هذا المنصب باعتبار أنه يؤدي إلى نفس المصير الذي وقع فيه علي آغا. ولقد بدأت الحادثة بسيطة باغتيال علي آغا وإذا بها تتحول إلى انقلاب جذري في أسس السلطة العليا إذ استعملت طائفة الرياس الحادثة وانتزعت السلطة من المسؤول الرئيسي واتفقت مع الديوان الذي تمثل الأغلبية داخله على الغاء نظام الأغوية، وتعويضه بنظام آخر أكثر استقرارا يتمثل في تعيين داي في منصب الوالي طوال حياته على ألا يكون له الحق في تعيين من يخلفه، وانما يكون ذلك من حق مجلس الديوان مما جعل النظام يخالف الملكية الوراثية. ولا شك أن بقاء الداي في منصب الرياسة طوال حياته يساعد على ايجاد نوع من الاستقرار أكثر وشيئا فشيئا استطاع الدايات ان يكونوا لأنفسهم سلطة واسعة ويحدّوا من سلطة الديوان نفسه الذي أصبح لا يستدعى للاجتماع إلا بصورة شكلية. وقد أبقى الدايات على منصب الباشوية الشرفي مدة من الزمن بحيث يعين الباب العالي باشا يكون إلى جانب الداي ولكنه لا يحكم وليس له أي نفوذ ثم سرعان ما قاوم الدايات هذه الازدواجية وأصبح الداي هو نفسه باشا كما سيأتي. وبذلك استأثروا بكل مظاهر السلطة والنفوذ في البلاد.

الاستقلال عن الدولة العثمانية:

لقد كانت الجزائر قبل هذا العهد خاضعة للدولة العثمانية، وينفذ الولاة أوامرها بحذافيرها خاصة ولاة البايلرباي والباشوات. وكانت سياسة الجزائر الخارجية تتحكم فيها الدولة العثمانية بحيث كانت الواسطة بينها وبين الدول الأخرى ذات المصالح بها. ولقد لاحظنا في عهد الباشوات ظهور سلطة الديوان ووقوفه في وجه السيطرة والنفوذ العثماني، وسعيه الدائم لاحتفاظ الجزائر بشخصيتها في الميدانين الداخلي والخارجي، ولكن الدايات هم الذين استطاعوا أن يحققوا للجزائر استقلالها الحقيقي عن الدولة العثمانية التي لم يكن لها يد في هذا الانقلاب ولم تستطع أن تواجهه ولم يكن للسلطان نفوذ سوى اصدار الفرمانات بالموافقة على تسمية الدايات الذين يعينهم الديوان وتعيين الباشا الشكلي الذي يجلس إلى جانب الداي ولا يحكم. ولكن تعيين هذا الباشا أصبح مشكلة لدى الداي لأن السلطان كان بواسطته يحاول استعادة ما فقده من نفوذ، والدايات يشعرون بوجود مضايقة وازدواجية في الحكم فأخذوا يسعون للقضاء عليه والغائه بالوسائل المختلفة وكثيرا ما منعوا نزوله إلى البر عندما يقدم من القسطنطينية كما حصل عام (1686م) أثناء ولاية الداي حسين ميزومورتو، وفي عام (1711م) في عهد الداي علي شاوش، الذي أرغم الباشا الجديد على الانسحاب من الميناء إلى القل ليموت هناك كمدا ثم اقنع الباب العالي على تعيينه هو باشا إلى جانب منصب الداي وبذلك أدمج منصب الباشوية مع منصب الداي وأصبح سنة متبعة لمن جاء بعده. وأكثر من هذا قاوم الدايات حتى وساطة الباب العالي في المشاكل الخارجية باعتبار ذلك تدخلا في مشاكل الجزائر الداخلية وسعيا من السلطان لاستعادة نفوذه. فرفض الداي كرد علي، وساطة الدولة العثمانية من أجل ابرام صلح مع اسبانيا عام (1725 وعام 1726) كما رفض تسليم الثائر المصري شركس محمد لمبعوث السلطان. وقاوم في عام 1729 محاولة السلطان المكشوفة لاعادة سلطته عندما بعث إلى الجزائر باشا جديدا وشخصيات أخرى معاونة له فرفض نزولهم إلى البر

وأرغمهم على الانسحاب والعودة من حيث أتوا. وهكذا نلاحظ في عهد الدايات أن السلطان العثماني لم يبق له من مظاهر النفوذ الشكلية إلا الدعوة له على المنابر أيام الجمع والأعياد، وإصدار الفرمانات بالموافقة على تسمية الدايات المعينين من قبل الديوان، وتلقي هدايا رمزية أحيانا سنويا وأحيانا بعد عدة سنوات، والمشاركة في حروبه في بعض الأحيان، أما مظاهر السيادة الأخرى فقد كانت الجزائر مستقلة فيها تماما بحيث تتصل مباشرة بالدول الأجنبية وتعلن الحروب وتعقد السلم وتستقبل القناصل الأجانب وتحتضنهم لديها دون الرجوع إلى الباب العالي.

الوضع الداخلي:

بالرغم مما كان يمثله عهد الدايات من القوة في المجال الخارجي إلا أن الأوضاع الداخلية لم تكن على ما يرام وكانت القلاقل المتواصلة هي الطابع الذي يميز هذا العهد.

أولا — تحكم الطبقة العسكرية واحتكارها للسلطة وتناحرها على الحكم والسيطرة وجعل الشعب على الهامش يتفرج على الأحداث والاغتيالات المتكررة في صفوف الدايات والجنود الأتراك، وقد انجر عن هذا فشو الفتن والاضطرابات الأهلية خاصة بين السكان بالعاصمة.

ثانيا — محاولات الدولة العثمانية المتكررة التدخل في شؤون الدولة الجزائرية من أجل استرجاع سلطتها واستعادة نفوذها السابق أيام البايلربايات والباشوات وتأثير ذلك على مركز الدايات وتحفز القوى المعادية لهم على التمرد والعصيان.

ثالثا — كثرة الغارات الأوروبية على سواحل البلاد برغبة الانتقام من قوة الجزائر البحرية ومحاولة إذلالها خاصة من طرف الاسبان، والفرنسيين، والأنجليز. وقد انجر عن هذا أن البلاد كانت تعيش في حالة حرب

في معظم الأوقات وأن القيادة العسكرية كانت تتخذ هذا العامل وسيلة لفرض المزيد من الأتاوات على الأهالي الذين كثيرا ما ترهقهم ويضطرون إلى العصيان والتمرد، ويقوم الدايات بمواجهتهم عندئذ بالقوة وسفك الدماء، ومما تجدر ملاحظته أن موقف الجزائر المعادي لتونس والمغرب الأقصى وفي بعض الأحيان لطرابلس من العوامل التي كانت تحفز الأوروبيين على الاعتداء عليها، إذ لو كانت بلدان المغرب في حالة وئام ووفاق لأمكن لقواتها المشتركة ان تقضي على كل محاولة أوروبية ضدها.

رابعا — شعور السكان بعدم الأمن والطمأنينة. وارهاقهم بالضرائب والغرامات دون المراعاة لمداخلهم وأوضاعهم المالية وجعلهم في حالة الاستعداد للاجابة لكل حركة عصيان وتمرد ضد السلطة المركزية والاقليمية وهكذا نلاحظ قيام عدد من حركات العصيان والتمرد طوال عهد الدايات في العاصمة وبايليكات الشرق والغرب وكانت بعض هذه الحركات تحاول إزالة الحكم التركي من أصله وطمسه. فحاول سكان العاصمة والقبائل المجاورة عام 1692 التخلص من الحكم التركي أثناء غياب الداي وقيامه بالهجوم على تونس وأدت المحاولة الى إشعال النيران في مرافق الميناء وبعض السفن الراسية به، وقام كراغلة تلمسان بحركة تمرد واسعة في عهد الداي ابراهيم كوجوك، فسيطروا على المدينة وطردوا منها الحامية التركية وحاولوا ربط الاتصالات مع كراغلة عاصمة الجزائر من أجل القيام بنفس العمل حتى تكون الحركة شاملة وتطهر البلاد من الحكم التركي الثقيل عليها. ولكن الداي تفطن للمحاولة منذ البداية فوضع لها حدا وقضى عليها في المهد بقوة وصرامة وهذا إن دل على شيء فانما يدل على عجز الأتراك الحاكمين على الذوبان في العنصر الأهلي واندماجهم فيه اندماجا كاملا، وتصور الناس لهم كأنهم أجانب غرباء على البلاد. وقام سكان قليبة بالقبائل الكبرى بعصيان عام 1767 دام ما يقرب من سبع سنوات بسبب ارهاقهم بالضرائب وزحفت قواتهم إلى ضواحي العاصمة نفسها وتتبعوا قوات الداي في قرى متيجة، وقبل عصيان قليبة تمرد السكان في البلدة

والحضنة وبسكرة، وفي بعض واحات الجنوب، والنمامشة بالأوراس، وظهرت حوادث بقسنطينة أدت إلى مقتل صالح باي الذي كان شخصية ادارية مرموقة في ذلك البايليك وصاحب شعبية بين السكان وذلك في عام 1792م ففقدت الجزائر فيه رجلا سياسيا وقائدا عسكريا واداريا محنكا. وزيادة على هذا يلاحظ قيام رجال الزوايا بالمشاركة في اثارة الاضطرابات والثورات في هذه الفترة، حيث تزعم محمد باللحرش مقدم الطريقة الدرقاوية الشاذلية، الثورة في إقليم قسنطينة وسيطر على جيجل والقل والقالة، وساعده عبدالله الزبوشي مقدم الطريقة الرحمانية واتفقا على احتلال مدينة قسنطينة عاصمة البايليك، واعتصم باللحرش في جبال الشمال القسنطيني، وحاول احتلال بجاية واثارة سكان الحضنة ليجعل حركته ثورة عامة، وامتد نشاطها إلى جهات الأصنام. وفي الوقت الذي كان باللحرش يقوم بحركته في الشرق القسنطيني هب الدرقاويون بغرب الجزائر لتوسيع نطاق الثورة وتزعم شريف درقاوي آخر التمرد، وحتى التجانيون بعين ماضي شاركوا في الثورة ضد الحكم التركي.

خامسا – ومما زاد في مصاعب الجزائر الداخلية في هذه الفترة حدوث زلازل مخربة بها في أعوام 1716 و 1717 و 1755 وحصول أوبئة في أعوام 1752 و 1753 و 1787، وحصول قحط وجفاف في بعض السنوات الأخرى وأدى كل ذلك إلى موت الآلاف من الناس وانتشار الفقر والبؤس وقلة المؤن والمحصولات الزراعية ونتج على ذلك انتشار الغضب والتذمر على المستوى الشعبي.

علاقات الجزائر بجيرانها في المغرب وتونس وطرابلس:

لم تكن علاقات الجزائر مع باقي بلدان المغرب العربي حسنة وودية بسبب لعدة ظروف تاريخية، فلقد كانت الجزائر تعتبر تونس إقليما تابعا لها يحكم لأنها هي التي طردت منه الاسبان وضمته إلى الدولة العثمانية



التي جعلت تعيين باشواتها من اختصاص بايلربايات الجزائر، وعلى هذا الأساس كانت الجزائر تحاول باستمرار أن تجعل هذه التبعية حقيقة ملموسة وكانت تونس ترفض ذلك وترى انها مثل الجزائر تتبع رأسا للقسطنطينية. وأكثر من ذلك كان لتونس أطماع في اقليم قسنطينة موروث من العهد الحفصي. أما المغرب الأقصى فقد قاوم منذ البداية وبإصرار سعي الأتراك للسيطرة عليه وأصبح ينظر إلى الجزائر على أنها خطر داهم عليه يجب تفاديه بكل الوسائل ومنها التآمر مع أي كان ولو كان مسيحيا. وأكثر من هذا فان المغرب له أطماع قديمة في غرب الجزائر وتلمسان بصفة خاصة ولم يخف سلاطينه هذه الرغبة في كل الظروف والمناسبات. وعلى هذا الأساس كانت العلاقات بين الجزائر التركية وجاراتها مضطربة في معظم الأوقات. فتونس ترفض باصرار التبعية للجزائر. وقام ديوان الأوجاق فيها منذ عام 1590 بتمرد على الجزائر وأصبحت البلاد تتبع رأسا للقسطنطينية، واغتنم محمد باي التونسي مشاكل الداي شعبان باشا بالجزائر فشن حملة على إقليم قسنطينة ورد عليه شعبان بالزحف على تونس وخلعه ونصب في مكانه أحمد بن شركس باي عليها. ولم ينته الداي شعبان من مشاكل تونس حتى واجه قوات السلطان المغربي الذي زحف على غرب الجزائر بقصد السيطرة على منطقة تلمسان وتبعه إلى واد ملوية ثم إلى أسوار فاس مدلولا. ولما عجزت تونس والمغرب الأقصى على انفراد في تحقيق النصر على الجزائر، حاولتا التعاون والاشتراك في مؤامرة ضدها فتحالفت الجزائر مع باشا طرابلس وذهب الداي شعبان على رأس حملة الى تونس وطرد منها محمد باي ونصب أحمد بن شركس للمرة الثانية عامة 1695 ولم تنته المؤامرة الثانية حتى ظهرت مؤامرة ثلاثية اشتركت فيها تونس والمغرب الأقصى وطرابلس معا فزحف الباي مراد من تونس إلى قسنطينة عام 1702 بينما زحف السلطان اسماعيل من المغرب الى تلمسان وما وراءها فتصدى الداي الحاج مصطفى لباي تونس وهزمه في قلعة سنان وطارد قواته إلى حدود تونس ثم اتجه الى سلطان المغرب وواجهه في جديوية قرب الأصنام وهزمه. وبذلك

تحت الجزائر من هذه المؤامرة. أما طرابلس فرغم انها لم تشترك في هذه الحرب بقواتها الا أن الداي فكر في شن حملة عليها وحقق صلحا مع تونس لاستمالتها وخرجت حملة من الجزائر إلى طرابلس وفي الطريق حولت اتجاهها إلى تونس في الوقت الذي كان الباشا التونسي ابراهيم الشريف يحاصر طرابلس تنفيذا للاتفاق وتواجهت القوات التونسية والجزائرية في الكاف عام 1705 وتبادلت النصر والهزيمة معا مما أدى إلى عزل الداي مصطفى وتعيين حسين خوجة ثم محمد بقطاش في منصب الداي.

وسرعان ما عادت الحوادث بين البلدين عندما قام باي تونس حسين بن علي بقطع الأتوات التي كانت تؤديها تونس إلى الداي وقامت الجزائر باطلاق سراح علي باي المعارض للباي حسين بن علي وهو من أسرته ولم تفلح وساطة الباب العالي في حسم الخلاف واستطاع علي باي المتمرد أن يزحف بقوات جزائرية على تونس ويستولي على السلطة ويعترف بتبعيته للجزائر ودفع ضريبة سنوية لها. وعندما حصلت حوادث بين باي قسنطينة وباي تونس زحفت قوات الداي من الجزائر وسيطرت على الكاف وباجة، وحاصرت تونس العاصمة طوال شهرين وقام الرايس حميدو بمطاردة السفن التونسية إلى ميناء سوسة واعتقال قائد بحرية تونس محمد البخاري. وأرغمت تونس على دفع مقادير من الزيت سنويا لانارة المساجد والزوايا بالجزائر. ولم تنته الحوادث بين البلدين الا في عهد علي خوجة عام 1817.

مواجهة الوجود الاسباني في وهران والمرسى الكبير:

منذ أن احتل الاسبان وهران والمرسى الكبير، والجزائر تحاول طردهم منها ولكن ظروف السلطة التركية بالجزائر العاصمة لم تسمح، ولم تكن امكانيات الأهالي وحدها كافية لطردهم وغسل عار الاحتلال، وعندما حقق الداي الحاج مصطفى انتصاره على سلطان المغرب الأقصى مولاي اسماعيل في جديوية، وطارده إلى فاس، اهتم بأمر بايليك الغرب وعين عليه الرجل

الشجاع مصطفى بوشلاغم فنقل مركز البايليك من مازونة إلى معسكر ليكون قريبا من المركز الاسباني بوهران، وأخذ يستعد لتصفية وجودهم به وبالمرسى الكبير، وعندما أصبح محمد بقطاش دايا بالعاصمة أمده بقوات كبيرة بقيادة صهره أوزون حسن وشدد الحصار على وهران حتى أجلى الأسبان منها ومن المرسى الكبير عام 1708 وأسر ما يقرب من الفين من الأسبان سفرهم الى عاصمة الجزائر، وعمت الفرحة كامل البلد. ولكن الاسبان رأوا في فقدان المدينتين خسارة كبيرة لهم فأعدوا حملة استغرقوا في تجهيزها قرابة الثلاث سنوات وزحفوا عليها واستردوها في نوفمبر عام 1732 وتأثر الداي من جراء هذه الهزيمة ولازم بيته حتى توفي بعد قليل في العام الموالي ولم يستطع بوشلاغم ان يرد الاسبان لعدم وجود قوات كافية واضطر أن ينسحب إلى مستغانم ليواصل المقاومة. وبعد أن عاد الاسبان إلى وهران والمرسى الكبير تأكد لهم أن وجود الاتراك في عاصمة الجزائر خطر دائم يهدد وجودهم هناك فأخذوا يسعون لاحتلال الجزائر نفسها ليضعوا حدا لهذه الأخطار. فقام كارلوس الثالث الاسباني بشن ثلاث حملات على عاصمة الجزائر في أعوام 1775 و 1783 و 1784م فشلت كلها واضطرت اسبانيا في الحملة الأخيرة أن ترضخ لشروط الجزائر القاضية بانسحابها من وهران والمرسى الكبير دون قيد أو شرط ولكنها ظلت تراوغ عساها تحصل على بعض الامتيازات دون جدوى وزاد من متاعبها حدوث زلزال مخرب في وهران عام 1790 أصاب كثيرا من عمرانها فاتخذت ذلك فرصة للجلاء وشرعت منذ 1791 في اجلاء قواتها وخرجت منها ومن المرسى الكبير نهائيا في فيفري 1792 وأكره الاسبان على حمل قلتين من مالهما ومفتاحين رمزيين إلى السلطان العثماني في القسطنطينية ودفع مبلغ 120 دينار للجزائر واعادة المدافع التي أخذت من وهران خلال الاحتلال الثاني لها عام 1732م.

مكانة الجزائر الدولية:

ولما كانت نيابة الجزائر أقوى دول المغرب الاسلامي بسبب كبر مساحتها وطول سواحلها ووفرة تجارتها وامتداد دواخلها الى قلب افريقيا فيما وراء الصحراء الكبرى حيث قامت تجارة ناجحة بينها وبين تلك الأقطار في العصور الوسطى فان علاقاتها الخارجية كانت أوسع مدى وكلمتها أكثر تأثيرا في الحرب والسلم، وأكسبها هذا الوضع صفة الزعامة على سائر نيابات المغرب الأخرى. واعترفت أوروبا لها بذلك وأصبحت تدفع لها الضرائب وتقدم الهدايا أكثر مما تدفعه وتقدمه لتونس وطرابلس وكثيرا ما تعلن الجزائر الحرب عليها أو على بعضها عندما تتأخر في دفع تلك الضرائب والهدايا. وأكثر الدول التي كانت تتعرض لنقمتها هي اسبانيا والبرتغال والمدن الايطالية والدول الاسكندنافية ولهذا كانت تضطر الى دفع مزيد من الضرائب كل سنة وتعقد معها علاقات الصداقة باستمرار حتى تتقي غضبها وأخطار أساطيلها. وهكذا فان كل دولة تبعث قنصلا يمثلها بالجزائر لابد أن تبعث معه أموالا وهدايا تختلف قيمتها باختلاف مركز تلك الدول والأخطار التي تهدد أساطيلها ومصالحها التجارية.

فأمريكا كانت تدفع عشرة آلاف دولار نقدا وهدايا قنصلية تقدر قيمتها بحوالي أربعة آلاف دولار. وبريطانيا تدفع هدايا قنصلية تقدر بحوالي ستمائة جنيه. وفرنسا تدفع حوالي عشرة آلاف جنيه في شكل بضائع وحبوب وفواكه. وتدفع هولندا حوالي ستمائة ليرة بعضها آلات وبضائع وأسلحة. وتدفع مملكة صقلية حوالي ستة آلاف ريال. وتدفع سردينيا حوالي ستة آلاف ليرة. وتدفع حكومة الدانمارك آلات حربية كهدايا وعملة نقدية يقدر مجموعها بحوالي ستة آلاف ريال، وتدفع نفس هذا المقدار أو ما يقاربه كل من السويد والنرويج. وتدفع مملكتا هانوفر وبريم الألمانيتان حوالي ستمائة ليرة. وتدفع إمارة هامبورغ الألمانية أسلحة وعتادا حربيا وهدايا أخرى. وتدفع جمهورية البندقية حوالي ثلاثين ألف ونصف دورو جزائري.

وتدفع نيابة تونس حوالي خمسين ألف دورو جزائري في شكل زيوت وحبوب وبضائع أخرى وتحف. وتدفع النمسا حوالي مائتي ألف فرنك. وحتى اسبانيا التي كانت شديدة العداء لنيابة الجزائر وتعتبر في حالة حرب معها باستمرار تقريبا، فإنها كثيرا ما تضطر إلى دفع مثل هذه الهدايا القنصلية التقليدية وضرائب أخرى وغرامات حربية تختلف قيمتها باختلاف الظروف والحوادث. وتدفع مملكة نابولي أربعة وعشرين ألف لوة وكا تدفع البرتغال نفس هذا المقدار تقريبا.

وكانت هذه الدول الأوروبية عندما تضيق ذرعا بكثرة الأتوات والضرائب والهدايا المفروضة تعمد إلى تنظيم الحملات والغارات الحربية ضد الجزائر منفردة ومشتركة. وتاريخ الحملات الأوروبية ضد الجزائر طويل يعود إلى أواخر عهد حروب الصليب في المشرق تقريبا. وهي وإن اختلفت أسبابها وبواعثها إلا أن هدفها واحد هو محاولة كسر شوكة القوات البحرية الجزائرية ووضع حد لنفوذها في حوض البحر الأبيض المتوسط، هذا إلى جانب الحقد الصليبي الذي تكنه أوروبا المسيحية في المشرق والمغرب خاصة بعد أن طرد المسلمون بقايا الصليبيين من الشرق الاسلامي في القرن الثالث عشر.

ففي عام 1200م. هاجمت سفينتان إيطاليتان تابعتان لمدينة بيزا مراكب جزائرية واعتقلت ركابها وباعتهم في أسواق الرقيق الأوروبية.

وفي عام 1287م. توجهت حملة أوروبية بقيادة روجي دي لوريا إلى مدينة عنابة وألحقت بعض أحيائها أضرارا مادية كبيرة، وبعد ثلاث سنوات أعاد هذا القائد الكرة ولكنه مني بهزيمة فادحة في الأرواح والعتاد.

أما إسبانيا فقد كانت حالة الحرب هي الطابع السائد بينها وبين الجزائر طوال عهد الأتراك ولهذا كثرت حملاتها ضد شواطئه وثغور الجزائر، ففي عام 1505م. احتل قراصنتها المرسى الكبير وتكبدوا خسائر فادحة

في معركة مسرغين. وتمكن الكاردينال كسيمينس وبيدرو نافارو من احتلال شاطيء مدينة وهران عام 1509م. وزحف بيدرو في العام الموالي على مدينة بجاية واستولى عليها لمدة عام كامل وأحدث فيها تخريبا وتهديما. وتمكن بعض قرصانهم من احتلال الصخرة الكبيرة المواجهة لمدينة الجزائر وأنشأوا عليها ذلك الحصن الذي أصبح شوكة في حلق هذه المدينة حتى اقتحمه خير الدين عام 1529م. وأزاله من الوجود. وقد سبق الحديث عن حملة دييغو فيرا على مدينة الجزائر عام 1516م. على أثر دخول عروج إليها، وحملة شارل الخامس عام 1519م. بقيادة نائب حاكم صقلية عندما علم بموت عروج، وحملة أندري دوريا التي اشتركت فيها فرنسا وجنوة إلى جانب الاسبان عام 1531م، بعد أن فقدوا حصنهم الشهير تجاه مدينة الجزائر. ولما لم يفلحوا شنوا حملة أخرى في العام الموالي على مدينة شرشال وأحدثوا بها تخريبا ولكنهم تكبدوا خسائر جسيمة عندما انقلب عليهم الأهالي بمساعدة السلطات المحلية. وهكذا كانت نتائج حملاتهم الأخرى على مدينة تلمسان عام 1535م. وعام 1543م، وعلى مدينة الجزائر عام 1541م. وعام 1567م. بقيادة دون جوان.

وقد تمكن الجزائريون من أسر الشاعر الاسباني سيرفانتيس مؤلف قصة دون كيشوط أو الطواحين الهوائية في عهد ولاية قائد رمضان (1574 — 1577م) وبقي أسيرا في الجزائر الى عام 1580م. وفشلت الحملات الهولندية كذلك في تحقيق النزول إلى شواطيء الجزائر فانهزمت أمام صمود الأهالي والقوات البحرية في عهد الوالي الخضر باشا (1620 — 1623م).

وكان ذلك حظ فرنسا أيضا في هذه الفترة فانهزمت حملتها على مدينة جيجل عام 1664م، وحملتها عليها وعلى ثغر مدينة الجزائر معا عام 1665م. في عهد ولاية شعبان آغا (1661 — 1665م). وهكذا كان مصير حملات لويس الرابع عشر في عهد ولاية بابا حسن باشا (1682 — 1683م). ورد الأهالي على تخريب دوكين لمدينة شرشال والجزائر

باعتقال الجالية الفرنسية والقنصل الفرنسي لوفاشي وقذفهم جميعا. ولم تستطع حملة دوستري عام 1688م. أن تحقق شيئا رغم أنها قذفت مدينة الجزائر بحوالي عشر آلاف قنبلة فاضطرت أن تنسحب.

وفي بداية القرن الثامن عشر اشتدت حالة الحرب بين الجزائر واسبانيا وصممت الجزائر على افتكاك مدينة وهران من الاسبان بأي ثمن وأرسل الوالي محمد بقطاش (1707 – 1710م). نجدات هائلة الى مصطفى بوشلاغم حاكم المقاطعة الغربية بمعسكر فزحف بها عام 1707م. على مدينة وهران وأحكم عليها الحصار حتى أرغمهم على الجلاء عنها وعلى المرسى الكبير فتأثروا كثيرا وأخذوا يترقبون الفرص حتى عام 1732م. ثم جددوا الكرة عليها واحتلوها من جديد وجعلوا يشنون الغارات على ثغور الجزائر خاصة بعد أن نشبت الحرب بين محمد عثمان باشا (1766 – 1791م) وحكومة الدانمارك، فصحب عثمان باشا الاصطدام معهم حتى انتصر على الدانماركيين وأرغمهم على عقد صلح ودفع غرامة حربية بمقدار حوالي مليونين ونصف مليون دولار، وأتاوة مالية بعد كل سنتين مع هدايا أخرى لرجال الدولة وقاطنة البحر. ثم أعلن الحرب عليهم وأخذ يتبع سفنهم وأساطيلهم في البحر المتوسط ويقتحم موانيهم في اسبانيا نفسها منذ عام 1773م. ففكروا بالرد عليه بمثله وأعدوا حملة كبيرة من أربعمائة سفينة وحوالي خمسة وعشرين ألف جندي وأسندوا قيادتها إلى الضابط الأرلندي أوريلي (Oreilly) فنزلت إلى البر عند مصب وادي الحراش عام 1775م وواجهها الأهالي والسلطات المحلية بعنف شديد، وتكبد الاسبان في هذه المعركة ما يقرب من ثلاثة آلاف قتيل ثم رحلوا في اليوم الموالي لنزولهم وبقيت آثار هذه الهزيمة ماثلة في أذهانهم لمدة طويلة وزادت للجزائريين ثقة بأنفسهم وقوتهم ومناعة حصونهم.

ولم ترتح فرنسا لهذه الحملة كما سيأتي لأنها أصبحت ترى في قيام دولة الجزائر وبقائها ضرورة أساسية بالنسبة لسياستها الافريقية الجديدة. وعندما حاول الاسبان إعادة الكرة على الجزائر سعوا إلى تكوين حلف من

البرتغال والامارات الايطالية تحت رعاية البابابيوس السادس ولكنهم فش
فأرسل شارل الثالث حملة عام 1783م، وأخرى عام 1784م، كل
تصيبهما الفشل معا واضطر أن يعلن عام 1785م، عن استعداده للتخ
عن مدينة وهران. واضطرت إسبانيا أن تحقق السلم مع الجزائر بثمن باهظ
ودفعت لها ما يقرب من أربعة ملايين ونصف مليون دولار في الفترة م
عام 1785م، إلى عام 1790م، ثم اغتنمت حدوث زلزال عنيف في وهرا
1790م، وأعلنت استعدادها للجلاء عنها وتم اخلاؤها عام 1792م
بداية عهد الداي حسن باشا (1791 — 1797م) بالشروط التالية:

1 — يدمر الأسبان جميع الحصون التي بنوها منذ احتلال مينائه
2 — يسمح لهم بإقامة وكالة تجارية في جامع الغزوات ويكون م
حقها استيراد القمح.
3 — أن يدفعوا كباقي الدول جزية سنوية بمقدار مليوني كرونة

وبالانتهاء من مشكلة وهران توصلت إسبانيا إلى عقد اتفاق صلح
مع الجزائر بالشروط التالية:

1 — أن تدفع لها ستين ألف دولار كل سنة.
2 — أن تزود كل قنصل لها جديد بهدايا لا تقل قيمتها عن 42
ألف دولار.
3 — أن تتخلى عن كل ادعاء لها في ثلاث مراكب كانت تطالب بها.
4 — أن تدفع ثلاثين ألف دولار لوزراء الداي وكبار رجال
الدولة.

وحتى بريطانيا دخلت ميدان هذا الصراع كذلك فحاولت أن تشن
الغارات على موانىء الجزائر، وضرب أسطولها مدينة الجزائر نفسها عدة
مرات في أعوام 1622 — 1655 — 1672م، وسيكون لها دور آخر
في المشكلة الجزائرية خلال القرنين: 18 و 19. على أن علاقات بريطانيا

بالجزائر لم تكن علاقات حرب فقط بل كثيرا ما تجنح إلى السلم والوفاق، وقد بلغ مجموع ما أبرمته وحدها من اتفاقات مع الجزائر سبعا وعشرين معاهدة منها اتفاق عام 1659م، على عهد الوالي حسن فنزيانو (1577 ـ 1580م)، كما وقعت بالاشتراك مع هولندا اتفاقا آخر للصلح عام 1682م، على عهد الداي الحاج محمد باشا (1671ـ1682م).

بين الجزائر والولايات المتحدة الأمريكية:

ولم تكن أوروبا وحدها هي التي كانت تعادي الجزائر بل إن الولايات المتحدة الأمريكية حاولت أن تدخل ميدان هذا الصراع وسعت إلى تكوين حلف أوروبي أمريكي ضد الجزائر خاصة ودول المغرب بصفة عامة ولكنها فشلت في إقناع الدول الأوروبية بسبب انفصال المستعمرات الأنجليزية بالعالم الجديد وتكوينها جمهوريات مستقلة تحت تأثير أمريكا. وكان القباطنة الجزائريون بعد أن عقدت إسبانيا مع نيابة الجزائر صلحا عام 1785م، ينفذون إلى مياه المحيط الأطلسي ويتعرضون للسفن الأمريكية ويرفضون إطلاق سراحها إلا بعد دفع أموال طائلة. وفي أثناء رئاسة جورج واشنطون (30 أفريل 1789 ـ 1797م)، وبعد أن فشلت أمريكا في تكوين ذلك الحلف الأمريكي الأوروبي ضد دول المغرب أعلنت عن رغبتها في إقامة علاقات صداقة مع الجزائر بتاريخ فبراير عام 1792م. وأبلغت ذلك إلى الداي حسن باشا أسوة بإنجلترا التي كانت تشتري السلام والأمن لسفنها بالمال. وبلغ ما دفعته أمريكا إلى الجزائر في عهد رئاسة جورج واشنطون وخلفه جون آدامز (1797 ـ 1801م). مليون دولار.

وكان توماس جيفرسون الذي تولى الرئاسة مرتين يميل إلى فكرة مواجهة الجزائر بمنطق القوة فطلب من فرنسا حليفة أمريكا في حرب الاستقلال أن تتحالف معه هذه المرة فعرفت عن الفكرة، ورأى جيفرسون أن يسعى لإنشاء حلف مشترك مع الدول الراغبة لإقامة دوريات بحرية

مسلحة أمام السواحل المغربية لتدافع عن سفنها في البحر المتوسط على أن توجه العمليات الحربية ضد السفن الجزائرية بالذات باعتبارها أقوى البحريات الاسلامية في ذلك البحر، ثم توجه بعد ذلك العمليات ضد باقي النيابات الأخرى لتحطيم قواها. ولما عرضت هذه الفكرة على الدول المعنية اعتذرت إسبانيا عن قبولها لأن جروح حملة عام 1775م. ما تزال عالقة بأذهان ساستها، وحبذتها كل من البرتغال ومالطة ونابولي والبندقية والدانمارك والسويد. ولكن المشروع فشل عندما اعترضه الكونجرس الأمريكي خوفا من باهظة تكاليفه المالية، وأكثر الجزائريون من التعرض لسفن أمريكا بسبب عدم ارتباطها مع الجزائر بأية معاهدة في هذه الفترة فساءت الأحوال كثيرا واضطر الكونجرس الأمريكي أن يصدر عام 1794م. قرارا يقضي بضرورة إنشاء أسطول بحري دفاعي ولكنه نص في إحدى مواده على توقيف المشروع إذا ما حصل اتفاق مع الجزائر. وعندما شرعت الحكومة الأمريكية في التفاوض مع الجزائر طلب الداي مقدار (2435000) دولار ثمنا لعقد الصلح وافتداء الأسرى، ثم خفض المقدار إلى (642500) عدا 21 ألف دولار ثمنا لعتاد حربي يقدم إلى الجزائر كل سنة. وتم الصلح بين الطرفين وتعهد الداي أن يتوسط لدى تونس وطرابلس حتى تمضيا أيضا على هذه المعاهدة ويتحقق السلام لأمريكا في حوض البحر الأبيض المتوسط كله. وأمضي هذا الاتفاق يوم 5 سبتمبر 1795 ويشتمل على 22 مادة أغلبها في صالح أمريكا ولهذا لم يدم هذا الصلح طويلا وأغار القاطنة الجزائريون على مركب أمريكي وأسروه عام 1800م. فرد توماس جيفرسون (1801 — 1809م) على ذلك بأن أرسل أربعة مراكب أمريكية للاقتصاص من الداي عام 1801 ثم أرسل وراءها حملة أخرى عام 1802م لحصار طرابلس بعد أن أعلن أميرها يوسف باشا القرمانلي (1795 — 1832م). الحرب على أمريكا مدعيا أن الجزية التي تدفعها له قليلة، ولم تنجح هذه الحملة في مهمتها في حين حفزت نيابات المغرب على مزيد من التضامن والترابط فيما بينها. وبمقتضى المعاهدة التي أبرمت

بينما في 30 يونيو 1805 دفعت أمريكا للجزائر 60 ألف دولار فدية للأسرى ووافقت على مواصلة إرسال الهدايا للداي وإبدال قنصلها بغيره ثم سحبت أسطولها من البحر المتوسط عام 1807م.

ولما قامت الحرب بين أمريكا وانجلترا عام 1812م أرسل الوصي على العرش الانجليزي رسالة إلى الداي الحاج علي باشا (1809 – 1815م) يؤكد له فيها روابط الصداقة التي تجمع بين البلدين ويعلن استعداد بلاده للدفاع عن الجزائر ضد كل معتد طالما بقيت هذه الروابط، وهو يقصد بذلك استمالة الجزائر إلى انجلترا ضد أمريكا أو على الأقل اتخاذها موقف الحياد. وفي عهد الداي عمر باشا (1815 – 1817م) ازدادت العلاقات الأمريكية الجزائرية سوءا عندما أخذ الداي يطالب بزيادة الجزية السنوية ولم يكتف بهذا فأعلن الحرب عليها في نفس السنة التي تولى الحكم فيها، ورد عليه جيمس ماديسون (1809 – 1817م) بإرسال بعض قطع الأسطول الأمريكي إلى مياه الجزائر للقتال وأتبعها برسالة إلى الداي بتاريخ 12 أفريل 1815 يخطره فيها بقرار أمريكا الدخول في حرب ضده ويخيره بين السلم والحرب بعد أن ذكره بأهوال الحرب ومزايا السلم والتفاهم. وفي عام 1816م أجاب الداي عمر على هذه الرسالة وعرض على أمريكا تجديد المعاهدة السابقة التي أبرمت في عهد حسن باشا (1791 – 1798م) فأجابه في الحال الرئيس الأمريكي ماديسون في 21 أغسطس من نفس العام وطلب إليه استئناف المفاوضات فتجددت وانتهت بإبرام صلح في صالح أمريكا، واضطر الداي أن يدفع بمقتضاه عشرة آلاف دولار كتعويض وتنازل عن كل ما كانت تدفعه له أمريكا. وهكذا أخفقت دول أوروبا والولايات المتحدة الأمريكية في إيجاد تحالف أو تضامن مشترك ضد دول المغرب الاسلامي والجزائر على الأخص، وبقي الأمر هكذا حتى انتهت الحروب النابليونية عام 1814م ثم حدثت تطورات أخرى سنتحدث عنها فيما بعد.

أطوار الحكم التركي ونظامه بالجزائر:

استكملت الجزائر في عهد الأتراك أنظمتها وإطاراتها الداخ[illegible] وتحققت لها بصفة عامة وحدتها القومية والإقليمية والسياسية، وظهر اندماج مختلف عناصر السكان وتآلفهم في كتلة واحدة وتحت نظام واحد. وظهرت الجزائر كشعب ودولة ذات مقومات واضحة ومتينة لتلعب دورها المت[illegible] والفريد في الميدان الدولي، وهو ما يتميز به عهد الأتراك بالجزائر الذي م[illegible] بالمراحل التالية:

1 — مرحلة التدخل: 918 — 924 هـ (1512 — 1518م)
2 — عهد ولاة البايلرباي: 924 — 995هـ (1518 — 1587م)
3 — عهد الباشوات: 995 — 1068هـ (1587 — 1659م)
4 — عهد الأغاوات: 1069 — 1081هـ (1659 — 1671م)
5 — عهد الدايات: 1081 — 1246هـ (1671 — 1830م)

ويمتاز عهد البايلرباي (باي البايات) والباشوات بإخلاص الولاة للخليفة العثماني وإطاعتهم لأوامره وسيطرتهم على الفرق الانكشارية وقوات الجيش والبحرية. ولما استحدث نظام الباشوات حددت مدة حكم الوالي بثلاث سنوات فقط حتى لا يجد فرصة للانفصال إذا ما [illegible] تلك الفكرة. وعندما ضعف شأن الباشوات انتقلت السلطة الفعلية إلى مجلس الأوجاق الذي يتكون من حوالي أربعة وعشرين ضابطا بدرجة صاغ وأصبح من اختصاصه انتخاب الأغا رئيس الجند والكيخيا (وكيل الوالي)، ثم في عام 1569م. أعلن الغاء نظام الباشوات وصار ينتخب من بين أعضائه حاكما للبلاد يحمل لقب الأغا، وفقد السلطان العثماني سلطته وسيطرته على هؤلاء الأغاوات ولم يبق له إلا الموافقة على توليتهم بعد أن يتم تعيينهم من طرف الأوجاق. ولم يدم هذا النظام طويلا لأن أعضاء مجلس الأوجاق كثيرا ما

تسيطر عليهم الأهواء والنزعات الشخصية ويدبرون المؤامرات والاغتيالات ضد بعضهم البعض للعزل والاغتيال حتى أن كثيرا من ولاة هذا العهد عزلوا أو قتلوا أو أبعدوا بعد شهرين أو أقل من تعيينهم في مناصبهم، وأدت هذه الحالة إلى ظهور طبقة الرياس واختفاء نظام الأغاوات وظهور عهد الدايات الذي دام طويلا واندمج فيه الجنود الانكشاريون بطائفة الرياس واختفى الصراع بينهما تدريجيا وتمكن بعض الدايات من الاستقرار في الحكم مدة طويلة خاصة في القرن الثامن عشر، وبرزت الطبقة العسكرية تلعب دورها على مسرح الأحداث الداخلية والخارجية وأصبح الوالي مطلق الحرية في الحكم والادارة يفاوض الدول الأجنبية ويعقد الاتفاقات السلمية والتجارية ويعلن الحرب والسلم ويستقبل الممثلين الدبلوماسيين الأجانب. ومن هنا يعتبر عهد الأغاوات ومن بعدهم الدايات بداية لعهد الاستقلال الكامل للدولة الجزائرية الذي برز فيه كيانها كشعب وكدولة، وتحدد دورها الذي ستلعبه في المعترك الدولي.

وإذا كانت العهود السابقة لهذا العصر غير مساعدة لقيام دولة قوية مستقرة لأجل طويل بسبب فشو القلاقل والاضطرابات الدولية وطغيان الحكم الفردي والقبلي، وتحكم الأهواء والعصبيات تمشيا مع روح العصر وطابعه، باستثناء عهد المرابطين والموحدين، فإن عهد الأتراك توفرت فيه كل الشروط والمزايا لاقامة مثل تلك الدولة خاصة مشكلة انقياد الناس كلهم واعتيادهم على اطاعة نظام الدولة الواحدة، وهو ما نجح فيه الولاة الأتراك حتى خلقوه في النفوس وطبعوه في عقول الأهالي وأصبح غريزة فطرية، وهي مزية تعطي للعهد التركي بعض مساوئه.

ولقد اتخذ الولاة الأتراك مركزهم الاداري في باب الجبة حيث قصر الشتاء الحالي الذي حوله الاستعمار الفرنسي مركزا للأسقفية، واتخذته الحكومة الوطنية في عهد الاستقلال مقرا لوزارة الأوقاف بعض الوقت. وفي أوائل القرن التاسع عشر نقل علي خوجة (1817 — 1818م) مقر

الحكم إلى حي باب الجديد في أعلى المدينة حيث مركز القصبة ال...
وكانت البلاد تحكم وتسير بواسطة الأجهزة التالية:

1 ــ الوالي أو الحاكم العام الذي اختلف لقبه باختلاف فتر... الحكم.

2 ــ المجلس الخاص أو الشوري، ومن أهم أعضائه.

أ ــ وكيل الخرج، ويختص بالشؤون البحرية ورياس البحر ويشر... على الترسانات البحرية.

ب ــ خوجة الخيل، ويتصرف في أملاك الدولة التي ترد إليها من مختلف الوجوه ويتوسط بين القبائل والحكومة.

ج ــ خزنة دار أو الخزناجي، ويتكلف بأموال الخزينة العا... للحكومة.

د ــ الآغا، ويتحكم في قوات الحكومة البرية، ويقوم بمهام با... المدينة.

هـ ــ بيت المالجي الذي يسهر على تسجيل العقود والمواريث.

3 ــ مجلس الديوان العمومي، ومن أهم أعضائه.

أ ــ الخليفة أو القائم مقام، وهو نائب الوالي.

ب ــ الدفتر دار، ويتولى رئاسة ديوان الانشاء وكتابة الدولة بالعربية والتركية معا.

ج ــ الباش سيار، ويتولى شؤون البريد.

د ــ قبودان رايس (القبطان رايس) ويتولى إمارة البحر.

هـ ــ الترجمان.

و ــ بيت المالجي، ويتصرف في أموال بيت المال.

ز ــ شاوش الكرسي.

ح ــ الكاهية، ويتكلف بحفظ أمن مدينة الجزائر.

ومن أعضاء هذا الديوان ينتخب أغلب الضباط والولاة والخلفاء ورؤساء المقاطعات، ولا ينفذ الوالي شيئا إلا بعد الرجوع إلى هذين المجلسين السابقين وأخذ الموافقة منهما. وإلى جانب الوالي وأعضاء المجلسين السابقين هناك أيضا عدد آخر من الموظفين مثل الباش كاتب (كاتب الوالي) وشيخ الاسلام والباش دفتر جاجي وخوجة العشر وكتاب السر والقاضيان المالكي والحنفي وغيرهم.

وحتى تسهل إدارة البلاد ويتسنى ضبط أمورها على الوجه الأكمل قسمت إلى أربع بايليكات (ولايات) هي:

1 — بايليك مدينة الجزائر أو دار السلطان، ويخضع لنفوذ الوالي مباشرة ويمتد شرقا إلى وادي سباو وغربا إلى تيطري وتنس.

2 — بايليك تيطري، ويحكمه نائب عن الوالي بلقب باي ويساعده عدد آخر من الموظفين ومركزه مدينة المدية.

3 — بايليك الغرب يمتد من وراء إقليم تيطري إلى حدود مراكش يحكمه نائب عن الباشا يحمل لقب باي الغرب ومركزه مدينة مازونة ثم معسكر وأخيرا وهران بعد افتكاكها من الاسبان نهائيا عام 1792م، ويساعده كذلك عدد آخر من الموظفين.

4 — بايليك الشرق، ومركزه مدينة قسنطينة، ويمتد إلى حدود تونس وعليه نائب يحمل لقب باي الشرق.

وقد حكم هؤلاء البايات بايليكاتهم على النظام العشائري الذي كان سائدا آنذاك بحيث يكون رئيس القبيلة أو العشيرة واسطة بين قومه والباي كما يكون الباي نفسه واسطة بين الباشا بالجزائر وبين هؤلاء الرؤساء في بايليكه.

وتمتعت الجزائر بغنى وثراء كبيرين فكانت خزائنها المالية عامرة باستمرار بما يرد عليها من أموال الضرائب والغنائم والزكاة والاعشار والخراج وعوائد اللزمة والدنوش والحكر (كراء أموال الدولة)، زيادة على ما كانت تتقاضاه من الهدايا والضرائب من طرف الدول الأجنبية كما سبق. وكان لاستقرار الحكم في دواخل البلاد الأثر الحسن في ازدهار حركة الفلاحة وزراعة الخضر والحياة الشجرية وتربية الحيوانات واستغلال بعض الصناعات مثل النسيج والأقمشة الحريرية والصوفية وفن التطريز وصناعة الشواشي والأحزمة الحريرية ودباغة الجلود والأحذية والمحافظ والزرابي والنجارة والحدادة والسيوف وبعض المدافع الخفيفة، كما تصنع السفن في الموانئ، كما تنسج لها الحبال وتصك النقود من الذهب والفضة والنحاس.

فمن العملات الذهبية: السلطاني، ونصفه، وربعه، والمحبوب ونصفه، وربعه.

ومن العملات الفضية: الدورو الجزائري، وريال بوجو، وريال درهم، ونصف ريال درهم، وثمن بوجو، والموزونة.

ومن العملات النحاسية: الصائمة وريال بسيطة وبعض قطع أخرى أقل منها أهمية.

وكانت الجزائر تصدر إلى الخارج الأصواف والجلود والقمح والشعير والدخان وبعض الخضر.

ومن مآثر الأتراك بالجزائر عدد كبير من المساجد والقصور ودور التعليم والقلاع العسكرية وأسوار المدن والسدود في مختلف أنحاء القطر شرقا وغربا وشمالا وجنوبا. وكان لرجال الدين والعلم حظوة ومنزلة كبيرة لدى الولاة الأتراك الذين كانت روح الجهاد ضد القراصنة الأوروبيين المسيحيين أهم ما جبلوا عليه وخلق في نفوسهم ردّ فعل عنيف كان من بين مظاهره

احتضان رجال الدين الاسلامي واجلالهم وتقديرهم سواء كانوا معلمين أو قضاة أو أئمة مساجد أو علماء تدريس وفقهاء تشريع. وكان من نتيجة هذا وقوف رجال الدين دوما إلى جانبهم إلا في بعض الأحوال والظروف الطارئة.

أما حركة التعليم فقد سارت سيرها العادية ولم يحصل فيها تطور هام لأن الولاة الأتراك كانت جهودهم كلها متجهة إلى حركة الجهاد والصراع ضد القراصنة في العهود الأولى، ثم إلى حركة التجارة والكسب البحري بعد أن ضعف شأن الحركة التجارية النظامية في البحر الأبيض المتوسط بسبب تحول التجارة العالمية بين الشرق والغرب إلى طريق رأس الرجاء الصالح، وبسبب ضعف حركة تجارة غرب افريقيا عبر الصحراء إلى ساحل المتوسط نتيجة لتحول هذه التجارة إلى موانيء المحيط الأطلسي حيث أخذت شركات أوروبية تسعى لاحتكارها. هذا إلى أن الولاة الأتراك وأجهزتهم الادارية التركية لم يكن لهم تكوين ثقافي سابق باستثناء العاطفة الدينية التي تتأجج في نفوسهم. ولهذا يلاحظ على هذا العهد طابع الجفاف الفكري وعقم الانتاج، وهو ما نلاحظه في كل الأقطار التي سيطر عليها الأتراك بصفة عامة في الشرق وفي الغرب. ومع كل هذا فلا ننكر بأن مدنا مثل بجاية وتلمسان ومازونة وقسنطينة قد حافظت على التراث الفكري والثقافي الذي ورثته، وواصلت سيرها في هذا الطريق ونبغ فيها علماء وشعراء ومثقفون، كما أن مدينة الجزائر التي انتقل إليها المركز السياسي في هذا العهد نمت فيها الحركة الفكرية وتطورت واتسع أفق الكثير من أبنائها حتى أصبحوا حجة في كثير من الفنون الأدبية والعقلية واللغوية.

على أن الذي لا نزاع فيه هو أن عهد الأتراك يمثل عهد الأمجاد والبطولات العسكرية والانتصارات السياسية المرتبطة بها، لأن النبوغ كان واضحا في العقلية العسكرية أكثر من أي جانب آخر. والسبب

من تعرض هذه البلاد لمحاولات الصليبيين الفلسطين الذين انهزموا وطردوا من الشرق فحاولوا أن يحققوا حلمهم بالمغرب الإسلامي، وكان الخطـ الإسبان على مسلمي الأندلس من العوامل التي أغرتهم وشجعتهم على تلـ المحاولات ولكن أبطال شمالي إفريقيا لقنوهم دروسا قاسية وأشبعوهم هزائم ما لم يستطيعوا نسيانه عدة قرون.

مفاوضات الصلح بين الجزائر واسبانيا من خلال مراسلات الداي محمد عثمان باشا 1780 — 1787 (1)

تولى محمد عثمان باشا منصب الداي عام 1766 بوصية من سلفه الداي علي بوصبع — وبقي يشغله ربع قرن كامل إلى أن توفي عام 1791. وكان يتولى منصب الخزناجي في عهد بوصبع. ولم تتحدث المصادر التي اطلعنا عليها على تاريخ ميلاده، ونشأته الأولى، وبلاده الأصلية تركيا وتاريخ قدومه إلى الجزائر. ويبدو أنه ولد في مطلع القرن الثامن عشر، لأنه لما توفي كان عمره يتجاوز التسعين عاما.

وقد اجمعت المصادر كلها على أنه كان رجلا عاقلا شجاعا، حازما متمسكا بالعمل بالشريعة الاسلامية محبا للجهاد، متقشفا حتى على نفسه فيما يخص أموال الخزينة العامة. ولم يتزوج الا ليلة واحدة ثم طلقها مؤثرا الاشتغال بالجهاد حسب رواية الزهار.

وكان معاصرا للسلطان محمد بن عبدالله بالمغرب الأقصى، وللباي حمودة باشا بتونس، وكلاهما له مكانته في الأحداث الداخلية والخارجية.

---

(1) نشر بمجلة تاريخ عدد 18، النصف الأول من عام 1985 ص 125 — 152، وكذلك مجلة الثقافة عدد 89 (الجزائر سبتمبر، أكتوبر 1985) ص 95—118.

تولى الداي محمد عثمان باشا منصبه الجديد في سن الخامسة والستين تقريبا، ولذلك كان يعالج الأمور بحكمة، وروية، وعن تجربة، الشيء الذي مكنه من النجاح في معظم المشاكل والأحداث التي واجهها طيلة حكمه خاصة صراعه مع القراصنة الأوروبيين المغيرين على البلاد وخاصة الاسبان والبرتغاليين، فاهتم بتحصين مدينة الجزائر وبنى بها عددا من الحصون والأبراج والطابات مثل برج السردينة، والبرج الجديد، وبرج رأس عمار، وأصلح مسجد السيدة بجوار قصر الجنينة الذي هدمه القذف الاسباني. وجلب المياه من الحامة إلى المدينة، وزود بها كل القلع والأبراج، والحصون، والمساجد، والباقي بنى له عيونا في وسط المدينة ليسقي منه الناس، وأوقف على هذه المياه حبسا خاصة للعناية بسواقيها، وصيانتها[1].

ولما كانت الجزائر في عهده اشتدت ضدها غارات القراصنة الأوروبيين بصورة مكثفة فقد اهتم بتقوية الأسطول البحري وتدعيمه بالرجال والأسلحة، والمراكب الجديدة، وبرز في عهده عدد من الرياس والقباطنة البحريين، حازوا شهرة عالية أمثال: الرايس حميدو، والرايس الحاج محمد، والرايس الحاج سليمان، والرايس ابن يونس، والرايس بن زرمان. وحسب رواية الزهار فان الرايس الحاج محمد أسر خلال غزواته البحرية المختلفة حوالي 24 ألف رجل[2].

وقد واجه الداي محمد عثمان باشا عدة غارات، وحملات بحرية أوربية استهدفت تحطيم مدينة الجزائر واحتلالها ان أمكن، وتمكن من دحرها والحاق هزائم نكراء بها أبرزها حملة الدانمارك عام 1770، والحملات الاسبانية الثلاثة في أعوام 1775 و 1783 و 1784.

---

(1) مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار. تحقيق ونشر أحمد توفيق المدني (الجزائر — 1974) ص 23 — 24

(2) الزهار نفس المصدر، ص 25

فشل غارة الدانمارك البحرية عام 1770:

لقد عمد الداي محمد عثمان باشا إلى الزيادة في الأتاوات السنوية التي تدفعها كل من هولندا والبندقية والسويد والدنمارك، فقبلت تلك الدول ما عدا الدانمارك التي رفضت ذلك وكلفت الضابط كاعس: CAAS بقيادة حملة بحرية ضد مدينة الجزائر عام 1770. وعندما وصل إلى خليجها رفع علم السلم كمخادعة وسمح لمراكبه بالدخول إلى الميناء، فغدر وشرع في قذف المدينة بالقنابل لمدة 11 يوما ما بين 11 و 21 جوان 1770، ولكنه لم يتمكن من النيل منها، وفقد كثيرا من رجاله ومراكبه، واضطر أن يبتعد عن الميناء وطلب التفاوض لابرام الصلح، فرفض الداي وأمر أسطوله وبحارته بملاحقة المراكب الدانماركية أينما وجدت، وذلك لمدة عام كامل إلى أن رضخت الدانمارك لشروطه وقبلت أن تدفع 2,5 مليون دورو تعويضا عن الأضرار والخسائر التي لحقت المدينة من جراء قذف أسطول كاعس، وتعهدت بتقديم 44 مدفعا، و 500 قنطار بارود، و 50 شراعا، وعدد آخر من الحبال والصوارى، والأخشاب. وافتدت أسراها بالأموال وقبلت بدفع اتاوة كل سنتين، وهدايا مختلفة لرجال الدولة(1) وبذلك أخذت درسا قاسيا ولم تعد لمثل طيشها السابق.

مواجهة الحملات الاسبانية الثلاثة:

بعد تحطيم حملة الدانمارك تفرغ الداي محمد عثمان باشا لمواجهة حملات الاسبان الذين يحتلون وهران والمرسى الكبير، ويكثرون من الغارات على مواني البلاد الساحلية، والمراكب البحرية الجزائرية في البحر، أحيانا وحدهم، وأحيانا بالتحالف مع فرسان مالطة، وقراصنة ايطاليا، والبرتغال، وغيرهم.

---

(1) عبدالرحمن الجيلالي ـ تاريخ الجزائر العام ج3، ط 3 (الجزائر 1982)، ص 239 ـ 240.
يحي بوعزيز علاقات الجزائر الخارجية 1500 ـ 1830 (الجزائر 1985)، ص 100.

وقد عملت البحرية الجزائرية على الرد بالمثل، فأكثرت من التعرض لمراكب القراصنة الاسبان وحلفائهم في البحر المتوسط، والمحيط الأطلسي، وكثفت من غاراتها على الشواطىء الاسبانية نفسها مما اضطر الملك الاسباني أن يرحل سكان السواحل الى المناطق الداخلية ليبعدهم عن الأخطار، وحسب رواية الزهار فان عدد الأسرى الاسبان بالجزائر خلال عهد الداي محمد عثمان باشا وصلوا إلى عشرة آلاف شخص، يضاف إليهم ثمانية آلاف من جنسيات أوروبية أخرى.

وحاولت اسبانيا أن تتفاوض مع الجزائر، لابرام صلح معها ووسطت الدولة العثمانية في الأمر ولكن الداي محمد عثمان رفض ذلك طالما بقيت تحتل وهران والمرسى الكبير. ورفض كل مساومة في الموضوع ولذلك عزمت على استعمال القوة، وكانت تتصور أن ذلك سهلا وميسورا، خاصة بعد أن أكد لها أحد الرهبان الذي يعرف الجزائر، عدم صعوبة تحطيم القوة البحرية للايالة، وتدمير تحصينات الجزائر، واذلال الداي، وفرض الشروط الاسبانية عليه قهرا وغلبة. وعلى هذا الأساس جرت حملاتها ثلاث مرات في ظرف عشر سنوات، فلم تنل إلا الخيبة تلو الخيبة، والهزيمة تلو الأخرى، وتحطم كبرياؤها بدلا من تحطيم كبرياء الداي والايالة ككل، وارغمت على العودة إلى أسلوب الحوار والمفاوضة.

حملة الضابط أوريلي الفاشلة عام 1775:

أعد الملك الاسباني كارلوس الثالث حملة بحرية وأسند قيادتها إلى الضابط الايرلندي الأصل الكونت أوريلي Le Comte d'Oreilly وحشد فيها أكثر من 24 ألف رجل و44 سفينة حربية، و344 مركب شحن من مختلف الأشكال والأنواع و100 مدفعا، وآلاف البنادق، والرشاشات، وما يلزمها من الذخائر وخرجت هذه الحملة من اسبانيا في العشرية الأخيرة من شهر جويلية 1775 ووصلت إلى مياه مدينة الجزائر يوم 31 من الشهر جويلية

1775. ونزلت غرب واد الحراش، وفي صباح يوم أول أوت شرعت في قذف المدينة، واستمرت على ذلك لغاية يوم 11 من الشهر وتعرضت لهزيمة ساحقة لأن الداي حصن المدينة، ودعم الأسطول، واستدعى قوات كبيرة من كل بايليكات البلاد. فقتل للاسبان ما بين 4 و 10 آلاف رجل، وغنم الجزائريون 16 مدفعا، وقطعتين للرمي، و 40 ألف قذيفة، وكميات كبيرة من الذخائر، والبنادق، والملابس، والأخشاب، وبعض المراكب المعطوبة. وانسحب أوريلي ومن بقي معه مذلولين مدحورين(1).

حملة دون انطونيو الأولى 1783:

بعد فشل حملة أوريلي عام 1775، أدرك الاسبان صعوبة النيل من الجزائر وقهرها عسكريا، فوسطوا الدولة العثمانية علها تقنعها بالتفاوض لابرام صلح بين البلدين، وأطلقوا سراح حسن وكيل الخرج، ورشوه بالمال، إذا صحت الرواية، ليؤثر في الداي ويقنعه بذلك، ولكن ذلك لم يأت بأية نتيجة، فاشتد العداء بين الطرفين، وكثرت الغارات البحرية المتبادلة بينهما، ومرت سنوات عديدة على هذه الحال. ورفضت بريطانيا تبادلها بجبل طارق عام 1780 فرأى كارلوس الثالث أن يعود لتجربة القوة مرة أخرى فأعد

(1) كتب عن هذه المعركة كثيرون من المعاصرين والمشاهدين لها أمثال محمد الخدوسي في مخطوطة زهرة النور، وأحمد العنتري في مخطوطة: الأخبار المبينة ومحمد مقديش في مخطوطة: نزهة الأنظار كما كتب عنها أحمد الزهار ومن الكتابات الأجنبية التي نقل عنها توفيق المدني في كتابه: حرب الثلاثمائة سنة:

A. Devoulx: Expédition d'Oreilly d'après un document Turc. R.A.F (1856) pp. 436-441.
Major Dalrymple: Expédition d'Oreilly 1775. R.A.F (1861). pp. 31-40.
A. Berbrugger: Expédition du comte d'Oreilly contre Alger en 1775. R.A.F (1864) pp 172-178, 227-235, 408-420 (1856). pp. 39-43.
J.J. Bresnier: Récit Indigène de l'Expédition. R.A.F (1864). pp. 334-346.
Ch. Feraud: Deuxièm récit Indigène de l'expédition d'Oreilly en 1775. R.A.F (1867) pp. 180-192, 301-306.
Lettre Officielle d'Oreilly du 9 Juillet 1775 à la baie d'Alger. R.A.F. (1867). pp. 436-447.

حملة بحرية كبيرة أسند قيادتها الى الضابط دون أنطونيودوبا رسولو Don Antonio De Barecelo وكلفها بغزو مدينة الجزائر، وتحطيم تحصيناتهاوتخريب قلاعها، واسقاط حكومة الداي إن أمكن. وعندما علم سلطان المغرب الأقصى محمد بن عبدالله بأخبار هذه الحملة كتب إلى الداي في شهر ماي وأخبره بها ليستعد لمواجهتها، فأسرع لتحصين المدينة وتقوية دفاعها، ورحل الأسرى المسيحيين إلى مدينة المدية بالتيطري حتى يبعدهم عن أطماع الاسبان وعددهم 1548، وأبقى معه 304 أسيرا للقيام بالخدمات المطلوبة تحت الحراسة، كالحفر، والشحن وما إلى ذلك.

وقد وصلت حملة انطونيو إلى مياه مدينة الجزائر مساء يوم 31 جويلية، وعدد سفنها الحربية 76 إلى جانب سفن الشحن والحمل. وشرعت في قذف المدينة من يوم 1 إلى 9 أوت، وبلغ عدد القذائف التي تساقطت عليها 7500 قنبلة، ولكن قوات الداي البرية والبحرية، صمدت وواجهت التحدي بمثله وأمطرت القوات الاسبانية بحوالي 15 ألف قذيفة، وأرغمتها على الانسحاب مهزومة ومذلولة، كما جرى لحملة أوريلي قبل ثماني سنوات من هذا التاريخ واستشهد من الجزائريين 300 مدنيا، و100 عسكريا وتأكد الاسبان مرّة أخرى من عدم جدوى مغامراتهم العسكرية، ومع ذلك سوف يلجؤون إليها مرة أخرى[1] بعد عام من هذه المغامرة، وسوف ينهزمون كذلك، ولا يستطيعون النيل من الجزائر وشعبها.

حملة دون انطونيو الثانية عام 1784:

رغم فشل حملة عام 1783، فان الاسبان لم يتعظوا، ولم يرتدعوا بما حصل لهم، وصمموا على تجديد الكرة مرة أخرى في العام الموالي.

---

(1) Ch. Beraud: Les trois attaques de Espagnoles contre Alger au XVIIIème siècle R.A.F. (1870), pp. 300-319

ويتحالفوا مع نابولي، ومالطة، والبرتغال ليكونوا حلف صليبيا ضد الجزائر، وهو ما تم فعلا.

وكان الداي محمد عثمان باشا على علم بذلك فاهتم منذ رحيل الحملة الخائبة في صيف عام 1783 باصلاح ما تخرب وتهدم من حصون المدينة، وأصلح المراكب، وأمر ببناء 500 مركب من نوع اللنجور كما سماها الزهار، وهي مراكب خفيفة سريعة الكر والفر، تحمل بعض المدافع، وتنال من العدو سرعة، وقد عثر القبطان على واحد منها في ساحل عين الربط (ساحة 1 ماي حاليا). فأخبر الرايس الحاج محمد الذي عاينها، وأعلم الداي بها، واتفقا على صنع أسطول منها على غرارها، وتم ذلك في مدة قصيرة، وتطوع الناس للعمل في الورشة البحرية أفواجا وجماعات حتى تم وضع العدد المطلوب، وفوجئ الأسبان بوجودها لدى الجزائر بعد أن كانت احتكارا لهم أضروا بها المدينة في الحملة السابقة.

وقد بارك البابا هذه الحملة الصليبية في منشور أعلنه يوم 14 جوان 1784 وتألفت من 130 سفينة مختلفة الأشكال والأنواع. وعندما علم سلطان المغرب الأقصى محمد بن عبدالله بأخبار هذه الحملة كتب رسالة إلى الملك الاسباني كارلوس الثالث رجاه فيها تأجيلها حتى يتصل بجواب من الجزائر، وأكد له بأنها ستقبل الصلح لا محالة، فأجابه بما لا يقبل مجاملة فقط، لأن الحملة تم اعدادها وأصبح من غير الممكن الغاؤها، وقد اشتركت فيها كل من نابولي، ومالطة، والبرتغال، ووصلت الى الجزائر أوائل شهر جويلية 1784، ودامت المعارك من يوم 11 إلى 21 من الشهر، وتعرضت لهزيمة كسابقاتها رغم أنها أمطرت المدينة بحوالي 15150 قذيفة وانسحبت تجر أذيال الخيبة، وكانت آخر محاولة من هذا النوع[1]، وقررت اسبانيا على

(1) Feraud: Ibid. p. 319.

اثرها الكف عن الأسلوب العسكري والاتجاه إلى أسلوب الـ... والتفاوض، بأي ثمن كان، ولو كان غاليا. وهو ما حصل فعلا ... العلاقات الخاصة التي ربطوها مع حسن وكيل الخرج الرجل الثا... حكومة الايالة، الذي له تأثير على الداي محمد عثمان باشا بحكم منصـ... وقرابته معه، والذي أسروه، وأطلقوا سراحه بعد أن رشوه حسب ر... نقيب الأشراف أحمد الشريف الزهار كما سيأتي.

دور حسن وكيل الخرج في ابرام الصلح مع اسبانيا:

على اثر الانتصار العظيم الذي حققته الجزائر ضد حملة أورلي... الاسبانية عام 1775 استأجر الداي محمد عثمان باشا المركب الفرنسي Le Septimane بمبلغ 6 آلاف ريال للشهر. ووجه عليه هدية معتبرة إلى السلطان العثماني حملها إليه وكيل الخرج حسن. ففرح بها، وشحن المركب خلال عودته بهدية مماثلة تتمثل في 5 آلاف قنطار من القضبان الحديدية، و 28 صاريا، و 500 قنطار من الخيوط لنسج الحبال، و 4200 قطعة من قماش القلوع، وهي كلها تجهيزات للأسطول الجزائري.

وعندما وصل هذا المركب الى تونس اقترح وكيل الخرج اتمام السفر برا إلى الجزائر، ولكن القنصل الفرنسي هناك دوسيزيو: De Saizeu أكد له عدم وجود أي خطر في مواصلة السفر بحرا إلى الجزائر، فامتثل لنصيحته، وعندما وصلوا أمام جزيرة لاغاليت اعترضتهم باخرتان اسبانيتان، واقتادتهم مع مركبهم إلى قرطاجنة باسبانيا وصادرت حمولة مركبهم، واعتبرتهم أسرى عبيدا. وعندما تعرف الاسبان على شخصية حسن الرجل الثاني بعد الداي محمد عثمان باشا في حكومة الايالة. عزموا على استغلاله ليؤثر في الداي حتى يقبل الصلح مع اسبانيا. وذكر الزهار بأنهم رشوه وقدموا له أموال وهدايا كثيرة حتى يقوم بتلك المهمة.

وخلال أسره بقرطاجنة كتب رسالة إلى الملك الفرنسي لويس السادس عشر خلال شهر أبريل 1776، شرح له فيها كيفية أسره، فتدخل لدى الملك الاسباني بواسطة سفيره بمدريد، وقنصله بقرطاجنة وطلب منه اطلاق سراحه وإخلاء سبيل المركب وما عليه من البضائع، فرغم الاسبان أن البضائع من النوع المحضور شحنه، ولكنهم أطلقوا سراح حسن وعاد على مركب انجليزي إلى مدينة الجزائر يوم 23 ماي 1776 بصحبة الكسندريا ربلبيي، الذي أشاد به في رسالته وتلقى رسالة من كاتب الدولة البحرية الفرنسية بتاريخ 3 جوان ردا على رسالته إلى الملك، شرح له فيها المساعي الفرنسية التي ما تزال جارية وكذلك كتب كاتب الدولة الفرنسي للبحرية رسالة إلى الداي في نفس المعنى بتاريخ 29 جويلية 1776(1).

ومن الملاحظ هنا أن نورد رواية أحمد الشريف الزهار التي تؤيد الأمر وضوحا، رغم أنه لم يكن يعرف قصة أسر حسن وكيل الخرج، والقيادة إلى قرطاجنة باسبانيا كما يتضح من كلامه وهو يتحدث عن معارك عام 1784، وأسباب الصلح: قال: (أثناء ذلك القتال أمر حسن وكيل الخرج الذي أصبح بعد صاحب الترجمة دايا على الجزائر، بأن يأمر القبطان باعطاء ربع سلطاني في اليوم الواحد بدل سلطاني كامل للبحرية الذين يقدفون فقال هؤلاء كيف كنتم تعطون سلطاني كاملا ثم صار ربع سلطاني في اليوم ثم سكتوا فلما رأوا العدو قبل وصولهم لموقع المعركة وزاد في التقدم كثيرا وصار يرمي البومبة على البلاد خصوصا على دار الامارة كأنه يعرفها والتمس من رأي الخزناجي وغيره أن يحملوا الباشا للقصبة، فحملوه إليها، وبعد أن التقى الجمعان ووقع القتال وافترقوا فرجع الاصبانيول لمراكبهم، والمسلمون للمرسى قال رجال البحر للجدافين لماذا ثم تأخرتم حتى صار هذا الأمر قالوا لهم: هذا قتال الربع سلطاني ومن الغد أعطوهم السلطاني

(1) Eugène Plantet: Correspondance des deys d'Alger avec la cour de France 1579-1833, Tome 2 Tunis 1983 2ème éd. pp. 328-332.

كاملا كأول مرة فخرجوا بنشاط، ولم تصل البومبة للبلاد. والسبب في
هو أن حسن وكيل الحرج المذكور سالفا، كان أرسله محمد باشا، وأرسل
الباشكاش، أي الهدية لجلالة السلطان في استانبول فلما كان أثناء الطريق
بعض مراكب الأسبانيول وطلعوا للمركب الذي هو فيه، وكان مركبا
آخر من النصارى، وتكلموا معه على أن يتوسط لهم في الصلح وإقامه
انهم أهدوا له صورة شاة صوفها كله من جوهر، ورأسها وقوائمها كلها
كريمة وتكلم الناس كثيرا في هذا المعنى فلما رجع حسن وكيل الحرج
استانبول خاطب مولانا الباشا في الصلح فكان يقول لا أصالحهم ما دمت
وبقي الأمر كذلك إلى أن جاء الاصبانيول في المرة الثالثة ووقع تنقيص الدراهم
لأصحاب اللنجور، ووقع ما سلف ذكره من ضرب دار الامارة، ونقل الأمر
إلى القصبة، كان كل ذلك بقصد التأثير عليه لقبول الصلح، وتم الأمر
كذلك(1).

ان رواية الزهار هذه لها نصيب من الصحة، لأن حسن وكيل الحرج
متن صلاته كثيرا بالساسة الاسبان، وكثف مراسلاته معهم سواء يوم أن كان
وكيلا للحرج أي وزيرا للبحرية، أو بعد أن أصبح دايا خلفا للمرحوم محمد
عثمان باشا. وأظهر فيها مشاعره الطيبة نحوهم، وأكد استعداده لاجابة مطالبهم
والسعي لديه وحمله على قبول ابرام الصلح، والاستجابة لرغباتهم. ففي ما بين
1780 و 1798 وجه 38 رسالة إلى الملك الاسباني ووزيره الأول. منها 17
عندما كان وكيلا للحرج، و 21 بعد أن أصبح دايا.

وقد ألح عليه كل من الملك الاسباني، ووزيره الأول في رسائلهما إليه،
على ضرورة بذل جهوده لدى الداي لاقناعه على إبرام الصلح مع اسبانيا،
وأكدا له بأنهما يعولان عليه كثيرا في ذلك، وكثيرا ما شكراه على مواقفه
وجهوده تجاه قضايا كثيرة مثل افتداء الأسرى، والتدخل لدى تونس لابرام
الصلح.

---

(1) الزهار، نفس المصدر، ص 34.

وقد ذكر كيحل بأن اسبانيا بعد أن فشلت حملة أوريلي، نجحت في ابرام الصلح مع سلطان المغرب الأقصى، عام 1780، واقترحت على بريطانيا أن تسلم لها وهران مقابل خروجها من جبل طارق ورفضت وفشلت المفاوضات[1].

وخلال مفاوضات الصلح عامي 1785 و 1786، وبعد ذلك نجد حسن وكيل الحرج يلح في رسائله إلى الوزير الأول الاسباني على تكريم أليكساندريا زبلبني، واسناد وظيفة مهمة إليه لأنه على ما يبدو هو الذي أسره في البحر واقتاده إلى اسبانيا، وهو الذي رافقه بعد ذلك إلى الجزائر بعد اطلاق سراحه.

ففي رسالته بتاريخ 21 شعبان 1199 (29 جوان 1785)، أخبره بأنه أرسل إليه هدية مع بازيليني، ورجاه أن يكافئه ويكرمه على جهوده التي لم يوضحها[2].

وفي رسالته بتاريخ 24 جمادي الأولى 1200 (26 مارس 1786) أخبره بأنه يعرف جيدا بازيلي الذي رافقه من تركيا إلى قرطاجنة معه، وقدم له خدمات مهمة، وصحبه كذلك من قرطاجنة الى الجزائر. وطلب منه أن يكافئه هو وصديقه الحاج سليمان بن حلول الذي خدم ذي سبعي سنوات طويلة[3] فرد عليه فلوريدا بلانكا برسالة يوم 25 أبريل، أكد له فيها بأنه يبذل جهوده في وظيفة مهمة، وتم تعيينه فعلا[4].

---

(1) Kehl (E): Oran et l'Oranie avant l'occupation française. Bul. 3. G. Arch. d'Oran, Oran, 1942, p. 45.

(2) أرشيف التاريخ الوطني لمدريد، قسم الدولة، رزمة 3615.

(3) نفس المصدر.

(4) نفس المصدر.

وفي يوم 5 جمادي الأولى 1201 (23 فبراير 1787) كتب حسن
وكيل الخرج إلى بلانكا، يشكره على ما قدمه من جميل لصديقه بارطو
ووعده بأن يبذل هو جهوده لاطلاق سراح الأسرى الاسبان بالجزائر

مفاوضات الصلح من خلال الرسائل:

لقد كان الداي محمد عثمان باشا يرفض بصفة قطعية ابرام أي صلح مع اسبانيا ما دامت تحتل وهران والمرسى الكبير، فما الذي دعاه إلى تغيير موقفه؟ يبدو أن حكاية الزهار عن حسن وكيل الخرج صادقة ثم أن الغارات الاسبانية الثلاثة السابقة، خاصة الأخيرة منها، رغم فشلها، خلفت آثارا سيئة في نفسية الداي، ورجال دولته، ولربما شعب المدينة كله، ولذلك مال الداي إلى التفاوض سيما وأن كلا من المغرب الأقصى، وطرابلس أبرمتا الصلح فعلا مع اسبانيا.

ومساعي الصلح بين الجزائر واسبانيا تعود على ما يبدو إلى عام 1777، كما سيتضح من الرسائل ففي رسالة لوكيل الخرج حسن إلى الوزير الأول الاسباني الكوندي فلوريدا بلانكا El Conde De Florida Blanca بتاريخ 4 جانفي 1780، أخبره فيها بأنه اتصل برسالته السابقة التي تحمل تاريخ 13 أفريل 1779 وأن الجزائر قبلت شروط الصلح المقترحة بشرط أن تقبلها الدولة العثمانية وأبلغه بأنه حدث الماركيز فونتانير بذلك وتلقى منه رسالة بتاريخ 23 جانفي 1778(1).

فأجابه بلانكا برسالة جوابية شكره فيها على جهوده ومساعيه لابرام السلم والصلح، ووعده بأن يتكلف شخصيا بالاتصال بالدولة العثمانية لاقناعها بقبول فكرة ابرام الصلح، وضمانه بين الجزائر واسبانيا.

---

(1) نفس المصدر

(2) Archivo historico nacional de Madrid section des Estado Legajo 3615, Correspondance de Los Deys.

وأكد له بأن اسبانيا تقبل ابرام الصلح ولو بهذا الشرط. وقد كلفت كلا من التاجر البرتغالي دون جيرارد جوزيف دوسوزا Don Gerard De Souza، والراهب جوزيف كوندي Joseph Conde ليتفاوضا باسمها مع الجزائر، واعداد شروط الصلح في انتظار وصول موافقة الدولة العثمانية(1).

وقبل انجاز حملة دون انطونيو الثانية عام 1784 تدخل السلطان محمد بن عبد الله لدى الملك الاسباني كارلوس الثالث ووجه إليه رسالة بتاريخ 26 جمادي الثانية 1798 (2 ماي 1784) طلب منه فيها أن يؤجل ارسال الحملة البحرية ضد الجزائر حتى يتصل بجواب منها، وأكد له بأنها ستقبل للصلح لا محالة، ورجاه أن يرسل إليه وإلى السلطان العثماني نسخة من جوابها(2) فرد عليه الملك الاسباني برسالةجوابية بتاريخ 20 جوان 1784 أخبره فيها بأنه فوض لوزيره الأول التصرف في أمر الصلح مع الجزائر، وان اسبانيا وقعت صلحا مع الدولة العثمانية، وأرسلت نسخا منه إلى كل من تونس وطرابلس، والجزائر حتى تقتدي بها. فلم يقبله داي الجزائر، ولم يحترمه، ولذلك تم ارسال عمارة بحرية ضده في العام الماضي (1783) بالاشتراك مع أساطيل كل من مالطة، ونابولي، والبرتغال، وأخطر السلطان العثماني بذلك(3). فهل يكون السلطان العثماني على علم بحملة عام 1783 الاسبانية ضد الجزائر ان منطق هذه الرسالة ومحتواها يوحي بذلك.

وعندما كتب كارلوس الثالث هذه الرسالة إلى سلطان المغرب كانت حملته البحرية ضد الجزائر قد غادرت سواحل اسبانيا إلى الجزائر

(1) نفس المصدر، بدون تاريخ.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.

أو هي على وشك الاقلاع. وبذلك يكون الجواب مجرد تمويه، وذرا [illegible] في العيون وتعمية للنوايا العدوانية التي كان يبيتها ويخطط لها.

وبعد خمسة أشهر من حملة انطونيو الثانية الفاشلة كتب الداي [illegible] عثمان رسالة إلى الملك الاسباني كارلوس الثالث بتاريخ 20 محرم 1199 (3 ديسمبر 1784)، ما تزال قيد الدراسة ولها صلة بقضية الصلح[1].

وفي أوائل شهر جوان 1785 وصل إلى مدينة الجزائر وفد رسمي اسباني للتفاوض من الكونتدي دي سبلي El-Conde d'Expelly والأميرال مازاريدو Mazzarido وساعدهم في مهمتهم القنصل الفرنسي دوكرسي Dekercy ودامت المفاوضات عاما كاملا تبودلت خلالها رسائل عديدة قبل أن يتم التوصل إلى شروط مرضية للطرفين ويبرم الصلح بينهما يوم 14 جوان 1786 وقد مهد كل من التاجر دوسوزا، والراهب جوزيف كونتي لهذا الصلح كما مر.

ففي يوم 21 شعبان 1199 (29 جوان 1785) وجه وكيل الخرج حسن رسالة بالعربية إلى الوزير الأول الاسباني بلانكا، ردا على رسالة سابقة لم يذكر تاريخها أبلغه فيها بأنه اتصل بهديته التي حملها إليه الكونتدي دي سبلي وأنه أرسل له هو الآخر هدية مع المدعو اليكساندر بازيليني Alexandre Bazillini وأكد له بأنهم جادون في أمر السعي لابرام صلح بين تونس واسبانيا حسبما طلبوا (أي الاسبان)، وأن الكونتدي دي سبلي سيحمل إليه شروط الصلح التي أعدت بالجزائر كما رغب الملك الاسباني واقترحه[2].

وفي يوم 13 أوت 1785 وجه الكونتدي دي بفلوريدا بلانكا رسالة إلى الداي محمد عثمان باشا ردا على رسالة سابقة منه شكره فيها على حسن استقبال المبعوث الاسباني.

---

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.

وتمنى أن تنجح المفاوضات الجارية لابرام الصلح بين البلدين، على أن تضمن الدولة العثمانية ذلك، وأبلغه بأن الملك الاسباني يشكر كلا من فرنسا والمغرب الأقصى على وساطتهما في مساعي هذا الصلح، ويأسف على عدم قبول تقديم أسلحة للجزائر كشرط لهذا الصلح. ورجاه أن يعمل على توقيع الصلح كذلك مع كل من نابولي، والبرتغال. وفي الأخير أعلمه بأنه أرسل إليه هدية سوف تصله فيما بعد(1).

وفي يوم 22 ذو القعدة (26 سبتمبر 1785) وجه باي معسكر محمد بن عثمان الكبير رسالة إلى بلانكا أخبره فيها بأنه ذهب إلى الجزائر، وحضر اجتماعا لدى الداي اشترك فيه الرسول الاسباني دي سبي لاعداد شروط الصلح، وسوف يكتب له هذا الرسول بنفسه ليبلغه ما جد في الأمر(2). فأجابه بلانكا برسالة لا تحمل تاريخا شكره فيها على قراره بعدم مهاجمة وهران، وطلب منه أن يعمل على تخطيط الحدود بين المدينة والبايليك، ويوافق على تزويد المدينة بما تحتاج إليه من المؤن والأغذية(3) وهي خدعة على ما يظهر لجعل الجزائر تعترف رسميا بالاحتلال الاسباني، ولكن الداي وباي الغرب لم تنطل عليهما على أي حال.

وهناك رسالة أخرى لفلوريدا بلانكا لا تحمل تاريخا يبدو أنها موجهة لحسن وكيل الحرج، ولو أنه لم يذكر اسمه فيها ذكر فيها بأن الكوندي دي سبي يوجد عندهم في اسبانيا وتسلم منه الرسالة التي حملها إليه وفرح بحالة السلم القائمة بين البلدين. ورجا من هذا الشخص أن يتصل بباي تونس لاقناعه بابرام صلح مع اسبانيا كذلك وأوضح له بأن دي سبي سوف يحدثه على كل الأمور بالتفصيل عندما يعود إلى الجزائر(4).

---

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.
(4) نفس المصدر.

كذلك هناك رسالة أخرى لفلوريدا نفسه إلى شخص غير مذكور قد يكون حسن وكيل الخرج، وقد يكون سيد علي آغا حدثه فيها عن مساعي الصلح الجارية مع الجزائر، واعتذر له عن حملة عام 1784 التي أرسلها الملك ضد الجزائر. وأبلغه بأن طرابلس قبلت ابرام الصلح مع اسبانيا(1).

وفي يوم 25 ربيع الأول 1200 (20 جانفي 1786) وجه الحاج مصطفى خوجة الوزير الأول الفرنسي رسالة إلى وكيل الخرج حسن بالجزائر أبلغه فيها بأنه اتصل برسالته التي حملها إليه سليمان، والضابط اليكساندر بازيليني. وعلم عن طريقهما، بوجود المبعوث الاسباني دي سي بالجزائر للتفاوض من أجل ابرام الصلح وتمنى أن يفعل ذلك مع تونس التي قررت التوقيع على هدنة مؤقتة تبدأ من أول مارس (1786)(2)، (19 جمادي الأول 1200).

وفي يوم (20 مارس 1786) وجه الخزندار سيد علي رسالة إلى بلانكا أخبره فيها بأنه اتصل برسالته التي تحمل تاريخ 25 نوفمبر 1784 عن طريق دي سي وأن الداي قد أطلق سراح انطونيو بار يسانو. Antonio Barissano الذي كان يعمل عنده في القصر، وطلب أن يقبل تعيينه ترجمانا عندهم بالجزائر. وأخبره كذلك بأن شروط الصلح التي تفاوض بشأنها مازاريدو حصل حولها خلاف، ولكن دي سي تدخل وتم التوصل إلى وضع شروط مرضية، وتمنى أن يحترم من الطرفين حتى تعود الفائدة عليهما ولا تتجدد كوارث الحروب الماضية. وفي الأخير أبلغه بأنه أرسل إليه حصانا كهدية مع فرانسيسكو طار في، ودي سي(3).

---

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.

وهناك رسالة من الداي محمد عثمان إلى الملك الاسباني بتاريخ 16 جمادي الأولى 1200 (16 مارس 1786) هي قيد الدراسة لها صلة بموضوع الصلح[1]. وفي يوم 20 جمادي الأولى 1200 (21 مارس 1786) وجه وكيل الحرج حسن رسالة إلى الكونديي دي سبي باسبانيا جوابا على رسالة سابقة منه إليه بتاريخ 16 سبتمبر 1785 طلب منه فيها أن يسلم إلى الحكومة الاسبانية شروط الصلح التي حملها معه من الجزائر بعد أن أمضاها الداي وهذا يوحي بأن الصلح أمضى عام 1785 وليس 1786[2].

وفي ويوم 27 جمادي الأولى 1200 (29 مارس 1786) وجه الداي محمد عثمان باشا رسالة إلى بلانكا، أبلغه فيها بأنه اتصل برسالته المؤرخة بيوم 13 أوت 1785، واقترح عليه قبول تعيين التاجر الايرلندي دون خوان وولف Don Juan Wolf قنصلا لاسبانيا بالجزائر، وأوضح له بأنه تحادث مع دي سبي في الموضوع فاستحسنه، وتمنى الداي أن يكون جوابه هو بالاستحسان والقبول كذلك[3]. وهذا يعني أن شروط الصلح قد تم الانتهاء من اعدادها ما دام قد توجه التفكير إلى اعتماد القنصل.

وفي يوم 25 أبريل 1786 أجاب الملك الاسباني على رسالة الداي السابقة التي حملها إليه دي سبي وأعلن سروره وابتهاجه بالسلم الذي أصبح يسود العلاقات بين اسبانيا والجزائر. وأكد بأنه سيضمنه حتى يدوم ويتواصل وشكره على نصحه لباي معسكر بالتوقف عن مهاجمة وهران. وأبلغه بأنه أعطى أوامره لدى سبي ليتصل بهذا الباي ويتفاوض معه ويتوسط بينه وبين حاكم وهران للاتفاق على صلح أو هدنة. كما أبلغه بأنه

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.

عازم على منع اعطاء جوازات سفر اسبانية لكل من يعادي الجزائر، وتمنى أن يفعل هو مثل ذلك، وذكر له بأنه سيضيف ذلك إلى شروط الصلح وتمنى ألا يضايق الاسبان وبواخرهم الحاملة للعلم الاسباني بالجزائر وسفنها وفي الأخير ذكر له بأنه سيرسل إليه عقد الصلح ممضي ومختوما من طرف الوزير الأول الاسباني(1).

وفي نفس التاريخ، 25 أبريل 1786 كتب دي فلوريدا بلانكا ثلاث رسائل: احداها إلى الداي محمد عثمان جوابا على رسالته بتاريخ 29 مارس 1786 شكره فيها على موقفه الودي نحو اسبانيا، وتمنى أن يدوم الصلح أعواما طويلة. واعتذر له عن عدم قبول اقتراحه السابق بتعيين دون ووليم الايرلندي قنصلا لاسبانيا بالجزائر، لأنه رجل أجنبي. ولكنه اقترح عليه تعيينه مساعدا للقنصل الاسباني ما دام دي سبي قد زكاه، والثانية إلى وكيل الخرج حسن حدثه فيها على المساعي التي يجريها دي سبي مع تونس لابرام صلح معها كذلك، وشكره هو والملك على جهوده ومساعيه الحسنة والطيبة في ذلك — وأعلمه بأنه أرسل ساعة ذهبية كهدية له. وان مجلس الدولة البرتغالي والدولة العثمانية بجريان مفاوضات الصلح.

وسيمر المبعوث البرتغالي دولاندرست De Landerset بالجزائر ليسلم له رسالة من طرفه، ورجاه أن يساعده على مقابلة الداي لتحقيق ابرام صلح بين البلدين كذلك.

والثالثة إلى الخزندار سيد علي أعاد فيها ما قاله للداي، ووكيل الخرج حسن، وأكد له بأنه هو والملك قد أمضيا شروط الصلح، وتمنى أن يمضيا الداي كذلك(2).

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.

امضاء الصلح بصفة رسمية:

في يوم 17 شعبان 1200 الموافق ليوم 14 جوان 1786 أمضى الداي محمد عثمان شروط الصلح التي تتألف من 25 مادة مكتوبة في نسخ باللغتين التركية والاسبانية وبعد شهرين ونصف من هذا أمضاها الوزير الأول الاسباني الكونديي دي فلوريدا بلانكا يوم 26 أوت 1786، ونص فيها على أن يحتفظ كل من الداي، والقنصل الاسباني بالجزائر، بنسخة منها ويحتفظ الملك الاسباني بنسخة عنده باسبانيا يوزع منها نسخا على المسؤولين المعنيين.

وقد عثر الزميل عصمت تركي حسابي على النص التركي الاسباني، في أرشيف التاريخ الوطني لمدريد، ويقوم باعداد رسالة ماجستير في الموضوع باللغة الاسبانية وقام الزميل الأستاذ ميكيل دواباليرا الاسباني بنشر دراسة صغيرة عنه في السنوات الماضية وساعد الأستاذ الزميل مولاي بلحميسي على ترجمة النص الاسباني إلى العربية، ونشره في مجلة تاريخ وحضارة المغرب(1)، وعليه اعتمدنا حين في نقل بنوده تعميما للفائدة، ونترك المجال للشريف الزهار ليحدثنا عن الجو الذي جرى فيه امضاء الصلح وفداء الأسرى، والأموال التي جاء بها الاسبان. قال نقيب الأشراف: فلما كانت سنة 1199 أتى الاسبانيون للصلح وأتوا معهم بالأسارى الذين عندهم وأبدلوهم بالنصارى الأسارى. أما الأسرى الباقون من اصبانيول فدفع عنهم ألف دورو على الرأس وكذلك دفع لأهل البلاد قيمة الأسارى التي بأيديهم ألف دورو لكل رأس، وحمل الأسارى ووقع بينهم الصلح من مائة سنة وذلك في البحر فقط أما في البر من جهة وهران فلم يقع صلح إلى أن فتح الله على المسلمين في أول ولاية حسن باشا خلف صاحب

---

(1) العدد 11 جويلية 1974، ص 3 ـ 22.

الرحبة ودفع الاصبانيول ثمن الصلح وغرامة مائة سنة سلفا، وفرقوا [illegible] ودفعوا العوائد وقد سمعت ممن حضر ساعة نزول المال قال: رأيت [illegible] الثلاثاء ساعة نزول صناديق المال كانوا يضعون الواحد منها فوق [illegible] على مسافة كبيرة حتى امتلأت الرحبة التي هناك، وصارت الصناديق [illegible] بعضها بعضا متساوية مع سطوح المخازن على مرتين أو ثلاث مرات، و[illegible] الفروانة نحو أربعمائة أسير خلاف السماكرة الحمالين كانوا يحملون [illegible] مدة ثلاثة أيام من الصباح إلى الليل. وقد تعمرت بذلك المال الخزانة الأولى والثانية، ووضعوا منه في الثالثة هذا خلاف ما دفع عن الأسارى أهل [illegible] وتكاتبوا على الصلح، وأطلقوا المدافع من السفن وأجابوهم من الأبراج، وأطفأ الله نار تلك الفتنة، ووضعت الحرب أوزارها، وحينئذ أقلعت مراكب الاصبانيول وذهب فلله الحمد والشكر على خلاص المسلمين الأسارى الذين كانوا عند الاصبانيول[1].

ويروي فيرو دون أن يذكر مصدر الرواية بأن حسين وكيل الخرج قال عند توقيع الصلح وتسلم الأموال إن دار البوربون الاسبانية حملت إلينا ثلاثين ودار البوربون الفرنسية سوف تحضر لأحدها وعلق فيرو على ذلك بقوله: إن ذلك ما سوف يحصل عام 1830[2]، فكأن حسين تنبأ بما حدث في حملة الاحتلال من نهب وسلب خزينة الداي.

نص بنود الصلح:

الحمد لله العلي القدير[3].

في 17 شعبان 1200هـ انعقدت معاهدة سلم وصداقة دائمة بين اسبانيا والجزائر، وتمت الاتفاقية في إطار الانسجام الكامل والإرادة الحسنة،

---

(1) [illegible] ص 34 ــ 35.

(2) فيرو [illegible] ص 319.

(3) [illegible] مجلة تاريخ وحضارة المغرب عدد 11 (الجزائر ــ [illegible] 1974)، ص 12ــ18.

بين صاحب الجلالة المعظم دون كارلوس الثالث ملك اسبانيا والهند، من جهة، وصاحب السمو محمد باشا داي والديوان، والانكشارية بمدينة الجزائر ومملكتها من جهة أخرى.

البند الأول: سيكون السلم دائما بين صاحب القوة ملك اسبانيا، وأصحاب السمو: الداي والديوان، والانكشارية بمدينة الجزائر ومملكتها، وكذلك بين من ينتمي إلى الدولتين، والذين يستطيعون تعاطي التجارة بناء على المعاملة بالمثل في كلتا المملكتين والتنقل بحرا في أمن تام دون أي عائق أو ازعاج من كلا الطرفين مهما تكن الحجة.

البند الثاني: ان تجارة الايالة، أو العاملين لحسابهم بالجزائر، اذا اعترضوا سفنا اسبانية في البحر،عليهم أن يتركوها تسير إلى حيث تشاء، ويقدموا لها كل الاسعافات والامدادات اللازمة إذا تعرضت لأي عائق.

وإذا أرادوا الصعود إلى متنها للمراقبة يجب عليهم ألا يرسلوا سوى رجلين ذوي ثقة إلى ظهر المركب. ونفس الأمر ينطبق على البحارة الاسبان، والمراكب الاسبانية تجاه البحارة والمراكب الجزائريةوكذلك البحارة الذين يعملون لحسابهم الخاص بشرط أن يتسلموا من قنصل اسبانيا بالجزائر جوازات سفر حتى لا ترتكب ضدهم أخطاء.

البند الثالث: يسمح للمراكب الجزائرية بالرسو في جميع موانئ اسبانيا وفرضها إذا تعرضت لزوابع، أو أخطار، اعتداء، وتقدم لها كل الخدمات اللازمة مقابل أجور عادية. أما في غير هذه الأحوال فلا يسمح لها بالاتجار، والتموين الا في موانئ: اليكانت، وبرشلونة، ومالقا ولا تبقى بها الا الوقت المطلوب لانجاز أعمالها وبالمثل تعامل المراكب الاسبانية نفس المعاملة في الموانئ الجزائرية.

البند الرابع: إذا وجد مركب اسباني في ميناء الجزائر أو أحد موانئها الأخرى بالمملكة، وتعرض لهجوم من طرف أعداء اسبانيا. فان كان داخل

مرسى مدفعية الحصون، فعليها أن تحميه وعلى قائدها أن يخبر المعسكر ...
اهمال المركب الاسباني وقتا كافيا لا يقل عن 24 ساعة للخروج والا...
وذلك بحجز سفن العدو ومنعها من ملاحقته. وتتخذ نفس الاجراءات من
طرف ملك اسبانيا لفائدة مراكب الجزائر. ولا ينبغي لهذه المراكب أن
تستولي على شيء لعدوها إذا وجد دون مرمى المدفع بالشواطئ الاسبانية
كلها.

وينقل المركب المذكور بالأشرعة. ويكون الأمر كذلك إذا كان
راسيا على مرأى السواحل لأن المركب في هذه الحالة يعتبر محتميا بالسواحل.

البند الخامس: إذا وجد معادون للجزائر على مراكب اسبانية، أو
اسبان على مراكب معادية للجزائر فلا يسترقون مهما كانت الحجة، حتى
ولو نشب القتال بين الطرفين، ويحترم الجانب الاسباني نفس القرار بالنسبة
لأعداء اسبانيا الموجودين على مراكب جزائرية أو الجزائريين الموجودين على
مراكب معادية لاسبانيا، وعلى المسافرين أن يبرهنوا أنهم جزائريون أو اسبان
باظهار جواز سفر يسلمه لهم قنصل بلادهم في موانئ الاقلاع، وأن يعلنوا
عن أمتعتهم وكل ما هو تابع لهم.

البند السادس: إذا أشرف مركب اسباني على الغرق قرب السواحل
الجزائرية، أو لاحقه الأعداء بنفس المكان أو أجبرته رداءة الطقس على
الاقتراب من الشواطئ، يجب أن ينقذ ويقدم له كل مايلزم لاصلاحه
واسترداد حمولته على أن يدفع مقابل الخدمات والاسعافات، ولا يطالب
بدفع أي مكس أو أتاوة على السلع التي أفرغت الا إذا بيعت، أو كان القصد
بيعها في مرسى المملكة المذكورة.

البند السابع: يستطيع كل التجار الاسبان بالموانئ والسواحل
الجزائرية أن ينزلوا بضائعهم، ويتاجروا بحرية دون أن يدفعوا أكثر ما يدفعه
الأهالي ويتمتع التجار الجزائريون بنفس الحقوق في الموانئ الخاضعة للسيادة

الاسبانية، والمنصوص عليها في البند الثالث. وإذا أنزل التجار المذكورون سلعهم بقصد الايداع فقط، يكون من حقهم شحنها دون أن يدفعوا عليها أية ضريبة، ويدفع الجزائريون باسبانيا، والاسبان بالجزائر، نفس الرسوم الجمركية التي يدفعها الفرنسيون في هذين البلدين ويعامل الطرفان ما تعامل به هذه الدولة.

البند الثامن: لا يقدم الجزائريون أي مدد لمراكب دولة في حالة حرب مع اسبانيا، ولا يحمونها حتى ولو كانت لمسلمين. ولا يعيرون من حصل على شهادة ضريبة المهنة من طرف هذه الدول المعادية، ولا يستطيعون استعمال هذه الشهادات للدخول في الغزو البحري ضد الاسبان وتتعهد اسبانيا باتخاذ نفس الموقف ازاء الجزائريين.

البند التاسع: ليس لأحد أن يكره الاسبان بأي سبب أو دعوى، على شحن (بضائع) في مراكبهم بموانئ الجزائر وفرضها، إذا رفضوا ذلك، ولا أن يجبروهم على القيام بأسفار إلى نواحي لا يرغبون في الذهاب إليها.

البند العاشر: سيقيم قنصل لاسبانيا بالجزائر ويكون له نفس الامتيازات التي يتمتع بها قنصل فرنسا، ويتكلف بجميع شؤون الاسبان بنفس الكيفية التي يعالج بها قنصل فرنسا قضايا مواطنيه وستكون له سلطة قضائية في الخلافات بين الاسبان، دون أن يتدخل فيها قضاة مدينة الجزائر.

البند الحادي عشر: لكل الاسبان الموجودين بمملكة الجزائر، كامل الحرية في ممارسة شعائر الدين المسيحي سواء أكانوا بالمستشفى الملكي الاسباني الذي تديره منظمة الافتدائيين الثالوثيين المتعلقين بمدينة الجزائر، أو في منازل القناصل أو دور نوابهم، أو التي يستحسن في المستقبل انشاؤها في أماكن أخرى.

البند الثاني عشر: يسمح للقنصل باختيار ترجمانه ووكيله ... وبزيادة السفن الاسبانية متى شاء. وله أن يرفع علما اسبانيا فوق ... أو على منزله.

البند الثالث عشر: عندما تنشب مشاجرة أو نزاع اسباني ... أو مغربي، لا يكون الأمر من اختصاص قضاة المدينة العاديين، ... فيه مجلس الباشا والداي والديوان والانكشارية، بمحضر القنصل أو ... أحد الموالي خارج العاصمة حيث نشب الخلاف ويحكم بالعدل، ... الصلح بين الطرفين.

البند الرابع عشر: لا يتحمل قنصل اسبانيا، بحكم وظيفته مسؤولية ما يرتكبه بعض التجار أو الأشخاص الاسبان من ديون، إلا إذا التزم بذلك كتابة. وتوضع أملاك الموتى الاسبان بمملكة الجزائر تحت تصرف القنصل الاسباني ليسلمها لمستحقيها من الاسبان أو غيرهم. وتطبق نفس الاجراءات لفائدة الجزائريين الذين يرغبون في الاقامة باسبانيا.

البند الخامس عشر: يعفى القنصل الاسباني بالجزائر من جميع رسوم الجمارك فيما يتعلق بمؤونته وأثاث منزله.

البند السادس عشر: إذا اعتدى اسباني على تركي أو مغربي، ... يعاقب في غياب قنصل بلاده الذي سيدافع عنه. وإذا فر متهم اسباني لا يتحمل القنصل مسؤولية فراره.

البند السابع عشر: إذا صادف أحد القراصنة الاسبان أو الجزائريين في البحر، مركبا جزائريا أو اسبانيا، وألحق به ضررا، يعاقب، ويقوم الذين جهزوه بدفع التعويض المطلوب عن الخسائر.

البند الثامن عشر: إذا اضطر مركب اسباني، بسبب حدوث طارئ، أو نفاذ الماء، أو أي سبب آخر، إلى الارساء بالموانئ الخاضعة لسيادة

الجزائر، ولم يشحن أو ينزل بضائع، فليس للأعوان أو لأصحاب الرياس المذكورين الحق في أخذ رسوم الإرساء من المراكب الاسبانية أو مطالبته بها.

البند التاسع عشر: يستطيع الباشا الداي العظيم أن يعين، متى شاء، شخصا مناسبا ليستقر بأحد مراسي اسبانيا بصفته وكيلا للدولة الجزائرية.

البند العشرون: تبقى مدينة وهران وحصونها وقاعدة المرسى الكبير على ما كانت عليه من قبل دون اتصال بالضواحي ولن يهاجمها داي الجزائر أبدا ولا يقوم باي معسكر بأية غارة عليها إذا لم يتلق أمرا من الداي. وبما أن هذا الباي يحكم الناحية باستبداد، فإن داي الجزائر العظيم سيوافق على أي اتفاق يحصل بين اسبانيا والباي المذكور الذي تلقى أمرا بعدم الاعتداء على القواعد والحصون الاسبانية. وإذا قام بعض العصابات والمتشردين، والمغطرسين، من الأهالي، بأعمال سلبية، فإن ذلك لا يفسد الولاء الذي حل بين الدولتين. غير أن النصارى لا يكونون في أمن وسلامة في مكان أبعد من رمية المدافع.

البند الحادي والعشرون: لا يمكن للمراكب الاسبانية أن تقصد إلى مرسى من نتيجته اعتبار ذلك عملا عدوانيا، إلا إذا تم النفي القاطع لذلك حتى.

البند الثاني والعشرون: لا يمكن للمراكب الاسبانية أن تقصد إلى مراسي جزائرية خارج العاصمة لكي تفرغ أو تشحن حمولتها، إلا برخصة من حكومة الجزائر، كما هو معمول به في جميع الدول الأخرى.

البند الثالث والعشرون: إذا انقطعت العلاقات لا قدر الله، بين البلدين، فالقنصل وجميع الاسبان بمملكة الجزائر، وجميع الجزائريين باسبانيا، يمنح لهم مهلة ثلاث أشهر لمغادرة البلاد، وحمل أمتعتهم، ولا يعرقلهم في ذلك أحد سواء قبل السفر أو أثناء السفر.

البند الرابع والعشرون: لا يمكن للبحارة الجزائريين ...
ولا للسفن الحربية الاسبانية بموانيء الجزائر، أن يأووا في مراكبهم ...
أو المؤدين للأشغال الشاقة من ذوي جنسيتهم، والذين يلتجئون ...
يجب عليهم أن يسلموهم شريطة ألا يعاقبوا بسبب الفرار.

البند الخامس والعشرون: يحترم الجزائريون احتلال ...
الكاثوليكي، ليس فقط السواحل الاسبانية، وانما حتى السواحل ...
وعملا بشعور الاحتلال هذا، فان الداي يستقبل بفرح وسرور، كل ...
يمر بالجزائر، تحت حماية الملك الكاثوليكي، وعمله. كما أن جلالة ...
الكاثوليكي يستقبل من يمر باسبانيا تحت رعاية داي الجزائر وعمله ...
الداي مستعدا للدخول في المفاوضات مع الدول التي يحث عليها جلالة ...
وتكون في حالة سلم مع الباب العالي الذي يقتدي الداي بسياسته ...

باسم الله العلي القدير: ان المعاهدة الحالية من أجل السلم ...
صودق عليها بين اسبانيا وايالة الجزائر، أملا في أن يقبله ويوافق ...
صاحب العزة الملك دون كارلوس الثالث، أبقاه الله في الازدهار ...
الداي محمد باشا العظيم، أبقاه الله في الازدهار بعد الموافقة الشاملة من طرف ...
الديوان، والمفتي، والقاضيين، والعلماء الأحبار، والأغا، ويجب التوقيع ...
والختم بالخاتم على النسخ الأصلية الثلاثة المحررة باللغتين: الاسبانية ...
والتركية. الأولى خاصة بجلالة الملك الكاثوليكي والثانية بالداي باشا العظيم ...
والديوان والانكشارية بالجزائر، والثالثة تبقى في حيازة القنصل الذي سيقيم ...
بهذه المدينة.

نشر هذا النص بقصرنا يوم 17 من شهر شعبان 1200هـ / 14
جوان 1786 حرام وتوقيع محمد باشا.

قبلت الاقرار والموافقة على هذه الاتفاقية بالصيغة التي تمت بها. كما ...
أني بمقتضى هذا المكتوب أقر وأوافق عليه أحسن الموافقة وأمتنها ...

والعهد الهانئ، ووعدا من ملك بتنفيذه ومراعاته، وأمر بتطبيقه وإجرائه، سان ديفا نسو يوم 26 أوت 1786.

خاتم وتوقيع: أنا الملك جوزيف مونينودي فلوريدا بلانكا.

الخلافات التي حدثت حوله بعد انعقاده

لقد أحدث إبرام هذا الصلح ارتياحا عظيما في كلا البلدين كما تدل على ذلك الرسائل التي تبودلت بين الساسة والمسؤولين في كلا البلدين غير أنه سرعان ما حدثت خلافات حول بعض بنوده. استمر الجدال حولها عدة سنوات، دون أن يؤدي إلى قطع العلاقات وتوترها.

فبعد ثلاثة أيام من توقيع الصلح، وبالضبط يوم 20 شعبان 1200 (17 جوان 1786) كتب الداي محمد عثمان باشا رسالتين اثنتين: احداهما إلى الملك الاسباني كارلوس الثالث. أحاطه علما بأنه اتصل برسالته وفهمها وسر بما جاء فيها، وقبل التغيير الذي اقترحه في شروط الصلح المحررة في ثلاث نسخ. والثانية إلى دي فلوريدا بلانكا اشتكى له فيها من رغبة الملك في إحداث تغيير في بعض شروط الصلح. وأكد له بأنه سيرسل إليه رسالة أخرى عليه أن يتمعن فيها كثيرا. وشكره في الأخير على تعيين دون ويلف مساعدا للقنصل الاسباني⁽¹⁾ وفي يوم 26 ذو القعدة 1200 (20 سبتمبر 1786) وجه علي آغا رسالة إلى دي سيسي في اسبانيا أخبره بأنه اتصل برسالته، وعلم بوصوله إلى مدريد والتقائه بالملك، الذي أمضى شروط الصلح وأمر بارسال الهدايا، والأموال اللازمة، والقنصل إلى الجزائر من مينا قرطاجنة. وهم ينتظرون وصولهم في شهر ذي القعدة⁽²⁾.

---

(1) أرشيف التاريخ الوطني بمدريد. قسم الدولة رزمة رقم 3615.
(2) نفس المصدر.

وفي نفس التاريخ وجه وكيل الحرج حسن رسالة إلى دي سسي
كذلك، على وتيرة رسالة علي آغا السابقة في محتواها(1).

وهناك رسالة من بلانكا بدون تاريخ إلى أحد المسؤولين بالجزائر
أنه حسن وكيل الحرج، ذكر له فيها بأن دي سسي في طريقه إلى الجزائر
حاملا شروط الصلح التي أمضاها الملك لفائدة البلدين. وطلب منه أن
يواصل جهوده مع تونس لتحقيق الصلح معها كذلك وأن يساعد دي سسي
في مساعيه لدى باي معسكر لتحقيق هدنة بينه وبين حاكم وهران الاسباني
وأوضح له بأن مندوبا عن مجلس الدولة لنابولي، وآخر عن مجلس الدولة
البرتغالي سيحضران مع دي سسي إلى الجزائر، وطلب منه أن يساعدهما
على مقابلة الداي للتفاوض معه وتحقيق ابرام الصلح مع بلديهما كذلك(2).

وفي يوم 31 أكتوبر 1786 وجه الملك الاسباني كارلوس الثالث
رسالة إلى الداي محمد عثمان باشا أخبره فيها بأنه أرسل إليه شروط الصلح
ممضاة من وزيره الأول. وتمنى أن يسر بها. وأن يكون صلحا حقيقيا ومحترما
من الطرفين، ليكون كل طرف صديقا للطرف الآخر. وأبلغه بأنه سر هو
أيضا لما حمل إليه دي سسي شروط الصلح ممضاة من طرفه هو كذلك
وانه سيأمر بنسخ ثلاث نسخ بالتركية وواحدة تبقى عندهم في اسبانيا
وتوزع منها نسخ على المسؤولين. والثانية ترسل إليه مع دي سسي لتبقى
عندهم بالجزائر(3).

وفي نفس التاريخ كتب دي فلوريدا بلانكا ثلاثة رسائل واحدة إلى
حسن وكيل الحرج، والثانية إلى علي آغا، والثالثة إلى شخص مجهول.

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.

يشكرهم فيها على الجهود التي بذلوها حتى تم ابرام الصلح مع اسبانيا. وطلب منهم أن يبذلوا نفس الجهود مع تونس لتحقيق الصلح معها كذلك. وأبلغهم سرور الملك بامضاء الصلح بعد تمنع، وأنه أوصى دي سبي ليحدثهم عن كل ما يود الملك أن يقوله ويبلغه لهم(1).

وفي يوم 15 نوفمبر 1786 كتب علي خزندار رسالة إلى بلانكا، أعلمه فيها بأنه اتصل برسالته التي حملها إليه انطونيو باريسانو، وسر بالصلح الذي أمضاه الملك، والسلم الذي يسود علاقات البلدين، وبالنسخة التي سلمها له دي سبي — وأبلغه بأن باي معسكر، توقف عن مهاجمة وهران، وأنه كتب إلى مصطفى خوجة بتونس حول الصلح مع اسبانيا وما يزال ينتظر الجواب منه(2).

وفي أول جمادي الأول 1201 (18 فبراير 1787) كتب الداي محمد عثمان باشا رسالة إلى الملك الاسباني كارلوس الثالث جوابا على رسالة سابقة منه إليه، شكره فيها ونوه بخصاله، وحدثه عن مبلغ مليون ريال الذي اقترحه كتعويض عن الأضرار التي لحقت بمدينة الجزائر خلال حملتي 1783 و 1784، وعن مبلغ 200 ألف ريال الذي اقترحه عوضا عن الأسلحة التي اعتذرت اسبانيا عن تقديمها له كشرط من شروط الصلح، وأخبره في الأخير بأن القنصل الاسباني حامل الرسالة سيحدثه عن عدد آخر من القضايا(3).

وفي يوم 9 رجب 1201 (24 أبريل 1787) كتب الداي محمد عثمان باشا رسالة إلى الكوندي دي فلوريدا بلانكا حدثه فيها عن حيانة

(1) نفس المصدر.
(2) نفس المصدر.
(3) نفس المصدر.

الكوندي دي سبي، وقيامه بتغيير بعض بنود الصلح. وأكد له بأنه راجعه
فصلا فصلا وأمعن فيها النظر ووجد تغييرا في ثلاثة فصول، ورجع
يراجعها ليتأكد بنفسه من ذلك التغيير. وهي: الفصل 7 الذي يخص
التجارة، والفصل 20 الذي يخص وهران، والفصل 25 الذي يخص
بشواطيء الامارات البابوية بإيطاليا.

وقد أوضح بصفة قطعية بأن التغيير الذي حصل في بند 25 لا يصح
اطلاقا لأن حرمة المراكب الاسبانية مقيدة بمسافة رمي مدفع من الشواطئ
الاسبانية. أما في غير ذلك فلا، ولا مدخل للاسبان فيها، ولا يشملها
الصلح، وشرح له كذلك البند الخاص بالتجارة. وطلب منه احترام ما جاء
في البنود الثلاثة الأصلية، وليس المحرفة، ومراعاة النسخة المعتمدة. و
دي سبي بالقيام بهذا التغيير، ووصمه بالخيانة(1). وسيتخذ الداي موقفا
أكثر صرامة فيما يخص البند الخاص بمدينة وهران، ولكن ذلك بعد جلاء
عنها عام 1792، وفي عهد الداي حسن باشا خلفه.

تلك هي خلاصة المراسلات الجزائرية الاسبانية التي تم تبادلها بين
ساسة البلدين حول صلح عام 1786 وتكشف ولا شك، عن أشياء
جديدة لم تكن معروفة لدى الباحثين والمحققين، وتبرز أحداثا شيقة بالبحث
والدراسة. وما تزال هناك رسائل كثيرة تنتظر من ينقب عنها ويدرسها
ويثري بها المدرسة التاريخية للعلاقات الجزائرية الاسبانية في هذه الفترة من
العصر الحديث. ولنا عودة إلى الموضوع.

---

(1) نفس المصدر. وللمزيد من التفاصيل انظر كتابنا: المراسلات الجزائرية الاسبانية في أرشيف
التاريخ الوطني بمدريد (الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية 1993).

العلاقات الجزائرية الفرنسية

حققت فرنسا وحدتها الاقليمية بعد أن ضمت إليها كونتية بروفانس عام 1482م. وأخذت منذ ذلك تنعم ببعض الاستقرار وحولت اهتمامها إلى توثيق صلاتها مع نيابات المغرب الاسلامي وتدعيم مركزها التجاري هناك خاصة مع الجزائر، واستغلت فرصة ضعف مركز إسبانيا وعدم ظهور مصالح ثابتة لانجلترا في حوض البحر المتوسط بينما لم يحصل بعد توحيد إيطاليا.

وقد عقدت فرنسا مع الجزائر أول معاهدة دفاعية عام 1270م. على عهد الملك فيليب الثالث (1270 — 1285م.) وحصلت بموجبها على الامتيازات التي كانت ممنوحة للولايات الايطالية وبقيت سارية المفعول لمدة طويلة، وبمقتضاها استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول (1515 — 1547م) بالقوات البحرية الجزائرية مرتين. الأولى عام 1536م. لتحرير مدينة مرسيليا من أيدي ثوار الهيجنوت البروتستانت، والثانية عام 1543م. لمقاومة اعتداءات شارلكان الاسباني. ولقد تلا عقد المعاهدة السابقة إبرام اتفاقين آخرين للصداقة والتحالف الأول مع الجزائر عام 1534م. والثاني مع الدولة العثمانية حققت فرنسا بموجبه امتيازات خاصة لسفنها وملاحيها وتجارتها وقناصلها بالبحر الأبيض المتوسط والجزائر. وبفضل هذه العلاقات الودية حرصت فرنسا قبل غيرها على تحقيق إنشاء مؤسسات تجارية لها بالجزائر وتطلع بعض مواطنيها من تجار مدينة مرسيليا إلى إقامة مراكز لهم على ساحل الجزائر للصيد، وتموين مراكبهم التجارية وحصلوا عام 1560م. على موافقة الوالي حسان باشا (1557 — 1567م). بإنشاء المؤسسة الفرنسية الافريقية Concession Française D'Afrique التي استمرت حتى القرن التاسع عشر.

وفي عهد الوالي العلج (قلج) علي (1568 ـ 1571م). ل
تاجران من مرسيليا أيضا على إذن وامتياز بإنشاء مركز لصيد المرجان
بين ثغري القالة وعنابة مقابل ضريبة سنوية، وعرض المشروع على شار
التاسع ملك فرنسا (1560 ـ 1574م). والسلطان العثماني سليم الثاني
(1566 ـ 1574م). فوافق عليه واختيرت المنطقة الساحلية ما
مدينتي القالة وعنابة لاقامة حصن ومركز أصبح يسمى فيما بعد (حصن
فرنسا Bastion de France)، واشترط الوالي والباب العالي في الاتفاق ع
تحصين هذا المركز وتسليحه ولكن التجار الفرنسيين لم ينفذوا هذا الشرط
وأقاموا فيما بعد تحصينات، ووضعت مدافع حولها وداخل الحصن ورابط
بعض السفن الفرنسية على الشاطيء أمامه وكان ذلك من بين العوامل التي
أصبحت تعكر دوما صفو العلاقات الفرنسية الجزائرية.

ولما كانت أصداف المرجان من أدوات الزينة الهامة في أوروبا آنذا
وتتوفر في شاطيء القالة فان المؤسسة الفرنسية كانت تقوم بصيد تلك
الأصداف أساسا والاتجار في محصولات المغرب مثل الجلود والقمح والشعر
والشمع. ثم تطور عملها حتى أصبحت قاعدة هامة لنشاط فرنسا الحربي
والسياسي في الجزائر وشمال افريقيا، وبذلك أصبحت مصدر قلق وازعاج
ومثار فتن وحروب ضد الجزائريين الذين رأوا فيها واعتبروها رمزا لوجود
قوة مسيحية في أرضهم الاسلامية فلم يتمالكوا تجاهها بالصبر وهاجموها عام
1568م واستولوا على الحصن ولم تسترجعه فرنسا الا بعد مفاوضات شاقة
وطويلة. وفي عام 1597 م انتهز القنصل الفرنسي بالقسطنطينية فرصة
تجديد معاهدة الامتيازات للمرة الرابعة وحصل من الباب العالي على تأكيد
جديد لأصحاب هذا المركز الفرنسيين بالجزائر. ثم لما تجددت كذلك هذه
الامتيازات للمرة الخامسة عام 1604م حصل القنصل الفرنسي على اضافة
مادة جديدة للمعاهدة نصت على حق المؤسسة الفرنسية في امتلاك الحصن
والمخزن الموجود بالقالة. ولكن الداي والديوان رأيا في هذا الاجراء خطرا
وأوعزا الى حاكم عنابة بالهجوم على الحصن؛ واضطر الملك الفرنسي هنري

الرابع أن يدخل في مفاوضات ومساع حثيثة لدى الباب العالي حتى أعاد للشركة مركزها ولكنه ظل عرضة للهجوم ومصدرا للقلاقل.

ومنذ أن تم انشاء هذا المركز وفرنسا تحرص على تعيين قناصل لها بالجزائر ليتولوا رعاية مصالحها التجارية والسياسية. ولما كان معظم هؤلاء القناصل تجارا فقد كانوا مكروهين من التجار الفرنسيين بسبب حرصهم على تقديم مصالحهم الخاصة، وطلب المزيد من الضرائب مقابل رعايتهم لمصالح التجار وأملاكهم. يضاف إلى هذا كره الجزائريين الشديد لهم، وهذا بسبب ثار تجار مرسيليا عام 1564م على التاجر الذي عينه شارل التاسع (1560 — 1574م). قنصلا له بالجزائر، ومنعه الجزائريون من النزول في المدينة فاضطر أن يعود من حيث أتى، واتصلت فرنسا بالباب العالي وعقدت معاهدة (فرارا) عام 1578م يقضي بتعيين قنصل لها بالجزائر، فحضر ورفض الوالي حسن فنزيانو (1577 — 1580م). استقباله ما لم يقدم هدايا معينة فجدد السلطان العثماني مراد الثالث أوامره ووضع الوالي جعفر باشا (1580 — 1582م) لها ونزل القنصل الفرنسي سورون Souron في المدينة واستقبله الداي وكانت تلك بداية قبول القنصل الفرنسي الذي استمر قائما حتى حادث المروحة عام 1827م باستثناء بعض الفترات التي انقطعت فيها العلاقات لأسباب طارئة. وصحب انشاء القنصليات الفرنسية بالجزائر تنظيم أساكلها Echelles التي تضم التجار والصناع والأطباء ورجال الدين تحت اشراف القناصل ونواب الجالية الفرنسية في البداية ثم انتقل ذلك الاشراف الى شركة غرفة تجارة مرسيليا التي أنشئت عام 1559م وصار لها الحق بطول الزمن في تعيين القناصل ووضع القوانين والأنظمة التي تكفل حماية الجالية الفرنسية نفسها.

وبعد أن تم تركز المؤسسة الفرنسية الافريقية بالجزائر أخذت تظهر [illegible] حين والآخر مشروعات شخصية وحكومية لضم الجزائر أو بعض نواحيها على الأقل إلى فرنسا. وأقدمها مشروع شارل التاسع الذي طرح

على الباب العالي عام 1572م بواسطة سفيره فرانسوا دي نواي أن ... أخاه دوق أنجو (هنري الثالث فيما بعد) ملكا على الجزائر على أن ... في دفع الجزية السنوية المعتادة، وبرر اقتراحه هذا بأن أهالي الجزائر ... إليه حمايتهم من خطر الإسبان، والحقيقة أنه كان يريد إبعاد أخيه عن ... العرش وكان جواب السلطان سليم الثاني (1556م — 1574م) السخرية منه ومن اقتراحه السالف.

وفي بداية القرن 17م تعكر صفو العلاقات الفرنسية الجزائرية بسبب تخطي مؤسساتها الإفريقية للقوانين المتفق عليها، وإقامتها التحصينات والمدافع أمام مراكزها، ومواجهة الجزائريين هذا الإجراء بالعنف والقوة التي أدت في بعض الأحيان إلى تحطيم تلك المراكز وإحراقها، مما اضطر الوزير الفرنسي ريشليو Richelieu (1624 — 1643م) إلى بذل جهود جديدة لتجاوز الأزمة فأرسل السيد سانسون نابوللون Sanson Napollon أحد ... مرسيليا إلى الباب العالي استصدر منه أمرا بإعادة الحصن والمؤسسة إلى أصحابها عام 1625م، ثم سافر إلى الجزائر بذلك الأمر ووزع هناك حوالي ... للأمانة حبه وتوصل مع الداي إلى عقد اتفاق صلح وتجارة نص فيه على احترام الامتيازات السابقة وحقوق التجار الفرنسيين. وبعد هذا اتخذ ريشليو قرارا بإلحاق المؤسسة الإفريقية بالملك الفرنسي رأسا حتى يكسبها نوعا من الحماية أفضل، ولكن هذا الإجراء لم يخفف من الأزمة لأن الجزائريين قويت شكوكهم تجاه نوايا فرنسا وهجموا على المركز مرة أخرى وحطموه عام 1637م، وعادت فرنسا إلى التفاوض وشراء السلم وتحصلت على عقد اتفاق صلح عام 1640 استعادت بموجبه الحصن والامتيازات السابقة.

وفي عهد لويس الرابع عشر (1643 — 1715م) عادت العلاقات الفرنسية الجزائرية إلى سوئها وتدهورها بسبب ما كان يكنه هذا الملك من كره وحقد وعداء للإسلام والمسلمين إلى جانب عوامل ودوافع أخرى

سياسية واستعمارية. وكان وزيره للبحرية كولبير شديد الاهتمام بإحياء التجارة الفرنسية بالمشرق، وتأسيس امبراطورية استعمارية فيما وراء البحر، وهذه الأهداف تحتم عليه تدمير قوات الجزائر البحرية التي باستطاعتها أن تحول دون تنفيذها. ولهذا وجه حملة بحرية إلى مدينة القل لاحتلالها عام 1663 ففشلت في ذلك كما فشلت في اقتحام مياه الجزائر ولكنه وجه في عام 1664 حملة بحرية أخرى واحتار لها مدينة جيجل كمكان للنزول وتمكنت من اقتحامه ولكن الجزائريين شنوا عليها عدة حملات حتى تمكنوا من طردها بعد حوالي ثلاثة أشهر من نزولها، ولم يحاول الفرنسيون اعادة الكرة إلا بعد سنوات طويلة لتأكدهم من مناعة موانيء الجزائر وعنف مقاومة أهلها واستغل الجزائريون متاعب لويس الرابع عشر في حروبه الأوروبية وأخذوا يشنون الغارات على سفنه ومراكبه في المتوسط، ولم يستطع أن يفعل شيئا الا بعد أن عقد صلح نيمويجن Nimwegen 1678م. ثم فكر في اعادة الكرة ضد الجزائر وخادع السلطات الجزائرية في ابرام اتفاق معها لتبادل الأسرى وانتظر حتى اطلق الجزائريون ما عندهم من الأسرى ووصلوا الى مرسيليا وعندئذ تنكر للاتفاق ورفض اطلاق ما عنده من الأسرى الجزائريين، فأعلنت الجزائر عليه الحرب عام 1681، واتخذ ذلك مبررا لشن حملات بحرية عديدة على مياه الجزائر تحت قيادة الأميرال دوكين Duquesne، ومن أهمها حملة عام 1682م. التي أمطرت مدينة شرشال ثم الجزائر بوابل من القذائف تسببت في تحطيم جانب كبير من دورها وعماراتها ودام حصارها للمدينة أشهرا حتى كاد الوالي أن يسلم بشروط قائد الحملة ولكن الأهالي ثاروا عليه وقتلوه واضطر دوكين إلى رفع الحصار والرحيل. وفي عام 1688م. أعاد لويس 14 الكرة ووجه الأميرال دوستري Destrees على رأس حملة كبيرة قذفت مدينة الجزائر بأكثر من عشرة آلاف قنبلة ولكن الجزائريين استماتوا في الدفاع وقبضوا على القنصل وحاشية الفرنسية وقتلوهم جميعا وأرغموا الفرنسيين على الدخول في مفاوضات طويلة انتهت بتوقيع صلح طويل الأجل يوم 25 سبتمبر عام 1689م.

واغتنمت فرنسا فترة السلام التي أعقبت هذا الصلح وقررت عام 1741م ادماج حصن فرنسا والشركة التي تملكها بتونس في شركة واحدة سميت الشركة الملكية الافريقية Compagnie Royale D'Afrique وجعلت مركزها في القالة وأخضعتها لنفوذها.

وفي خلال هذه الفترة اقترح المهندس الفرنسي ريكارد Ricard الذي كان أسيرا لمدة طويلة بالجزائر، أن ترسل فرنسا حملة برية من الفرسان إلى احتلال الجزائر ولكن الملك الفرنسي لويس الخامس عشر (1715 - 1774م) آثر استعمال الوسائل السلمية الديبلوماسية بدلا من وسائل العنف والقوة التي لم تفد أسلافه من قبل.

وفي عام 1791م. تقدم كرسي Kercy قنصل فرنسا بالجزائر بمشروع آخر إلى حكومته، يدعوها فيه إلى ارسال حملة برية إلى الجزائر تنزل بشبه جزيرة سيدي فرج ثم تتقدم لاحتلال المدينة والقضاء على حكومة الداي واقامة حكومة جديدة تستجيب للمصالح الفرنسية وتنسجم معها. واقترح ان تستولي هذه الحملة على كنوز الداي لتكون كتعويض لنفقاتها ومصاريفها. ولكن حكومة الثورة الفرنسية أعرضت عن هذه الفكرة وتمسكت بسياستها السلمية التقليدية بسبب احتياجاتها الملحة الى منتجات شمال افريقيا لتمويل الشعب الفرنسي والقوات المسلحة. وتمشيا مع هذه السياسة أحدثت تغييرا في الأساكل الفرنسية الموجودة في المشرق والمغرب الاسلاميين وألغت غرفة تجارة مرسيليا، وحلت الشركة الملكية الافريقية وأنشأت بدلها وكالة إفريقيا Agence D'Afrique وأخضعتها مباشرة لوزارة الداخلية الفرنسية وبقيت هكذا حتى عام 1830م.

وفي عام 1793م. حصلت على قرض من الجزائر بمبلغ ربع مليون فرنك وألحت على الداي عام 1795م. أن يقرضها ثلاثة ملايين أخرى ولكن الداي سلم لها مليون فرنك فقط ثم تضاعفت هذه الديون بعد

ذلك بالديون التي اقترضتها من التاجرين اليهوديين اللذين يتمتعان بالحماية الجزائرية ويملكان مصالح تجارية هامة وواسعة بالجزائر، وكانا وسيطين في القروض السابقة لأن الداي منحهما احتكار تصدير الحبوب إلى الخارج مقابل اقتسامه معهما الأرباح. وعندما اقترح تاليران في تقريره إلى المجمع العلمي الفرنسي بباريس يوم 3 يوليو عام 1797م، إنشاء مستعمرات جديدة في الشمال الأفريقي وفي الجزائر بالذات تغافلت الحكومة عليه واهتمت فقط بتنفيذ مشروع الحملة على مصر وحرصت على إبقاء علاقات الود مع الجزائر وبقية الشمال الأفريقي حتى تبقيها على الحياد في نزاعها مع بريطانيا إبان الحملة على مصر عام 1798م. ولكن الجزائر ودول المغرب سرعان ما أعلنت عليها الحرب في الفترة من أواخر ديسمبر عام 1798م إلى أوائل مايو عام 1799م. بسبب تلك الحملة وأسرت وطردت القناصل والرعايا الفرنسيين وصادرت ممتلكاتهم.

وفي عام 1800 نجح بونابرت في عقد اتفاقيات هدنة مع دول المغرب، ووقع قنصله ديبوا تانفيل Dubois-Thainville هدنة مع داي الجزائر يوم 19 يوليو من نفس العام، ثم وقعا معا معاهدة صلح يوم 30 سبتمبر من نفس العام كذلك، وتلاها توقيع معاهدتي صلح مع كل من تونس وطرابلس.

وتحت ضغط تركيا اضطرت الجزائر إلى إعلان الحرب على فرنسا في يناير عام 1801م. وقلدتها كل من تونس وطرابلس لنفس السبب دون استعمال وسائل العنف ضد الرعايا والقناصل الفرنسيين. وعندئذ اقترح القنصل ديبوا تانفيل على نابليون إعداد حملة حربية ضد الجزائر ولكن بونابرت رفض أن يفتح جبهة جديدة للحرب وهو ما يزال يعاني من حملة مصر وألعاب الانجليز ضده. وحين انجلى الموقف وبدأت التمهيدات للصلح بين فرنسا وبريطانيا في لندن عام 1801م. تحول اهتمام فرنسا مرة أخرى إلى الجزائر لتكون كتعويض لها عن ضياع مصر، وأعادت تانفيل إلى

الجزائر ووقع مع الداي مصطفى يوم 17 ديسمبر 1801م. معاهدة أعيدت بمقتضاها المؤسسة الفرنسية الافريقية إلى الوجود وأعفيت من الضرائب لمدة عام كامل تعويضا لها عما خسرته أثناء توقفها عن العمل وتم ابرام مثل هذا الصلح مع كل من تونس وطرابلس.

على أن الصلح لم يدم طويلا بين الجزائر وفرنسا لأن الداي مصطفى باشا أخذ يلح على فرنسا أن تسلم له ديونه التي في ذمتها، فحدثت جفوة بين البلدين وتلتها بعد ذلك اشتباكات متبادلة بين سفن الطرفين في البحر الأبيض المتوسط. وحاول بونابرت أن يستعمل لغة التهديد في شيء من التعاظم الزائف وكان ذلك فرصة لأصحاب الأطماع ليظهروا خططهم الرامية إلى احتلال الجزائر. فقدم تيدنا Thédenat كوميسير العلاقات التجارية الفرنسية في سافونا مشروعا إلى تاليران وزير خارجية فرنسا بعنوان لمحة عامة عن نيابة الجزائر Coup d'oeil Sur la Régnce d'Alger لخص فيها حالة الجزائر السياسية والعسكرية والاجتماعية بحكم معرفته لها يوم أن كان أسيرا فيها لعدة سنوات. ثم اقترح ارسال حملة ضدها من خمسين ألف جندي تصادر كنوزها وتحطم أسطولها أو تسلمه، وتخضع الداي إن لم تستطع القضاء عليه نهائيا.

وفي يوليو عام 1802م أرسل نابليون الضابط هولان Hulin إلى الجزائر وحمله انذارا إلى الداي بأن يوقف اعتداءاته على العلم الفرنسي في المتوسط أو أنه سيقود الحملة ضده بنفسه. ثم في يوم 16 سبتمبر من نفس العام وجه إلى الداي رسالة أخرى شديدة اللهجة استنكر فيها مطالبة بعض وزرائه بتسديد الديون وطالب بتقديم الترضية اللازمة والا سيبعث حملة انتقامية من ثمانين ألف جندي للقضاء عليه وعلى نظامه وحكومته. ويظهر أن هذا التهديد كان له بعض الأثر في نفس الداي وحكومته ولهذا حصل هولان على الترضية وانصرف بونابرت إلى الاهتمام بمنطقة الليفانت (الشرق الأوسط) والصراع ضد خصومه الانجليز والروس والنمساويين، وتحت

العلاقات من جديد بين فرنسا والجزائر أواخر عهد القنصلية وأوائل عهد الامبراطورية وتأسست في مرسيليا عام 1802 جمعية دواخل افريقيا Comité de l'Afrique intérieur découvertes من أجل الاستكشاف والتوسع في دواخل القارة الافريقية أسوة بالجمعيات التي تأسست قبلها بلندن.

وكان ممكنا أن تستمر العلاقات طيبة لو أن الفرنسيين أرادوا ذلك ولكنهم في الحقيقة كانوا يحاولون باستمرار خلق الأسباب التي تبرر لهم العدوان، واغتنموا هذه المرة تعرض القاطنة الجزائريين لبعض السفن الإيطالية التي أصبح من اختصاصهم حمايتها هي والرعايا الايطاليين بعد احتلالهم لايطاليا فأرسل بونابرت حملة كبيرة عام 1805 إلى الجزائر بقيادة أخيه جيروم ومعه أوامر بحمل الداي على اطلاق سراح الأسرى الايطاليين أو تسحب فرنسا قنصلها ورعاياها ليباشر حالا رمي المدينة بالقنابل، فتجنب الداي الصدام وأطلق سراح 230 أسيرا ايطاليا وجدد عقد الصلح والامتيازات السابقة. ولكن الجزائريين سرعان ما عادوا إلى مهاجمة السفن والرعايا الفرنسيين بعد انهزام الأسطول الفرنسي في معركة الطرف الأغر، وكان ذلك سببا في حصول تقارب بين الجزائر وبريطانيا وتم اتفاق بينهما عام 1807م حصلت بريطانيا بموجبه على تسلم مركز القالة الفرنسي واستغلاله لمدة عشر سنوات وتسلمت الجزائر منها مبلغ عشرة آلاف جنيه. ولكن الامبراطور بونابرت جدد تهديده للجزائر بعد أن طرد أسرة البوربون من اسبانيا ونصب أخاه جوزيف على عرشها وأخذ يفكر بجد في انشاء قاعدة بحرية على سواحل الجزائر ليوازن بها قواعد الانجليز بجبل طارق ومالطة، وأشار عليه وزيره للحربية أن يرسل مبعوثا خاصا إلى الجزائر ليدرس عن طبيعة أحوالها الطوبوغرافية والاجتماعية، فارتاح للفكرة واختار الضابط المهندس بوتان Boutin الذي كان قد شارك مع سيباستياني البريطاني في تحصين الدردنيل ضد حملة دكورث عام 1807م، ووجهه إلى الجزائر لنفس المهمة. كما بعث إلى مراكش الضابط بوريل: Burel لنفس الغرض.

ومكث بوتان في الجزائر من 24 ماي إلى 17 يوليو عام 1808 وجمع مزيدا من المعلومات ووضع كثيرا من اللوحات والخرائط العسكرية وفي طريق عودته أسرته سفينة بريطانية وذهبت به إلى مالطة ولكن أفلت ... إلى أزمير فالقسطنطينية فباريس حيث أعاد كتابة تقريره وأرفقه بأطلس جغرافي من حوالي 15 لوحة وخريطة. واقترح فيه أن تذهب حملة ... من أربعين ألف جندي تنزل في شبه جزيرة سيدي فرج. ولم يطلع ... على تقريره هذا إلا بعد حوالي ثلاثة شهور لانشغاله بالحملة الإسبانية والأحداث الخطيرة التي كانت تجري في أوربا بشأن الجزائر نفسها.

وفي عام 1809م قدم ديبوا تانفيل مرة أخرى تقريرا إلى حكومته حث فيه على ضرورة إرسال حملة عسكرية إلى الجزائر واقترح أن ترسل ... مزارعين فرنسيين إليها لانشاء مستعمرات فرنسية.

وفي 16 أفريل عام 1810م قدم بوريل إلى وزير الحربية الفرنسية تقريره الذي وضعه عن رحلته إلى مراكش بعنوان: مذكرة عسكرية عن امبراطورية المغرب Mémoire Militaire Sur l'Empire de Maroc ولكن الظروف كلها في هذا الوقت كانت في غير صالح فرنسا فبقيت تنتظر حتى توقفت الحروب الأوروبية، وتم الصلح مع بريطانيا وأخذت حينئذ تظهر في الأفق مشاريع دولية لمحاولة تدويل قضية الجزائر والمغرب خاصة في مؤتمري فينا 1814 وايكس لاشابل 1818م.

ففي أواسط عام 1814م اجتمع عدد من الساسة الأوروبيين في مؤتمر عام لأول مرة بمدينة فينا، وطرحت أمامهم عدة مشاكل منها ما سموه بالقرصنة المغربية، ومسألة تجارة الرقيق، وتحرير المسيحيين الموجودين بالجزائر وبقية بلدان المغرب، ومطلب فرسان القديس يوحنا بإعادة جزيرة مالطة إليهم أو منحهم أي مكان آخر في البحر المتوسط يكون مقرا لجميع الشعوب المسيحية، ومركزا للتسليح والتموين تشن منه طائفتهم الغارات المتوالية لتحطيم قراصنة المسلمين وخاصة من أهالي شمال إفريقيا والجزائر بالذات.

ولما كان الأميرال الانجليزي سيدني سميث ذا صلة وخبرة بالبحر الأبيض المتوسط إبان الحروب النابليونية لأنه شارك في عمليات الحصار البحري ضد نابليون في مصر وعكا، فقد أبدى اهتماما خاصا بالمشكلة وقدم إلى المؤتمر في شهر أغسطس عام 1814م. مذكرة خاصة بمشكلة الجزائر ودول المغربية الأخرى طالب فيها بضرورة قيام أوروبا بعمل جماعي ضد دول المغرب لتحطيم قواتها البحرية وتغيير حكوماتها الحالية بحكومات أخرى ترعى المبادىء المتبعة بين دول أوروبا. وحتى يزيل شكوك الباب العالي حسب زعمه، أعلن أن هذا العمل لا يمس سيادته ولا يعد اعتداء عليه، بل على العكس سيعمل هذا الاجراء على تأكيد سيادة السلطان العثماني على تلك البلاد، خاصة وأن داي الجزائر كثير الاعتداء على تونس وطرابلس مما يؤكد عدم اعترافه بسيادة السلطان عليها. وبهذا الاعتبار اقترح سيدني سميث على هيئة مؤتمر الدول المتحالفة التي انتصرت على فرنسا أن تدعو السلطان ليتعاون معها ويوقف كل إمداداته لداي الجزائر ويسحب منها الحامية الانكشارية ويمنع رعاياه من الانخراط في قواتها البحرية والبرية، ويملي إرادته على باي تونس الذي هو أكثر استعدادا للخضوع والامتثال من داي الجزائر. وقد عاب سيدني سميث على دول أوروبا التي تدفع الاتاوات لهم، وأكد أن فرسان مالطة لا يستطيعون بمفردهم ووسائلهم الخاصة أن يقوموا في وجه الجزائر ودول المغرب واقترح على دول المؤتمر أن تؤلف قوة حربية مشتركة وأبدى رغبته في أن يكون قائدها.

وكان من رأي جول بولينياك Jules Polignac أن إشراك فرنسا في مثل هذه العمليات الحربية سينسي الفرنسيين أحزابهم القومية ويرضي حاجتهم للنشاط العسكري وهذا قدم إلى المؤتمر مذكرة خاصة يوم 19 سبتمبر 1814م. ذكر فيها أن هذا العمل العسكري سيكون متنفسا لأسلحة فرنسا وحماستها الحربية. ومع كل هذا فقد التقت آراء كل من فرنسا وإنجلترا على رفض مشروع سميث مع اختلافهما في الأسباب والأهداف. ويبدو أن بريطانيا عارضت وجهة نظر مندوبها سميث في البداية.

أما فرنسا فإنها كانت ترى في تنفيذه تحقيقا لتفوق الانجليز في البحر المتوسط، وهي ما تزال تعاني ضعفا سياسيا وعسكريا في الحروب النابليونية، وما تزال بعض أراضيها محتلة من طرف القوات والانجليزية والنمساوية تحت قيادة الدوق ويلنجتين، وهذا يعني أنها في مركز ثانوي داخل هذه العصبة المقترحة.

وأما بريطانيا فقد جاء على لسان وزير خارجيتها كاسلرية أنها تفضل بقاء نيابات المغرب قائمة حتى لا تتعرض تلك البلاد للفوضى التي لفرنسا اخضاعها بدون صعوبة. وهذا اكتفى المؤتمر في معاهدته النهائية التي أعلنت يوم 9 يونيو 1815م. بالتأكيد على تحريم القرصنة والاسترقاق في الجزائر أصلا، وفي تونس وطرابلس بالتبعية، وضرورة القضاء عليهما كلية في بقاع العالم الأخرى.

وفي شهر أغسطس من نفس العام عينت فرنسا بيير دوفال Pierre Duvale قنصلا لها بالجزائر وبعثت معه الهدايا التقليدية للداي، وأعلن عن استعداده لتصفية ديون باكري. وفجأة وعلى غير انتظار غيرت بريطانيا موقفها السابق، وأصبحت تسعى لتبني مشروع سميث وتنفيذ فكرة التدخل ضد الجزائر باسم أوروبا والمسيحية. والسبب في ذلك هو ظهور تفوقها واكتسابها مركزا جديدا في المتوسط بعد أن سيطرت على الجزر الأيونية وأقر المؤتمر السابق سيطرتها على مالطة. واغتنمت فرصة نشاط الرئيس حميدو ضد نفس حليفتيها اسبانيا والبرتغال، وتعرض احدى سفنها للأسر فأسرعت بإرسال حملة حربية كبيرة ضد الجزائر أسندت قيادتها إلى اللورد إكسموث Lord Exmouth قائد قواتها في البحر الأبيض المتوسط، وذلك في ابريل عام 1816م. وعندما وصل إلى جبل طارق انضم إليه أسطول هولندي صغير. وفي الجزائر تجنب الداي عمر باشا (1815 — 1817م) الصدام وأبدى استعدادا طيبا ووقع معه اتفاقا تعهد فيه باطلاق سراح أسرى الجزر الأيونية وسردينيا ونابولي، مقابل دفع فدية مالية عن كل أسير

وإطلاق سراح الأسرى الجزائريين. وبعدئذ راح إكس موث إلى تونس وطرابلس وحصل فيهما على مثل ما حصل عليه بالجزائر ولكن الحكومة البريطانية لم تقتنع بمحتوى هذه الاتفاقات فأعادت أكس موث مرة ثانية إلى الجزائر في أغسطس من نفس العام وقدم إلى الداي مذكرة ثانية يوم 29 من نفس الشهر وطلب منه فيها أن يمضي تعهدا بإطلاق سراح جميع الأسرى الأوروبيين فورا وإعادة كل المبالغ المالية التي دفعها له في الحملة السابقة لافتداء الأسرى، ووضع حد نهائي للكف عن القرصنة والاسترقاق، ومعاملة الأسرى معاملة حسنة، وأخذ فدية معتدلة عنهم، ولما لم يرضخ الداي لهذه المطالب اشتبك ضد قواته وأحدث فزعا في المدينة فهاج الناس وأرغموا الداي على امضاء اتفاق يوم 31 من نفس الشهر نص على اجابة المطالب السابقة ودفع تعويض خاص، والاعتذار للقنصل الانجليزي الذي اعتقل أثناء تلك الحوادث وطرد من الجزائر. ولم يصادف هذا الاتفاق استحسان الجند وطبقة الرياس فانقلبوا على الداي عمر وقتلوه وعينوا مكانه الداي حسين (1818 — 1830م) وفي خلال أحداث سبقت حيث بعثت أصوات أخرى في فرنسا تدعو من جديد إلى الاهتمام بالجزائر وشمالي إفريقيا. وقدم الرحالة دومنجو باديا Domingo Badia الذي يعرف باسم علي بك العباسي، مذكرة أخرى إلى الدوق روشيلو وزير خارجية فرنسا حث فيها على بذل المزيد من الاهتمام ببلاد المغرب التي قام فيها برحلة طويلة وخبر أحوالها، وعرض نفسه ليكون في خدمة هذا المشروع.

وطالب شاتوبريان في البرلمان الفرنسي، وهو أحد أعضائه، بالعمل على القضاء على دول المغرب وحمل لواء الحروب الصليبية ضدها إذا لم تنجح المفاوضات الدولية التي يقترحها. أما بريطانيا فبعد أن أنفذت اللورد اكس موث في مهمته نشطت في السعي لتحقيق فكرة إنشاء عصبة حربية من دول أوروبا البحرية ترغم دول المغرب على احترام القانون ووضع حد للقرصنة، واقترحت أن ترابط القوات المتحالفة في مياه البحر المتوسط والأطلسي وتوضع تحت إشراف مجلس أوروبي على غرار المجلس الذي يشرف

على قوات الاحتلال التي ترابط بفرنسا، وتكون مدة بقاء هذا الحلف سنوات، وهي فترة كافية لأداء مهمته والقضاء على كل المشاكل التي تشكو منها أوروبا. وقدم كاسلري هذه المقترحات إلى ممثلي الدول الذين اجتمعوا في شبه مؤتمر بلندن أواخر عام 1816م. فاعترضت فرنسا عليها، وأوضح روشيلو في رسالته التي وجهها إلى كاسلري أن دول المغرب تحترم العلم الفرنسي وأن انهيارها سيؤدي إلى الحاق الأضرار بالتجارة الفرنسية في المشرق.

واعترضت روسيا كذلك عليها لأنها تنظر إلى بريطانيا كمنافس خطير لنفوذها في الولايات العثمانية، واقترح القيصر اسكندر الأول في رسالته إلى المؤتمر بأن تسعى الدول لدى الباب العالي لتسأله عما إذا كان على استعداد لإرغام دول المغرب على احترام الاعلام الأوروبية فيكفي بذلك أوروبا من عناء التدخل، وإذا لم يفلح هذا المسعى تقوم الدول المعنية بتأليف قوة مشتركة تحل حلفا تنتهي من عملها كما تحل التحالف معها كذلك.

ولم تتحمس النمسا للفكرة لأن لها روابط ودية مع الباب العالي كفيلة في نظرها أن تحول دون اعتداءات دول المغرب على سفنها ومراكبها، ووجدت أسبانيا للموضوع مسوغة عندما اقترحت أن يربط المؤتمر بين موضوع القرصنة ومشكلة ثوار مستعمراتها الأمريكية التي تؤيد بريطانيا استقلالها وانفصالها. وحتى يبعد روشيلو بريطانيا عن الميدان ويحبط مقترحاتها، أعلن أن نيابات المغرب ولايات عثمانية لا تملك حق اعلان الحرب أو عقد السلم، ويكفي دول أوروبا أن تتفق على مبدأ حق تفتيش سفنها، واحتجاز المسلحة منها، وتقوم بهذه المهمة (البوليسية) الدول التي لها شواطيء على البحر الأبيض المتوسط.

ولما عجز المجتمعون عن الوصول إلى نتيجة بسبب تعارض آرائهم توقف المؤتمر لعدة شهور حتى يتاح لكل دولة أن تدرس وتفكر، ثم التأم

مؤتمر من جديد أواخر عام 1817م، وعاد الصراع والخلاف إلى ما كان عليه وتمسكت كل دولة بآرائها السابقة، واتفق المؤتمرون حينئذ على عقد مؤتمر جديد في ايكس لاشابيل أواخر عام 1818م، وإحالة المشكلة إليه ليحلها ويناقشها من جديد.

ولما اجتمع هذا المؤتمر في إيكس لاشابيل في موعده المحدد يوم 30 سبتمبر 1818م، كانت كل الدول تقريبا ما تزال عند مواقفها وآرائها السابقة، فالنمسا ترى أن يعاد تأسيس منظمة فرسان القديس يوحنا في جزيرة ليسا Lissa أو ألبا Alba، ويعهد إليها باعتبارها قوة دولية طرد الأتراك من الجزائر على اعتبار أنهم هم الذين يقومون بأعمال القرصنة وعادت بريطانيا إلى عرض مشروعها السابق.

أما فرنسا فكانت تسعى إلى العودة لاحتلال مقعدها ومكانتها بين الدول الكبرى التي حققت الانتصار عليها مثل إنجلترا وروسيا، والسبيل إلى ذلك هو تحويل التحالف الرباعي بين بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا، إلى حلف خماسي تكون هي العضو الخامس فيه. وكان من رأيها هذه المرة أن يكون حلف أوروبي للقضاء على القرصنة، على أن تستخدم كل دولة قوتها على حدة وتحدد منذ البداية عدد السفن التي تستخدمها لهذا الغرض، ويخطر الباب العالي مقدما بكل هذه الاجراءات باعتباره صاحب السلطة الشرعية على هذه البلاد وتقوم سفن الدول المتحالفة بمحاصرة الموانىء التي تخرج منها سفن القراصنة. ولعل مما زاد الأمور تعقيدا وتشعبا هو رغبة روسيا في الاشتراك في هذه القوة الأوروبية الرادعة، ومحاولة كل من فرنسا وبريطانيا إبعادها عن حوض البحر الأبيض المتوسط ومشاكله. وهكذا فشل هذا المؤتمر أيضا في إيجاد حل حاسم للمشكلة واكتفى في بروتوكوله الذي أصدره يوم عشرين نوفمبر عام 1818م، بالتنصيص على ضرورة وضع حد للأضرار التي يلحقها قراصنة الجزائر ودول المغرب الأخرى بالتجارة الأوروبية، وعلى تكليف فرنسا وبريطانيا بإبلاغ الجزائر إنذار من طرف

المؤتمر يوقف أعمال القرصنة والاسترقاق، وإلا فإنه سيؤلف حلفا أوروبيا عاما يقضي لربما على كيانها تماما في الوقت المناسب. كما أوصى المؤتمر أن يقوم ممثلو الدول الأوروبية الخمس الكبرى في القسطنطينية بإبلاغ السلطان مداولات المؤتمر وقراراته النهائية. ولكن الباب العالي استشعر من تلك المداولات والمناقشات وجود نزعة صليبية، وتضامن مسيحي ضد الولايات الاسلامية. ولهذا أعلن الريس أفندي وزير خارجيته بأن الدولة العثمانية لا يمكن لها أن تلتزم بنتائج مؤتمر لم تدع إليه ولم تمثل فيه كما أنها لا يمكن لها أن تنحاز إلى أحد لتحارب إخوانا لها في الدين. أما في الجزائر فقد عينت فرنسا الأميرال جوريان Jurien مندوبا عنها، وعينت بريطانيا السير توماس فريمانتل Fremantle قائد قواتها في المتوسط مندوبا عنها كذلك، وظهرا بقواتهما أمام الجزائر يوم 5 سبتمبر عام 1819م وعقدا اجتماعين التي مع الداي حسين أبلغاه فيهما قرار المؤتمر وطلبا إليه أن يتعهد كتابة بإلغاء نظام الرق بالجزائر، ويتخلى عن حقه في تفتيش السفن الأجنبية وعدم مصادرتها بحجة عدم استيفائها للأوراق والعقود اللازمة، وأبلغاه بأنه إذا بدأ رجاله لإقامة علاقات طيبة مع الجزائر إذا غيرت من نظمها غير الملائمة للعصر وتخلت عما تشكو منه. ولكن الداي حسين شعر أن هذه الشروط يقصد بها إذلال الجزائر والمس من كرامتها زيادة عن كونها تحد من سيادتها، ولهذا أعلن رفضه لها، ولم يكن لدى المندوبين إذن باحتلال الجزائر أو تدميرها فرحلا إلى تونس وفشلا مرة أخرى في مهمتهما ولكنهما وفقا لدى باشا طرابلس الذي أعلن لهما أن رعاياه تركوا القرصنة منذ مدة طويلة.

وحدث بعد هذا أن ظهرت الشكوك بين فرنسا وبريطانيا حول مقررات إكس لاشابل وانعدمت الثقة بينهما خاصة فرنسا التي ما تزال تعاني من الشعور بعقد النقص، وتشاجر الداي حسين مع القنصل الانجليزي ماكدونال Macdonnel بسبب اقتحام بعض الجزائريين مركز قنصليته بحثا عن بعض المتمردين، فاحتج القنصل على هذا العمل ورحل إلى بريطانيا

وحث حكومته على إرسال حملة تأديب ضد الجزائر فأرسلت قوة بحرية بقيادة السير هاري نيل Neal وحملته مشروع معاهدة تتضمن حفظ حقوق الرعايا الانجليز وإعطاء الأسبقية لقنصل بريطانيا، ولم يقبل الداي هذه الشروط فأخذ نيل بقذف المدينة طيلة يومي 11 و 12 يوليو عام 1824م. ولكن حتى هذا العمل لم يحول الداي عن رأيه فاضطر نيل إلى إيقاف القذف وتنازل عن مطالبه السابقة ورضي بتجديد اتفاق عام 1816م. بشأن إطلاق سراح الأسرى المسيحيين فقبل الداي هذا ووقع بل بنفسه هذا الاتفاق، لأن الداي رفض أن ينزل ماكدونال إلى البر ويعود إلى منصبه بسبب موقفه السابق.

وبفشل حملة نيل فشلت كل محاولات أوروبا لتدويل القضية الجزائرية وعادت كل دولة إلى معالجة شؤونها بنفسها مباشرة مع الجزائر، وعادت العلاقات الجزائرية إلى سابق عهدها وأصبح الداي يشعر أكثر من ذي قبل بقوة ومناعة حصونه وموانيه. وخلا الجو لفرنسا لكي تسوي مشاكلها مع الجزائر بطرقها الخاصة التي كانت تفكر فيها وتسعى في تحقيقها منذ أمد طويل، وساعدها الحظ باختفاء كثير من الذكريات النابوليونية التي كانت تقلق أوروبا.

ولعل من الأنسب قبل أن ننتقل الى الحديث عن الأزمة الجزائرية الفرنسية أن نثبت فيما يلي عددا من المعاهدات والاتفاقات التي أبرمتها فرنسا مع الجزائر ما بين 21 مارس 1619م، و 5 يوليو عام 1830م، وهي حوالي سبع وخمسون معاهدة تولي رعاية مصالح فرنسا بالجزائر خلافا حوالي ستة وتسعين قنصلا ومبعوثا دبلوماسيا. وهذه بعض تلك المعاهدات:

1 — معاهدة صلح وتجارة وامتيازات افريقية 21 مارس 1619م.
2 — صلح وتجارة 19 سبتمبر 1628م.
3 — امتيازات افريقية 23 سبتمبر 1628م.

29 ـ تجديد امتيازات الإفريقية 6 يونيو 1731م.

30 ـ امتيازات الإفريقية 23 يونيو 1731م.

31 ـ امتيازات الإفريقية 10 يونيو 1732م.

32 ـ تجديد امتيازات الإفريقية 6 سبتمبر 1732م.

33 ـ تجديد امتيازات إفريقية 15 ديسمبر 1743م.

34 ـ تجديد امتيازات الإفريقية 2 نوفمبر 1745م.

35 ـ تجديد امتيازات الإفريقية 18 فبراير 1748م.

36 ـ تجديد امتيازات الإفريقية 29 ديسمبر 1754م.

37 ـ صلح وتجارة 16 يناير 1764م.

38 ـ امتيازات الإفريقية 23 مايو 1767م.

39 ـ تجديد امتيازات إفريقية 10 يونيو 1768م.

40 ـ تجديد وصلح وتجارة وامتيازات 23 مارس 1790م.

41 ـ امتيازات الإفريقية 23 يونيو 1790م.

42 ـ تجديد وصلح وتجارة وامتيازات 1 يوليو 1791م.

43 ـ تجديد امتيازات وقرض بمبلغ ربع مليون فرنك 20 مايو 1793م.

44 ـ معاهدة قرض إلى فرنسا بمبلغ مليون فرنك 1795م.

45 ـ هدنة غير محدودة الأجل 19 يوليو 1800م.

46 ـ صلح وتجارة 30 سبتمبر 1800م.

47 ـ صلح وتجارة 17 ديسمبر 1801م.

48 ـ تجديد صلح وتجارة وامتيازات 26 ديسمبر 1805م.

49 ـ تجديد امتيازات الإفريقية 8 نوفمبر 1808.

50 ـ تجديد صلح وتجارة 11 يوليو 1814م.

51 ـ تجديد صلح وتجارة 30 مارس 1815م.

52 — تجديد صلح وتجارة 16 أفريل 1815م.

53 — امتيازات افريقية 11 مارس 1817م.

54 — امتيازات افريقية 26 أكتوبر 1817م.

55 — تجديد صلح وتجارة 29 مارس 1819م.

56 — تجديد صلح وقروض جزائرية إلى فرنسا 23 ديسمبر 1819م.

57 — امتيازات افريقية 24 يوليو 1820م.

الأزمة الجزائرية الفرنسية وحادث المروحة

1825 — 1830م

لقد كانت المراكز التي أقامتها فرنسا في القالة من أهم العوامل التي كانت تجر دوما القلق والاضطراب وتعكر صفو العلاقات الجزائرية الفرنسية، وتتسبب في كثير من الحروب التي حصلت بين فرنسا والجزائر. ورغم أن الجزائر تصر حسب العقود المبرمة بين الطرفين، على عدم تحصين هذه المراكز وتسليحها، حتى لا تحمل مظهر الاحتلال لجزء من أرضها، [illegible] فيما حصل بعد من الحروب والاضطرابات، كما تصر على أن [illegible] مقابل السماح لإقامتها. أما فرنسا فبعد أن تمكنت من إقامة مراكزها وتثبيتها تنكرت لهذه الشروط واتخذت من تلك المراكز وكرا للتخريب الموجه ضد سلامة البلاد وأهلها ونظامها، كما اتخذت مما [illegible] عدادات سواحل الجزائر على سفنها ومراكبها ذريعة لسلوك سياسة [illegible] تجاه حكومات المتتالية في الجزائر، وطغت على أخلاقيتها أحقاد [illegible] الديني الصليبي التي كافح من أجل تحقيقها كثير من أمرائها [illegible] في الشرق، ولكنهم عادوا من هناك وأيديهم في الرغام. ثم كان تهرب [illegible] من أداء ما عليها من الديون التي اقترضتها من الجزائر إما مباشرة وإما بواسطة التاجرين اليهوديين يوسف يعقوب كوهين، وميشيل بوزناك (بوشناق)، سببا في وضع حد لسياسة التفاهم بين البلدين وفاتحة لأزمة [illegible] بدأت بحادث المروحة وانتهت بحملة الاحتلال عام 1830م.

** وقصة الديون الجزائرية على فرنسا تعود إلى عهد قيام الثورة الفرنسية 1789م حينما أصيبت فرنسا بانهيار اقتصادي ومجاعة قاسية نتيجة

لما صحب الثورة من قسوة واضطهاد في الداخل ضد الطبقات الإقطاعية ورؤوس الأموال، وللحصار الاقتصادي والعسكري اللذين فرضتها عليها الدول الأوروبية المعادية للثورة. ولذلك درس المجلس الوطني الفرنسي الوضع وقرر في يوم 14 مارس عام 1792م تخصيص عشرة ملايين فرنك لشراء الحبوب والقموح من الخارج، وكلفت وزارة الخارجية الفرنسية قنصلها العام بالجزائر السيد فاليار Valiar أن يسعى لشراء أكبر كمية ممكنة من قموح الجزائر على وجه السرعة لسد حاجيات الشعب والعجز التجاري معا. وعرض القنصل الأمر على الداي حسين باشا الذي وضع تحت تصرفه المحصول المتوفر من الحبوب وأقرضه ربع مليون فرنك دون فائدة حتى يتمكن من شراء كميات أخرى على وجه السرعة، وتمكن من جمع كميات كبيرة من الحبوب وأسست حكومة بونابرت خطا ملاحيا خاصا لنقلها. وكان يوسف يعقوب كوهين اليهودي الأصل، والجزائري النشأة والجنسية، قد استقر بمدينة ليفورنو الإيطالية وأسس هناك محلا تجاريا وغير اسمه إلى باكري وأخذ يشتري من البحارة الجزائريين البضائع التي يغنمونها في حروبهم ويتجر بها. وفي حوالي عام 1770م عاد إلى الجزائر برأس مال ضخم، وحينما احتاجت فرنسا إلى المواد الغذائية تدخل مع الدايات وأصبح وسيطا بين فرنسا والجزائر يشتري القمح من الداي بأثمان رخيصة نتيجة لاحتياج الداي إليه عند الحاجة ليسلفه الأموال اللازمة ويبيعها إلى فرنسا بأسعار عالية لحاجتها الشديدة إليها واضطرارها لدفع أثمانها على آجال طويلة.

وفي عام 1795م كان لباكري بميناء مرسيليا أربعون ألف قنطار من القمح عجزت فرنسا عن تسديد أثمانها وامتنع هو عن تسليمها لها مدة وحاولت بريطانيا أن تشتريها منه فرفض، وأخيرا رضي أن يسلمها لفرنسا فعقدت قرضا ماليا مع حسن باشا بمبلغ مليون فرنك دون فائدة لمدة عامين ثم تسلمت منه بضائع بمبلغ 300 ألف فرنك.

ولما آلت أمور الجزائر إلى مصطفى باشا (1798 — 1805م) حفيد حسن طالب فرنسا بتسديد الديون السابقة فسلمت له ربع مليون

فرنك وبقي المليون الآخر اعتذرت عن تسديده بسبب ما تعانيه من العجز المالي. كذلك طالب باكري بديونه وكلف نائبه بباريس أبا قايا أن يلح في الطلب. ولكن فرنسا ماطلت وأبدت رغبتها في التأجيل إلى غير أجل فتدخل الداي في الموضع واتفق الطرفان على أن تدفع فرنسا إلى باكري ديونها كلها وهي (2,279,455) فرنك نقدا أو خمسون ألف ليرة كل أسبوع حتى تنتهي. ولكن قيام حملة بونابرت على مصر عام 1798م. حالت دون تصفية الحساب لأن الحملة بحاجة إلى المال، والجزائر قد أعلنت الحرب على فرنسا تضامنا مع تركيا. ولما عادت العلاقات إلى مجراها الطبيعي بين البلدين في يوليو عام 1800م. عادت المفاوضات من جديد، واتفق الداي مصطفى وباكري على ضرورة تصفية الديون مع فرنسا، ولكن الأخيرة ادعت أن القموح التي تسلمتها كانت رديئة على خلاف المواصفات المتفق عليها، وجمدت المشكلة وماطل تاليران وزير الخارجية الفرنسي كثيرا ثم شكل لجنة خفضت الديون من 24 مليون فرنك إلى سبعة ملايين. وقبل الداي هذا القرار على أمل أن تتشجع فرنسا، ولكنها ماطلت حتى تولي حسين باشا منصب الداي فعاد من جديد للمطالبة بديون الجزائر وتوصل إلى امضاء اتفاقية يوم 18 أكتوبر 1819م. نصت على أن تدفع هذه الديون على اثني عشرة مرحلة ابتداء من عام 1820م. ولكن البرلمان الفرنسي قرر عندما عرضت عليه الاتفاقية أن يفرج عن مليون ونصف مليون التي هي مستحقة للوسيطين اليهوديين يعقوب باكري وبوشاق، ويحتفظ بالباقي للاستئمان على أموال تجار مرسيليا الذين لهم ديون على باكري ونائبه فاعتبر الداي هذا العمل اهانة للجزائر واهمالا لمصالحه وحقوقه وطالب بدفع باقي الديون، وذكر بأن على التجار أن يسوّوا مشاكلهم فيما بينهم. فاشتد الخلاف، ورفعت فرنسا الأمر إلى مجلس التجارة الفرنسي بباريس، واحتج الداي على ذلك واعترض أن تفصل محكمة فرنسية بينه وبين اثنين من اليهود يعتبران من رعاياه. وطالب أن تحال القضية إلى مجلس التجارة بالجزائر فزاد ذلك في تعقيد الأمور وجمدت

المشكلة وغادر باكري الجزائر إلى ليفورن بإيطاليا ليختفي عن الأنظار بعد قبض مبلغه، وتحصل بوشناق على الجنسية الفرنسية ليكسب عطف ومو... الفرنسيين، واتخذ باريس وطنا له ولم يعد بعد ذلك إلى الجزائر.

ونتيجة لهذه الأحداث استدعي الداي أسرة باكري إليه وحصل منها على اعتراف بحق الخزينة الجزائرية في تلك الأموال المحتجزة، واقترح مشروعا وسط يقضي بأن تدفع له فرنسا الأموال المحتجزة ويتعهد هو بتسوية مشكلة الدائنين وبعث رسالة بهذه المقترحات إلى الملك الفرنسي في أغسطس عام 1826م، وبقي ينتظر الجواب دون جدوى. ولما كان القنصل بيير دوفال شديد المكر والخبث، ويعرف الداي وكل القناصل الأجانب المعتمدين بالجزائر ذلك عنه، وحتى غرفة تجارة مرسيليا فقدت ثقتها فيه، لهذه الأسباب كلها اعتقد الداي وتأكد لديه أنه هو السبب في خلق كل المتاعب والمشاكل بينه وبين حكومته فطالب في رسالة وجهها إلى باريس أن يسحب ويعوض بآخر يكون أقدر وأحرص بخدمة صالح البلدين. وبدل أن يجيبه دو داماس De Damas وزير الخارجية الفرنسي على هذا المشكل ومسألة الديون، أغفل كل ذلك واهتم فقط في الرسالة التي بعثها إليه في فبراير عام 1827م. بمشكلة حادث أسر السفن البابوية التي اشتبكت مع القوات الجزائرية ووقعت في قبضة الجزائريين، وتعلل بالنسبة للمشاكل الأخرى التي هي مثار النزاع والخلاف، بتعقد الاجراءات القانونية الفرنسية. والحقيقة أن فرنسا كانت تبيت العدوان ولهذا وجه دو داماس مذكرة إلى الملك الفرنسي بتاريخ 11 أفريل 1827م. اقترح عليه فيها ارسال أربع سفن حربية لحصار الموانيء الجزائرية، وأرسل إلى دوفال في الجزائر خطابا أخطره فيه بأن المفاوضات مع الداي وحكومته لا تجدي وأن فرنسا بصدد اعداد حملة حربية في ميناءي بريست وطولون، وأن قائد الحملة سيزود بتعليمات نهائية وبرسالة تهديد إلى الداي بأن يقدم فورا ترضية كافية عن مشكلة ما أسماه الاعتداء على سفن البابا التي تشملها حماية فرنسا ورعايتها، والا فان فرنساتقطع العلاقات معه وتشرع في استعمال القوة والعنف. ثم طلب داماس من دوفال أن يتخذ الاحتياطات اللازمة لسلامته وسلامة الرعايا الفرنسيين في كل من الجزائر وعنابة.

وبينما الأمور تسير على هذا المنوال حصل في الجزائر حادث المروحة الذي عصفت به علاقات الود بين الجزائر وفرنسا، وكان ذلك آخر مظهر لتردد فرنسا في تفضيل استعمال القوة ضد الجزائر. ففي صباح يوم 27 أفريل عام 1827م وبمناسبة حلول عيد الفطر لعام 1243هـ. ذهب دوفال حسب العادة المتبعة لتقديم التهاني للداي، وفي اللقاء الذي حصل بينهما سأله الداي عما إذا كان صحيحا ما يشاع عن حصول حرب بين انجلترا وفرنسا، ثم سأله لماذا لا يجيب وزير الخارجية الفرنسي على رسائله المتعددة في موضوع الديون، ولماذا لا يكتب له مباشرة، ألأنه شخص تافه؟ أم أنه رجل حافي القدمين؟ وبدل أن يحاول دوفال إعطاء الجواب بلباقة، وتبرير ذلك بأي شيء ممكن، تصرف وكأنه ملك في حضرته وزير أو حاجب، وقال له بكل وقاحة: إن حكومتي لن تكتب إليك أبدا، إن الوزير، أو الملك لا يتنازل ليكتب وليجيب من هو دونه بدون واسطة. فغضب الداي من هذا الكلام وذلك التصرف الأحمق، وكانت بيده مروحة فأشار بها إلى دوفال بقوله: أخرج يا كافر، يا ملعون، فلمسته المروحة في طرف من وجنته.

ولا شك أن دوفال عندما تصرف هذا التصرف العجيب كان ينتظر بين حين وآخر وصول الحملة البحرية التي أخطره بها داماس في طالع الشهر نفسه، مما يؤكد وجود فكرة التواطؤ بين تصرفه، ورغبة حكومته في أن يثير ما أمكن من المشاكل ليبرر أعمال الحملة القادمة. ويمكن القول أيضا أن داماس كان شديد الرغبة في استعمال القوة ضد الجزائر، وتحاشي كل ما يمكن أن يؤدي إلى غير ذلك. ولهذا بعث إلى دوفال أن يوقف أعماله واتصالاته بالداي وحكومته، ويترك الأمر لقائد الحملة الذي سيأتي لينال الترضية خلال أربع وعشرين ساعة أو يستعمل القوة للانتقام لكرامة فرنسا التي أهينت حسب زعمه في شخص دوفال.

ولقد حرصت فرنسا على استغلال حادث المروحة إلى أقصى حد ممكن وسعت إلى كسب عطف دولي لما سوف تتخذه من إجراءات. فاستدعت سفراء

الدول الأجنبية وأخطرتهم بالاهانة «المزعومة» التي لحقت ما أتى [illegible]
الملك» وطلبت إليهم أن يبلغوا حكوماتهم أنها إذا لم تتلق من الداي [illegible]
الكافية خلال 24 ساعة فإن قواتها ستفرض الحصار على الجزائر [illegible]

وبعد أن انتهت من هذه الاجراءات الديبلوماسية شرعت في [illegible]
خطتها العسكرية ووجهت مجموعة من سفنها الحربية بقيادة الضابط كولي[illegible]
Collette وصل بها إلى ساحل مدينة الجزائر يوم 12 يوليو 1827
وحملته رسالة بوجهة نظرها وشروطها ليسلمها إلى الداي وتتلخص [illegible]
فيما يلي:

1 — أن يذهب الداي حسين بنفسه إلى مقر القنصلية الفرنسية [illegible]
زيارة رسمية ويقدم للقنصل هناك اعتذارا رسميا.

2 — أو يستقبل القنصل الفرنسي بيلاطه في حفل رسمي ويقدم [illegible]
الاعتذار.

3 — أو يرسل وفدا رسميا برئاسة وزير بحريته إلى قائد الحملة [illegible]
ظهر سفينته داخل البحر ليقدم له الاعتذار.

4 — وفي كل هذه الحالات يجب رفع العلم الفرنسي فوق حصون
المدينة وإطلاق المدافع مائة طلقة تحية له.

5 — وعندئذ يعلن القنصل قبول الملك الفرنسي لاعتذار الداي.

6 — ويبقى مع هذا موضوع الشكاوي الفرنسية المتكررة قائما،
ويرسل دوفال مذكرة مفصلة بشأنها إلى الداي مرفوقة برسالة تهديد من
كوليت بضرورة حلها وتقديم ترضية كافية عنها.

وهذه المشاكل المقترح حلها هي:

1 — دفع ثمن السفن البابوية والبضائع التي صودرت منها ودفع
تعويض آخر فوق ذلك.

2 — إصدار إعلان صريح من طرف الداي باحترام العلم البابوي مستقبلا، والكف عن أخذ أية أتاوات مالية من إمارة البابا.

3 — تمتنع سفن الجزائرية عن تفتيش السفن الفرنسية في البحر.

4 — يتعهد الداي باحترام جميع المعاهدات والامتيازات السابقة.

5 — يعترف بأداء فرنسا كل ديونها السابقة حسب اتفاقية أكتوبر 1819م.

6 — يعترف لفرنسا حق نصب المدافع في حصن القالة، وكل منشآت الفرنسية على ساحل الجزائر.

7 — يلغي فورا ضريبة الـ 10% التي يأخذها عن الواردات من غير عادة.

8 — يعطي للتجارة والملاحة الفرنسية الأولوية على غيرها.

9 — يقدم ترضية كافية عن انتهاك مقر القنصلية الفرنسية بعنابة [illegible] مرة أخرى.

وقد أرسل كوليت مذكرة بهذه الشروط إلى الداي بواسطة قنصل مملكة سردينيا Dattili داتيلي الذي لاحظ له الداي في تلك المقابلة إهمال حكومة فرنسا الإجابة على رسائله المتعددة، وإهمال فرنسا رغبته في أن تسحب قنصلها دوفال من الجزائر لأنه شخص غير مرغوب بسبب تصرفاته غير اللائقة. وفي نهاية المقابلة أكد له الداي أنه على أتم استعداد لمقابلة كوليت أو أي شخص آخر غير دوفال ليباحثه في الأمر، وأنه من استعداد تام للحرب مثلما هو مستعد للسلم. أما شروط هذه المذكرة فلا يمكن قبولها أبدا إذ لم يبق إلا أن يطلبوا امرأتي. وهذا التعبير كاف على مدى المرارة التي كان يشعر بها الداي.

ونتيجة لموقف الداي هذا الذي كان منتظرا منه بسبب تشدد فرنسا في شروطها السابقة أعلن كوليت الحصار والحرب في منتصف يونيو وطلب إلى دوفال أن يظل قريبا من الشا طيء على احدى السفن حتى يستطيع أن يفتح المفاوضات مع الداي عندما ترهبه عملية الحرب والحصار ويعلن استعداده للملك. ولكن الداي رفض التهديد وقاوم الحصار ومحاولة ذلك وتحطيم نفوذه وأمر بتحطيم المنشآت العسكرية في القالة وعنابة وكلف أصحابها خسارة أكثر من مليوني فرنك ونصف. وطال أمد الحصار حتى تسرب الملل إلى صفوف الجنود والضباط وامتد إلى داخل مجلس الوزراء الفرنسية نفسها ومجلس النواب، فرأى كثير من وزراء دبيل De Billel عملية انزال القوات الفرنسية إلى البر كما يقترحها ويتحمس لها دو بورمون وكوليت، مخاطرة كبيرة، وأما الحصار المفروض حاليا انما هو وسيلة فقط لتأديب حكومة الداي وارغامها على قبول مطالب فرنسا.

أما وزير الحربية كليرمون تونير Clermont Tonnerre، ومعه قلة من أصحابه فقد كان يدعو ويؤيد فكرة الاحتلال ويبرر موقفه هذا بالملاحظات التالية:

1 — الثأر من أعداء المسيحية، وفتح الأبواب لها على شواطيء افريقيا خدمة لأوروبا والانسانية معا، وهذا هو عين التعصب الديني والعرقي الأعمى الذي كان يتخبط فيه ساسة فرنسا.

2 — التخلص من قيود معاهدة فينيا التي تحرم على فرنسا التوسع الاقليمي دون موافقة الحلف الرباعي.

3 — تحويل الشعب الفرنسي المشاغب عن أحداث الداخل، وإشغاله بهذا الحدث الخطير حتى يتمكن امنث من حل البرلمان الذي قويت فيه المعارضة.

ولما كانت الحكومة الفرنسية في هذه الفترة منشغلة كثيرا بالمسألة الشرقية بسبب ارتباطها مع روسيا وإنجلترا بمعاهدة لندن المبرمة يوم 26

1827م. والقاضية بتوسط هذه الدول بين تركيا واليونان، وتدعيم
... التوسط بقوات بحرية مشتركة أرسلت فعلا إلى شرق المتوسط حيث
دارت معركة نافارين الشهيرة يوم 20 أكتوبر 1827م، فقد أعرضت مؤقتا
عن فكرة كليرمون دوتونير.

وعندما سقطت وزارة بيل وحلت محلها وزارة مارتينياك Martignac يوم 5 يناير 1828م، وظهر من اتجاهها أنها تستبعد فكرة الاحتلال، اقترح دي لافروني De Laferronays وزير الخارجية الجديد في رسالة وجهها إلى الملك شارل العاشر بتاريخ 19 يناير 1828م، أن تتعاون فرنسا مع دول أوروبا، ومع محمد علي، إن أمكن، في معالجتها لمشكلة الجزائر، واعترض على فكرة الحملة المقترحة لأنها ستثير على فرنسا شكوك أوروبا كلها وحقد بريطانيا بالذات.

وفي الجزائر قام القائم بالأعمال الإنجليزي بمفاتحة الداي بعد أن طال أمد الحصار ووجد فيه استعدادا للتفاهم والتفاوض، فاتصل بكوليت قائد الحصار وأخطره باستعداد الداي للبحث في إيجاد حل للمشكلة، فأبلغ هو ذلك حكومته التي رحبت بالاتجاه الجديد وأذنت له في أن يدخل مع الداي في مباحثات حول تبادل الأسرى كحجة للاتصال به، وأخطرته بأنها على استعداد للتنازل عن طلب الاعتذار مع احتفاظها بضرورة إيجاد حل كاف للمشكلة. فأرسل كوليت الضابط بيزار Bezard للإتصال بالداي فاستقبله بحضر قنصل سردينيا داتيلي وسأله عن سبب إعلان فرنسا الحرب ضده قبل أن تسمع منه وجهة نظره، وأكد له أن دوفال هو السبب في كل ما حصل ويحصل بين الجزائر وفرنسا، وبلغه أنه لم يضربه بالمروحة وإنما أشار بها إليه فأصابت جنبه، ولم يقصد قط أن يضربه. ثم ختم هذه المقابلة بتأكيده استعداده لعمل كل ما تريده فرنسا سلاما كان أم حربا.

وإزاء هذا الموقف المتصلب من الداي قررت فرنسا أن تتنازل خطوة أخرى واقترحت أن يعلن الداي أمام القناصل الأجانب أنه لم يكن ينوي

الإساءة للملك الفرنسي، وأن يوفد بعد ذلك رسولاً إلى باريس لكر... الإعلان للملك. ولكن الداي رفض أن يفعل ذلك قبل توقيع معاهدة ال... بين الدولتين، ولهذا طلب من كوليت أن يشدد عملية الحصار مرة أخرى وتشكلت لجنة من ضباط البر والبحرية لدراسة موضوع الحملة الفر... سابقا وطلب من وزير الخارجية أن يدخل في مفاوضات مع باي تونس وسلطان مراكش حتى يقفا على الحياد وأصدر الملك أوامره بالـ... الإجراءات اللازمة لكي تسير الحملة في ربيع عام 1829م. ولكن استقا... دي لافروني وتحرج الموقف الدولي بسبب توتر العلاقات بين تركيا وروس... عام 1829م. واحتمال إعادة النظر في خريطة أوروبا كلها، جعل الحكومة الفرنسية تغير موقفها من مشكلة الجزائر، فأعلن بورتاليس Portalis وزير الخارجية أمام مجلس النواب الفرنسي أن الملك الفرنسي لا يجد إراقة الد... الفرنسي ما دام هناك أمل لتحقيق التفاهم. ثم استقدم كوليت وعين مكا... دي لابروتونيير De Labretonniere وحملته حكومته شروطا للصلح أخذ... معه إلى الجزائر في صيف عام 1829 وهي:

1 — أن يرسل الداي مندوبا عنه إلى فرنسا لتقديم الاعتذار.

2 — أن يطلق سراح أسرى السفن الباباوية.

3 — أن تعقد هدنة مؤقتة بين الطرفين تمهيدا للصلح.

وتوصل قنصل سردينيا في إبلاغ هذه الشروط للداي الذي رفضها وقدم شروطا أخرى مضادة حملها القنصل الانجليزي سان جون إلى لابروتونيير وهي:

1 — أن تتنازل فرنسا عن كل ادعاء لها في حصن القالة، وعن احتكارها للتجارة في عنابة.

2 — يتعهد هو بمنحهم احتكار صيد المرجان إذا قدموا له عروضا أكثر من غيرهم.

3 ـ نتيجة لهذا يمكن تجديد المعاهدات الفرنسية الجزائرية السابقة.

4 ـ إذا قبلت فرنسا هذه الشروط فسيكون هو على استعداد لاستقبال مبعوث فرنسا على ظهر الفرقاطة الإنجليزية الراسية أمام الميناء.

5 ـ وبعد توقيع الصلح على هذه الأسس يصبح في الإمكان حينئذ أن يرسل مندوبا عنه لفرنسا لتقديم الاعتذار.

وكان ممكنا لهذه الخطوات أن تنجح لو لا أن حدث ما جعل المحاولة تفشل من أساسها، وظهرت مشكلة أخرى إلى جانب مشكلة المروحة نفسها. ذلك أنه بينما كانت السفينة الفرنسية لابروفنس، وعلى ظهرها لابروتونير تبتعد عن ميناء الجزائر إذا بمدفعية الميناء تصوب ضدها وتقذفها بقنابلها، فاغتاظت فرنسا لذلك واعتبرته إهانة أخرى لها رغم أن الداي أعلن أنه لا علم له بذلك، وأنه سيعاقب الذين ارتكبوه وأقال أمير البحر من منصبه ليؤكد غضبه من الحادث وعدم مسؤوليته عنه.

وحدث خلاف بين لابروتونير قائد عمليات الحصار ودريني Derigny قائد الأسطول الفرنسي في المتوسط حول كيفية الحاح العمليات العسكرية بالجزائر. وفي هذه الأثناء سقطت وزارة مارتنياك وتولى بولينياك منصب وزارة الخارجية في الحكومة الجديدة ثم منصب رئاسة الوزراء في شهر أغسطس عام 1829م، وتجمعت عدة ظروف في البداية لتدل على امكانية انهاء الأزمة بسلام وهي:

1 ـ عجز فرنسا وفشلها في الشؤون الدولية الخارجية.

2 ـ تضارب آراء العسكريين في موضوع الحملة المقترحة.

3 ـ سعي قنصل سردينيا المستمر لتحويل الداي عن تصلبه.

4 ـ وصول مندوب عن السلطان العثماني إلى الجزائر للوساطة [illegible] وبصحبته ترجمان القنصلية الإنجليزية بازمير.

وكان خليل أفندي وكيلا للداي بالقسطنطينية، وفي أواخر
1829م اعتزم الرجوع إلى الجزائر لقضاء بعض الأمور، فاغتنم الداي
ذلك وأذن له أن يسعى بإسمه للتوسط ولكنه لم يعط لمهمته صفة
رسمية. وفي أواخر شهر نوفمبر وصل إلى الجزائر وطلب من الداي أن يرسل
إلى فرنسا رسولاً للاعتذار عن حادثي المروحة ولا بروفنس، ولكن
كعادته القيام بهذا العمل قبل توقيع معاهدة للصلح وتمسكه بشروطه
السابقة. وقد ألح سان جون على لابروتونير أن يستغل استعداد الداي
ومساعي خليل أفندي للوصول إلى حل سلمي ومحو ما أفسده دوفال من
هذه المتاعب كلها، ولكن خلو شروط الداي السابقة من التعهد على
الاعتذار أو الترضية جعل كل هذه المحاولات تفشل وغادر خليل أفندي
الجزائر عائدا الى تركيا عن طريق تونس.

فشل محاولات الوساطة واقحام محمد علي في النزاع:

ورغم أن بولينياك كان يمثل طبقة الرجعيين المتزمتين، وكان يمكن
أن يتخذ مواقف صعبة ومتعنتة تجاه مشكلة الجزائر، إلا أنه كان مشغولا
في هذا الوقت بمشروعات أخرى أهم في أوروبا، ويسعى إلى عقد تحالف
سري مع روسيا من أجل إحداث تغيير شامل في خريطة أوروبا السياسية
وعلاج الهزائم النابوليونية فيها، سيما وأن الجيوش الروسية حققت
انتصارات ضخمة في البلقان خلال ربيع عام 1829م وأصبحت تهدد السير
نحو عاصمة الباب العالي وصار الجميع يتوقعون انهيار الامبراطورية العثمانية.

ولهذا حاول بولينياك أن يستغل هذا الوضع لصالح فرنسا فطلب من
سفيره ببطرسبورغ عاصمة الروسيا أن يطلب من القيصر تأييد اعادة
بلجيكيا والألزاس إلى فرنسا مقابل اعادة ماداغيا وولاشيا (الأفلاق
والبغدان) إلى روسيا مع السماح لها بضم سكسونيا والتوسع في آسيا
كذلك، على أن تأخذ النمسا ولايتي: الصرب وبوسنة.

ولا شك أن الشغال بوليناك بمثل هذا المشروع الضخم في أوروبا لا يسمح له ولا لقوات فرنسا بالزحف على الجزائر، ومن هنا جاءت فكرة تكليف محمد علي بتأديب داي الجزائر وتغيير حكومات المغرب بأخرى تلائم الأوضاع الجديدة في أوروبا. وأوحى بهذه الفكرة السيد دروفيتي Drovitti قنصل فرنسا بالاسكندرية الذي كان ذا صلة متينة بالباشا محمد علي، وناقشه فيها عدة مرات قبل أن يبعث في شأنها مذكرة إلى حكومته في أوائل شهر أغسطس عام 1829م. ولم يول بوليناك في البداية كبير اعتناء لها بسبب ارتباط فرنسا بمعاهدة لندن السابقة التي تقتضي بضرورة الاحتفاظ بقواتها في شرق المتوسط استعدادا للطوارىء المحتملة في الحرب اليونانية التركية، ولكن دروفيتي قام بدعاية واسعة لفكرته في الأوساط الفرنسية ثم بعث مذكرة أخرى بشأنها إلى بوليناك في سبتمبر عام 1829م. عدد فيها المزايا التي تعود على فرنسا، وهي:

1 — توفير النفقات الضخمة التي ستكلف فرنسا إذا ذهبت بنفسها وهي حاجة إليها في أغراض أخرى.

2 — تعويض خسائر محمد علي في اليونان، وتمهيد السبيل لإعادة علاقات الطيبة معه.

3 — تجنب معارضة بريطانيا التي تتراجع عندما تصبح المسألة إسلامية بحتة.

4 — ارتياح الباب العالي لعودة هذه الولايات إلى سيطرته.

5 — تحويل نظر محمد علي عن التوسع في الشام، وتجنب ما سيلوه ذلك من أزمة دولية حادة.

6 — ارتياح أوروبا للقضاء على القرصنة وأصحابها واعتراف العالم بفضل فرنسا صاحبة الفكرة.

وبهذه المزايا ارتاح بولينياك إلى الفكرة ومال إليها وقدم إلى الملك مذكرة في شأنها أواخر سبتمبر عام 1829م. وبعث إلى سفير فرنسا لدى الباب العالي رسالة في 14 أكتوبر من نفس العام وطلب منه فيها أن يحث السلطان لمعاقبة الداي عن طريق استخدام قوات محمد علي العسكرية وإصدار فرمان بذلك يسمح له باخضاع دول المغرب وإقامة حكومات أخرى جديدة تعترف بسيادته، على أن يستمر محمد علي في دفع الأتاوة السنوية التقليدية إليه والا فان فرنسا ستقوم بهذا العمل وحدها.

وكان من رأي الحكومة الفرنسية:

1 ــ أن يقوم محمد علي وحده بالحملة، ويساعده الأسطول الفرنسي من جهة البحر.

2 ــ وتقدم له فرنسا عشرة ملايين فرنك كقرض بشرط الإسراع في الاستعداد ولو لم يصدر إليه فرمان تركيا الذي تسعى هي جاهدة لاستصداره لأن رضى أوروبا عن عمله هذا سيعوضه فقدان الفرمان ويكسبه ممتلكات واسعة ويوطد حكمه وحكم أسرته.

ولم يكن محمد علي يفكر أو يحلم بمثل هذا المشروع قبل أن يفاتحه دروفتي فيه. ولهذا تأني كثيرا وطلب من فرنسا بعدما أبلغته المشروع ألا تبلغ الباب العالي بذلك حتى لا تثير شكوكه وقلقه في تلك الفترة التي توترت فيها علاقاته معها بسبب نمو قواته العسكرية وسعيه الحثيث للسيطرة على البلاد العربية وافتكاكها منه رغم انهزامه في الحملة اليونانية. وبعد أن أثار محمد علي عدة مسائل وموضوعات على الفكرة أبدى استعداده للقيام بها على أن يتولى ابنه إبراهيم قيادة الحملة وحده دون مساعدة الأسطول الفرنسي الذي سيثير الشكوك في سمعته السحرية التي يتمتع بها في العالم العربي والاسلامي، وأن تدفع له فرنسا قرضا تبلغ عشرين مليون ريال يتم تسديده خلال أربع سنوات من الاستيلاء على الجزائر، وأن تقدم له أربع سفن حربية من عيار ثمانين مدفعا كهدية في شكل بيع.

وهكذا اصطدم هذا المشروع بعدة عراقيل هي:

1 ـ مقترحات محمد علي الجديدة غير المنتظرة.

2 ـ امتناع الباب العالي عن اصدار الفرمان واقتراحه إرسال وسيط بدلاً عن ذلك إلى الجزائر لحل المشكلة سلمياً.

3 ـ اعتراض بعض وزراء بولينياك خاصة ديورمون ودي هوسي وزيري الحربية والبحرية، على اعطاء محمد علي أربع سفن حربية لأن ذلك سيضعف من قوات فرنسا البحرية.

ولهذا عادت الحكومة الفرنسية إلى مناقشة الموضوع واستقر الرأي أخيرا على إلغاء فكرة تقديم السفن الأربع إلى محمد علي، ورفع قيمة القرض إلى عشرين مليون ريال دون فائدة يسددها في خلال ثماني سنوات ويقدم له أقساطا وعلى مراحل: عشرة ملايين عند قيام الحملة، وخمسة عند وصولها إلى تونس، وخمسة عند وصولها إلى الجزائر، وتوضع تحت تصرفه ثمانية ملايين ريال أخرى كهدية يشتري أو يبني بها أربع سفن حربية من احدى الترسانات البحرية الفرنسية؛ ووضع مشروع جديد من 17 مادة وأرسل إلى محمد علي ليطلع عليه، وطلب بولينياك من سفيره بتركيا أن يبلغ السلطان أن فرنسا مقررة العزم على انهاء مشكلة الجزائر وحدها أو بمشاركة محمد علي، وعلى الدولة العثمانية أن تلتزم موقف الحياد وتكف عن أي اجراء عدواني ضد محمد علي، لأن قائد قواتها البحرية بشرق المتوسط ديريني لديه تعليمات صريحة بمقاومة كل ذلك ولو بالقوة، كما أن فرنسا لا ترى فائدة لإرسال وسيط عثماني لأن ذلك مضيعة للوقت.

ورغم أن فرنسا حاولت أن تخفي مشروعها هذا على بريطانيا إلا أنها وقفت عليه بالتفصيل في القسطنطينية وفينا، واضطر بولينياك أن يصارح به السفير البريطاني اللورد ستيوارت مدعيا أن محمد علي هو الذي

أوحى به إليه، وأن فرنسا لديها عدة اعتراضات عليه وما تزال قيد الد... حتى هذه الساعة. وفي النهاية طالب بولينياك تأييد بريطانيا والدول الأوروبية المعنية بالمشروع مؤكدا أن فرنسا عازمة على انهاء مشكلة الجزائر لصالح الحضارة والانسانية سواء وحدها أو بالتعاون مع غيرها.

فأيدت روسيا فكرة الحملة من الناحية العسكرية ولكنها أعلنت أ... تفضل أن تقوم بها فرنسا وحدها دون مساعدة محمد علي. وترددت بروسيا بعض الشيء ثم أعلنت تأييدها. وعارضت النمسا بشدة الفكرة لأن رئيس وزرائها المحافظ ميترنيخ يرى ضرورة المحافظة على الأوضاع الراهنة حتى لا تنبعث من جديد روح فرنسا العسكرية والتوسعية، كما يرى في اشتراك محمد علي ونجاحه خطرا على تركيا وأوروبا معا بسبب ما يثيره ذلك من أزمات دولية. ولهذا طالب أن تحل فرنسا خلافاتها مع الجزائر سلميا وبواسطة الباب العالي.

وكانت بريطانيا أشد معارضة من النمسا لأنها ترى في تحقيق المشروع خدمة لمصالح فرنسا وتمهيدا لسيطرتها على بلاد غربي البحر الأبيض المتوسط الجنوبية، وذلك يمس من مركز تفوقها الذي تحتفظ به هناك بواسطة قواعدها في جزيرة كورفو ومالطة وجبل طارق. وعبر الدوق ولنجتون رئيس وزرائها عن موقف بلاده بقوله: ان أنجلترا تفضل أن تظل قرونا عديدة تقاسي من اعتداءات الجزائر على أن تدفع هذه البلاد لتقع تحت يد دولة أجنبية أوروبية، وقال متسائلا ما ذنب تونس وطرابلس حتى تسلط عليهما عمليات حربية عدوانية؟ وتمشيا مع هذه السياسة عملت بريطانيا على قتل المشروع الفرنسي في تركيا والأسكندرية، فأبلغت محمد علي أنها تعارض بشدة فكرة إرسال قواته إلى شمال افريقيا سواء بموافقة تركيا أو بدونه، وألحت على الباب العالي أن يبعث وسيطا من قبله إلى الجزائر ليقنع الداي أو يرغمه على تقديم الترضية والاعتذار حتى يفوت الفرصة على فرنسا ومحمد علي معا. ثم أبلغت فرنسا في 23 يناير عام 1830م معارضتها

الشديدة لفكرة تدخل محمد علي بالقوة في شمالي افريقيا بعد أن تأكدت من معارضة تركيا كذلك.

ونتيجة لهذا الموقف المتصلب عادت فرنسا إلى درس الموضوع من جديد وقدم بولينياك مذكرة إلى مجلس الوزراء يوم 29 يناير 1830م اقترح فيها هذه المرة أن تشارك فرنسا مع محمد علي في العمليات الحربية وتتولى هي اخضاع الجزائر، ويتولى هو اخضاع تونس وطرابلس وأن يخفض القرض إلى عشرة ملايين ريال، وتسمح فرنسا لمحمد علي ببناء أربع سفن حربية في احدى قواعدها البحرية، وتأذن لأسطولها ان أراد أن يساعده في الهجوم على المدن الساحلية في كل من تونس وطرابلس. وتمسك بولينياك في هذه المذكرة بضرورة احتفاظ فرنسا بحرية العمل وعدم التقيد بأي وضع حول مستقبل الجزائر بعد السيطرة عليها كما تلح على ذلك بريطانيا.

وبعد أن انتهى مجلس الوزراء الفرنسي من مداولاته وضع مشروعا من 16 مادة أرسله إلى محمد علي ليطلع عليه وسلمه إليه القنصل الفرنسي ماركر، وأبلغ بولينياك محتوياته إلى كل الدول الأوروبية المعنية. فأعلنت كل من روسيا وبروسيا موافقتهما عليه ثم تراجعتا وانضمتا إلى النمسا التي ظلت تعارض المشروع، كما اعترضته بريطانيا وأبلغت اعتراضها إلى الباب العالي ومحمد علي معا فأعلن الباب العالي رفضه هو الآخر ومعارضته، فاضطر حينئذ محمد علي أن يعلن رفضه للمشروع ومعارضته وأكد ولاءه للسلطان والملة معا، ونفى بشدة أن تكون فرنسا قد جرته إلى محاربة إخوانه في الدين.

وبذلك سقط المشروع الفرنسي الثاني وأخذت فرنسا تسعى للقيام وحدها بالعمل كما كانت تبغي وتحبذ، وبدأت منذ شهر مارس 1830م في إعداد الحملة وتجهيزها. ووجه بولينياك رسالة عامة إلى جميع الدول يوم 12 مارس ذكرها فيها بموضوع إساءة الداي وشرح محاولات فرنسا البائسة من أجل التوفيق، ثم أعلن أن غرض الحملة هو خدمة مصلحة أوروبا كلها

ووضع حد لما تشكو منه منذ زمن بعيد. وبعد إسقاط حكم الداي سيتشاور الملك مع حلفائه لتقرير ماذا سيكون عليه نظام الجزائر الذي سيستهدف ولا شك مصلحة المسيحية. ولم تقنع بريطانيا بهذه الإيضاحات وطلب وزير خارجيتها اللورد أبردين تأكيدات رسمية من فرنسا بأنها لا تهدف إلى أغراض أخرى توسعية، وجاءت تصريحات بولينياك الجديدة لتدعم شكوك بريطانيا وتقوي من ريبتها. فقد ذكر بولينياك في رسالته إلى لافال سفير فرنسا بلندن أن فرنسا لا ترغب في الاحتفاظ بالجزائر أو النيابة كلها، ولكنها ترغب في أن تؤكد وجودها وفق ما يلائم ويخدم مصالحها وحقوقها التي قد تقتضي معاهدات ما مع توفير كل العوامل التي تحمي هذه المصالح وتقيها من أي اعتداء خارجي، كما أنها ستسعى إلى استرداد تكاليف حملتها من خزينة الجزائر. وكانت بريطانيا محقة في شكوكها ولا شك إذ من يدري أن احتلال الجزائر هو الكفيل، في رأي فرنسا، بتأكيد وجودها هناك وخدمة مصالحها وحقوقها التي تدعيها؟ وعلى كل فقد تواصلت الحرب الكلامية بين أبردين وبولينياك طوال فترة ما بين أبريل ويوليو 1830م. ولم يستطع أحدهما أن يقنع الآخر، وتأكد بما لا يدع مجالا للشك بأن فرنسا تبيت الشر للجزائر، وأن الحقد الصليبي كان طاغيا على تفكير ساستها.

وفي يوم 12 مايو عام 1830م. وبينما كانت الحملة الفرنسية تستعد لمغادرة فرنسا إلى الجزائر، أرسل بولينياك رسالة أخرى عامة إلى جميع الدول المعنية أكد فيها أن الحملة ذاهبة للانتقام للعلم الفرنسي، وتوطيد مركز المصالح والممتلكات الفرنسية، والحصول على تعويضات مالية عادلة والقضاء على القرصنة والاسترقاق والإتاوات، كما أكد أن القوات الفرنسية لن تضع السلاح إلا بعد تحقيق ذلك، والحكومة الفرنسية على استعداد لتقديم الإيضاحات اللازمة لمن يطلب ذلك من حلفائها مع احتفاظها بحرية العمل هناك.

وبينما كان الصراع يجري على هذا الشكل في أوروبا قرر الباب العالي إرسال طاهر باشا كوسيط عنه إلى الجزائر ورحبت بريطانيا بالفكرة وألحت عليه أن يسرع في إرساله. فوجهه إلى الجزائر يوم 15 أفريل على ظهر باخرة عثمانية ومر بتونس ومكث في حلق الوادي بعض الوقت ثم غادره يوم 12 مايو ووصل إلى الجزائر يوم 21 منه.

أما فرنسا فقد رفضت تعيين الكوميسير الفرنسي الذي اقترحه الباب العالي ليرافق طاهر باشا وأبلغته أن الوساطة الآن أصبحت غير مفيدة، خاصة وأنه قد فشلت قبل هذا اليوم وساطة خليل أفندي، هذا إلى جانب أن الباب العالي أهمل القيام بمثل هذه الوساطة يوم أن كانت مرغوبة خلال الشهور الثلاثة الماضية. ومن أجل هذا رفضت فرنسا أن تزوده بخطاب اعتماد إلى الأميرال المحاصر للجزائر ليسهل له الاتصال بالداي وحكومته. فعندما وصل إلى ميناء الجزائر رفض لابروتونيير السماح له بالنزول محتجا أن الحملة الفرنسية على وشك الابحار من فرنسا وأن الأخبار الخارجية ممنوع دخولها ووصولها إلى داخل الجزائر. كما أن الداي قد لا يستقبله بما يستحق لأنه علم بالاشاعات التي راجت عن اعتزامه عزله إذا رفض أن يخضع ويمتثل لمشروع وساطته. ولم يكتف لابروتونيير بهذا فقط بل أنه نقل طاهر باشا إلى سفينة فرنسية ذهبت به في الحال إلى طولون، وصادف في الطريق الحملة الفرنسية التي تتجه إلى الجزائر وأدرك أن مهمته قد فات وقتها. ولكنه مع ذلك وجه إلى بولينياك من الحجر الصحي بطولون، رسالة خاصة يوم 27 ماي أحاطه فيها علما بمهمته ووقوف لابروتونيير ضده، وأكد له أنه على استعداد للتفاوض مع فرنسا رأسا. فرد عليه بولينياك طالبا منه أن يبين ما إذا كانت لديه الصلاحيات الكافية لهذا التفاوض وما سينتج عنه. وأجابه طاهر باشا يوم 18 يونيو بأن مهمته هي التوفيق ولكنه لا يستطيع الحضور إلى باريس قبل أن يتصل بالداي وحكومته بالجزائر، فعاد بولينياك إلى طلب إظهار صلاحيات قتلا للوقت وتفويتا للفرص الممكنة حتى يتيح للحملة أن تؤدي مهمتها كما هو مطلوب. وهكذا غادر طاهر باشا طولون قبل أن يصله رد بولينياك بعد أن علم باستيلاء الحملة على الجزائر وتسليم الداي إليها.

سير الحملة الفرنسية

عام 1830م

ترتبط الحملة الفرنسية على الجزائر بعدة عوامل سياسية، واقتصادية، واجتماعية، ودينية صليبية ممقوتة. أما حادث المروحة الذي ضخمته فرنسا وأرادت أن تجعل منه السبب المباشر لزحفها على الجزائر فهو تدليس وتغطية لأهدافها التوسعية وغيرها، وهذا بشهادة أكبر الساسة الأوروبيين محافظة ورجعية في ذلك الوقت: ميترنيخ رئيس وزراء النمسا الذي قال: انه لا يعرض أكثر من أربعين ألف رجل للموت وينفق أكثر من مليون من أجل لطمة مروحة.

فقد فقدت فرنسا مستعمراتها الواسعة في كندا بامريكا الشمالية، وفي مصر بافريقيا والهند بآسيا بعد صراع طويل وعنيف ضد انجلترا أشد خصومها وأعتاهم، وزين لها ساستها أن تعوض ذلك باحتلال الجزائر التي ستجني فيها فوائد مادية ضخمة وتحصل على خزائن الداي المملوءة ذهبا وخيرات واسعة، وتجعلها موطنا لفائض سكانها وغير المرغوب في بقائهم بفرنسا من المجرمين والعابثين، كما تجعل منها سوقا لمنتجاتها الصناعية وموردا هاما للأيدي العاملة والمواد غير المتوافرة في فرنسا.

ومن جهة أخرى فإن الأحوال الداخلية في فرنسا وسعي حكومة شارل العاشر الحثيث لتدعيم عرش أسرة البوربون العائد، خاصة بعد أن قوي صف المعارضة في المجلس الوطني الفرنسي ومن طرف بعض الأحزاب الحرة، من العوامل الهامة التي دفعت حكومة بولينياك إلى القيام بهذه

الحملة على أمل أن تسكت هذه الأصوات الحرة وتلهي الشعب والرأي العام بعمليات الغزو التي ظنت انها ستغسل دموع هزائم ووترلو وغيرها.

ولما استقر رأي الحكومة الفرنسية على الحملة المقترحة درس المسؤولون العسكريون والمدنيون مختلف التقارير والمشاريع السابقة، واتفق رأيهم جميعا على عدم صلاحية ميناء الجزائر لنزولها، ولكنهم اختلفوا على المكان الصالح والمناسب؛ فحبذ بولينياك رأي ديبورمون في أن تقسم الحملة إلى قسمين: قسم ينزل بعنابة وقسم ينزل بوهران ثم يزحف القسمان معا برا إلى مدينة الجزائر. ثم عدل عن هذه الفكرة واستقر رأي الجميع على نزول الحملة بسيدي فرج وتقدمها بعد ذلك برا إلى العاصمة. وصدرت الأوامر بتعبئة القوات البرية والبحرية في نفس الوقت الذي وصلت الأخبار من الأسكندرية في أوائل شهر مايو 1830م. برفض محمد علي فكرة غزو ولايتي طرابلس وتونس وفتحهما.

وقد اختلف الساسة الفرنسيون حول مستقبل الجزائر بعد احتلالها. وكان من رأي ديبورمون في مذكرة 19 ديسمبر 1829 السابقة أن تتمسك فرنسا بأحد الأمور الثلاثة التالية:

1 ــ أن تحتفظ فرنسا بها إذا شاءت ذلك.
2 ــ أو تستبدل بها اقليما آخر يكون أكثر نفعا لها.
3 ــ أو تتنازل عنها لمحمد علي مقابل جزية سنوية أو امتيازات خاصة للتجارة الفرنسية نفسها.

أما فلوران تيري Florent Thierry فقد اقترح أن تحتفظ فرنسا بها وتقيم فيها مملكة عربية تحت نفوذها. ومع هذا فقد غادرت الحملة فرنسا إلى الجزائر دون أن يتفقوا على رأي خاص، وقدم بولينياك مذكرة إلى مجلس الوزراء الفرنسي يوم 26 مايو الذي هو اليوم الثاني لخروج الحملة ذكر فيها عددا من الحلول الممكنة وهي:

1 — الإبقاء على الداي وحكومته وارغامه على إلغاء الرق والقرصنة ودفع خمسين مليون فرنك كتعويض، والتنازل لفرنسا عن مدينة عنابة وضواحيها وهدم تحصينات مدينة الجزائر.

2 — أو طرد الداي والأتراك من الجزائر واقامة حكومة جديدة تحت رئاسة سلطان المغرب.

3 — أو اعادتها الى الباب العالي ليعين عليها باشا جديدا.

4 — أو اعطاؤها الى فرسان مالطة.

5 — أو تحتفظ فرنسا بها وتستعمر الأجزاء الساحلية منها.

6 — أو تقسيمها بين عدد من دول حوض البحر الأبيض المتوسط، فتأخذ فرنسا مدينة الجزائر وضواحيها، ويعطي لبريطانيا ثغر أرزيو، ولإسبانيا وهران، وللنمسا عنابة، وبجاية لنابولي، وجيجل لتسكانيا.

ومال هو الى اختيار أحد الحلين الأول أو الأخير. ولكن رينفال Rayneval اعترض عليه بأن لفرنسا كل الحق في أن تعالج مشكلة الجزائر كما تشاء، ولهذا بقي الأمر بدون حل إلى ما بعد نزول الحملة واحتلالها لمدينة الجزائر.

وقد عينت الحكومة الفرنسية وزيرها للحربية ديبورمون De Bourmont قائدا عاما للحملة والأميرال دوبري قائدا للأسطول وأوصته سريا بأن يتولى القيادة العامة ويفرض على الأميرال والجنود والضباط طاعتهم له وامتثالهم لأوامره. ولم يكن ديبورمون صاحب سمعة طيبة في الأوساط الفرنسية لأنه يحمل نزعة رجعية، ويسمونه خائن ووترلو بسبب خيانته لنابليون ومغادرته معسكره قبل ثلاثة أيام من حصول هذه المعركة وانضمامه إلى معسكر لويس الثامن عشر ليخدم ركاب الملكية البوربونية التي عادت الى الحكم على أكتاف أسيادها، إلا أنه كان قد تصدى لقمع

الحركات التحريرية ضد أحرار الاسبان عام 1823م. ومن أجل هذا منحته حكومته عصا الماريشالية لتنسي الشعب والرأي العام هذا الماضي السيء، وطلب إلى دوبري Duperri أن يكف عن الانتقاد واظهار الاشياء لأنه كان يعارض في الحقيقة قيام هذه الحملة.

ومنذ أن تعين ديبورمون على رأس الحملة وهو يبحث ويفكر ويجمع المعلومات اللازمة عن مهمته، فاقترح أن يستخدم القوات السويسرية الموجودة في فرنسا إلى جانب القوات الفرنسية، ولكن المفتش العام لهذه القوات اعترض بأنها لا تستعمل خارج القارة. فتخلى عن هذه الفكرة واقترح على بولينياك أن يفاوض اسبانيا للحصول على إذن بشراء الخيول والمؤن اللازمة وبناء مائة سفينة في موانيها. ففاتحها بولينياك وترددت بعض الشيء حتى لا تقحم نفسها مع الجزائر، كما أنها شعرت بالغيرة من أن تنجح فرنسا فيما فشلت هي فيه عدة مرات خلال القرون السابقة. ثم وافقت بعد تدخل السفير الفرنسي لدى الملك الاسباني وسمحت باستخدام جزر البليار كمحطة للأساطيل الفرنسية، وتأجير عدد كبير من السفن الاسبانية للحكومة الفرنسية لتحمل عليها المؤن والذخائر. ولكن الحكومة الفرنسية لم تتوصل الى حل مناسب مع أصحاب السفن الاسبان فاتجهت الى الدويلات الايطالية تطلب الاذن بالتجاء سفنها الى موانيها عند الحاجة، وبشراء السفن والمؤن منها مقابل حمايتها من اعتداءات الجزائريين الانتقامية المتوقعة. فقبلت كلها عدا امارة تارنتو التي كان من رأيها أن تمنح طرابلس لمحمد علي وتأخذ هي ولاية تونس، وتعطي الجزائر إلى فرسان مالطة. وبعد هذا تعاقدت فرنسا بواسطة سفيرها مع شركة انجليزية على بناء مجموعة من السفن وارسالها إلى طولون قبل يوم 15 أفريل على ألا تقل حمولتها عن عشرة آلاف طن. ولكن الشركة بعد أن وقعت الاتفاق طلبت من السفير الفرنسي أن يحصل على رخصة من الحكومة البريطانية حسبما ينص على ذلك القانون الانجليزي. ولكن الحكومة رفضت الترخيص بحجة أنها لم يسبق لها أن اتخذت مثل ذلك الاجراء، ولهذا بطل الاتفاق. واهتم ديبورمون

جمع المعلومات اللازمة عن الجزائر من الوثائق والمخطوطات والتقارير وكتب التاريخ والرحلات، وطلب من اسبانيا أن تطلعه على وثائق حملة 1775م، وألف من كل ذلك كتيبا صغيرا سماه: لمحة تاريخية واحصائية وطوبوغرا عن دولة الجزائر، وضمنه عددا من اللوحات والخرائط أخذها من تقرير بوتان السابق.

واهتمت فرنسا بتأمين مصير الحملة في أوروبا وأفريقيا فوجهت بعضا من قواتها الى الحدود الشمالية لتكون على تمام الاستعداد للزحف على الأراضي البلجيكية في حالة ما إذا قام الأسطول الانجليزي بأي أعمال عدوانية، لأنها كانت تتوقع نشوب حرب بينها وبين بريطانيا. وكلفت قنصلها بطانجة أن يبلغ السلطان الأسباب التي دفعتها إلى ارسال الحملة ويؤكد له نوايا فرنسا الطيبة تجاهه ورغبتها في أن يلتزم موقف الحياد كم فعل أسلافه من قبل أيام حملة الاسبان عام 1775م.

ووجهت الى تونس وطرابلس الأميرال روزامل Rosamel امل عليهما نص معاهدة كلها لصالح فرنسا بعد أن هددهما باستعمال القوة والقضاء عليهما جميعا.

وفي يوم 18 أفريل 1830م. تسلم ديبورمون من حكومت التعليمات الخاصة بشأن مهمته وتتلخص فيما يلي:

1 — عليه أن يضع أمام عينيه ضرورة الاستيلاء على الجزائر بأي وسيلة كانت.

2 — عليه أن يعلن لكل من يعرض عليه مقترحات الداي أو حكومته في الطريق قبل الوصول أنه سوف يوضح نوايا فرنسا تماما عندما يصل إلى الجزائر.

3 — عليه أن يتجنب قول أو عمل أي شيء يمكن أن يكشف عن نوايا فرنسا في الجزائر أو يمس حرية العمل الذي تحتفظ به.

4 ــ إذا عرض عليه الداي فتح باب المفاوضات للصلح قبل نزول حملة إلى البر عليه أن يقبل ذلك من حيث المبدأ ولكن قبل ذلك لابد تسليم حصون المدينة وبطاريات الساحل وكل وسائل الدفاع المنصوبة في المدينة والسماح له بالرسو داخل الميناء الداخلي أو خليج الجزائر، وعلى الداي أن يجيب على كل هذه الشروط خلال ثلاث ساعات فقط.

5 ــ عندما ينزل جنود الحملة إلى البحر يجب عليه أن يشرع حالا في العمليات العسكرية الا إذا قبل الداي الشروط التالية فوراً:

أ ــ أن تسافر إلى باريس ثلاث شخصيات جزائرية كبيرة لتقدم للملك اعتذار الداي وتتعهد بالغاء القرصنة والرق والاتاوات وهدم حصون المدينة والثغور الأخرى، وتسليم خمسين مليون فرنك لنفقات حصار والحرب وخرق المعاهدات السابقة.

ب ــ أن يتعهد الداي بأن يعود إلى مجرد تابع مباشر للسلطان العثماني الذي يعين خلفاءه من بعده.

ج ــ أن يعترف لفرنسا بالسيادة المطلقة على الجزء الساحلي بين عنابة وحدود تونس ويتنازل لها عن مدينة عنابة وميائها.

د ــ أن يؤكد لها كل الامتيازات الممنوحة للفرنسيين ويتعهد للفرنسيين بحق احتكار صيد المرجان مقابل سبعة عشر ألف فرنك لا ترفع إلى أكثر دون موافقة فرنسا.

هـ ــ أن تحتل القوات الفرنسية مدينة الجزائر وحصونها كضمان لتنفيذ هذه الشروط.

و ــ يعتبر قبول هذه الشروط كلها هو الشرط الوحيد الذي يحول دون هجوم قائد الحملة على المدينة ويخول له توقيع المعاهدة باسم الملك وأذنه.

6 ـ إذا تمكن من احتلال مدينة الجزائر عليه ألا يقبل من الداي سوى حمايته والسماح له بالسفر إلى فرنسا إن أراد ذلك.

7 ـ عليه أن يحترم الرعايا الأجانب خاصة القناصل والوكلاء التجاريين.

8 ـ عليه أن يتجنب كل محادثة مع القناصل الأجانب تمس مشاريع فرنسا المقبلة باعتباره قائدا عسكريا لاقليم محتل احتلالا عسكريا.

وفي يوم 20 مايو أذاع ديبورمون بيانا على ضباط الحملة وجنودها حثهم فيه على حسن الاستعداد بعد أن ذكرهم بأنهم ذاهبون إلى أرض سبق أن ذهب إليها جنود فرنسيون في حملة لويس التاسع وبعض سرايا نابليون، كما أعلن في مقر غرفة التجارة بمرسيليا بأن فرنسا ذاهبة إلى الجزائر من أجل تأسيس مستعمرات ولربما دولة يحكمها أمير فرنسي ويرتبط مستقبلها بمستقبل فرنسا على أي حال. وفي يوم 25 مايو عام 1830م، غادرت الحملة الفرنسية ميناء طولون الحربي متجهة إلى الجزائر وهي تتألف من:

37000 جندي.
27000 بحار.
103 سفينة حربية.
572 سفينة تجارية فرنسية وغير فرنسية تحمل المؤن والذخائر والجنود.

ووصلت طلائعها الى شاطيء الجزائر في أوائل شهر يونيو فنزل الجنود إلى أرض شبه جزيرة سيدي فرج غربي مدينة الجزائر بـ 28 كيلمتر وذلك في يوم 13 من نفس الشهر. واحتلوا في الحين شبه الجزيرة كلها ومرتفعاتها واستولوا على المدفعية التي كانت منصوبة هناك ووزعوا قطع

أبطولهم على طول ساحل الخليجين حولها ثم أقاموا معسكرات خارج شبه الجزيرة ونصبوا المدافع على طول الخط للطريق الذي يؤدي الى العاصمة وجمعت السفن الحربية وراء هذا الخط لتحميه وترد كل هجوم متوقع من البر أو البحر في انتظار وصول بقية القوات التي ما تزال في عرض البحر أو في ميناء طولون.

ولما وصلت إلى الداي أخبار نزول الجيش الفرنسي بسيدي فرج أمر بإطلاق المدافع ايذانا بالخطر وطلب من قواته التي كانت تعسكر في قرية اسطاوالي (مصطفى والي) المواجهة لشبه الجزيرة، أن تستعد للمقاومة، وفي ظنه أنها ستقضي بسهولة على القوات الفرنسية بعد أن يتم تجمعها ويكتمل عددها على البر. وبنى ظنه هذا على التجارب السابقة وكان قد علم عن طريق بعض جواسيسه في باريس ومرسيليا بنوايا فرنسا العدوانية وأخبار الحملة قبل خروجها ببضعة أشهر، فأخذ يحشد القوات اللازمة وطلب الى بايات قسنطينة وتيطري أن يوافوه بنجدات، فحضر إليه باي قسنطينة على رأس قواته التي كانت تبلغ حوالي ثلاثة عشر ألف جندي، وبعث إليه باي تيطري وباي وهران بنفس العدد تقريبا، وجمع بالجزائر والمناطق المجاورة حوالي عشرين ألف جندي متطوع، وأسند القيادة على هذه القوات جميعا الى صهره وحفيده الآغا إبراهيم الذي لا يعرف أي شيء في الشؤون العسكرية وليست له خبرة في شؤون الحرب، وكان ممكنا للداي أن ينجح في المقاومة لو أنه التزم العمل بالأمرين التاليين:

1 ــ عدم امهال القوات الفرنسية التي نزلت الى البر حتى تكتمل لأن ذلك كان من أسباب رجحان كفتها وتمكنها من التمركز.

2 ــ اسناد القيادة لمن هو أكفأ كباي قسنطينة مثلا الذي ظهر من ملاحظاته وانتقاداته على خطط إبراهيم أنه كان على قدر كبير من الخبرة والمهارة.

وقد بنى إبراهيم خطته على إعطاء الاهمية لسلاح المدفعية المنصوبة على السواحل والقلاع، ووزع قواته بعد ذلك الى ثلاثة أقسام: قسم رابط ... عزون على أسوار المدينة، وقسم عسكر في المنطقة التي تمتد بين ... والمرتفعات المحيطة بالمدينة والقسم الثالث احتفظ به تحت قيادته هو ... وانتشر ما بين المدينة وسيدي فرج. وهكذا شتت إبراهيم قواته في حين أن الموقف كان يتطلب جمعها وتوحيد الرأي والقيادة، وهو ما لاحظه باي قسنطينة ونبه إليه. ولكن الآغا رفض بشراسة أن يسمح له وتقدم حتى ... الى اسطا والي وعسكر بمن معه من القوات صحبة باي قسنطينة وخليفة باي تيطري. وشاهد من هناك ما فعلته العواصف يوم 16 يونيو بالذخيرة و... الفرنسية التي كانت ما تزال على ظهر السفن إذ أتلفت جانبا كبيرا ... ولفظت الأمواج الى الشاطيء كثيرا من صناديق البارود المبللة ولم يحاول أن يستغل هذه الفرصة أو يعدل من خططه كما تتطلب الظروف.

وفي يوم 19 يونيو تقدم ديبورمون بقواته متباطئا حتى عسكر ... معسكر الآغا الذي عرف كل أسرار خططه وقواته واستعداداته عن طريق أربعة جنود وقعوا في قبضته وأدلوا له بعد التعذيب بكل ذلك. وعند التحم بقواته مع جيش الآغا تراجع الأخير بسرعة في حين واصل ديبورمون زحفه حتى استولى على معسكره في مصطفى والي بما فيه من الذخائر والمؤن وكان لذلك أثره السيء في نفس الداي حسين باشا فأمر بجمع القوات من جديد وتجميعها تحت قيادة مصطفى بومزراق باي تيطري في سيدي بوخالف بين العاصمة ومصطفى والي. وعندئذ تقدم ديبورمون بقواته في جهتين: شرقية وشمالية التقتا معا في سيدي بوخالف وأحكمتا الحصار على قوات الداي التي انهارت بسرعة، وبقي على ديبورمون أن يستعد لاحتلال العاصمة فتجمعت قواته يوم 28 يونيو غربي سيدي بوناقة وأخذت تزحف في اتجاهات مختلفة نحو قلعة القصبة ووجهت نيرانها إلى برج مولاي الحسن (قلعة الأمبراطور) الذي كان يحمي قلعة القصبة مركز حكومة الداي وذلك منذ يوم 3 يوليو، ولم يكفوا عن قذفه حتى أسكتوا كل المدافع التي كانت

منصوبة فوقه وسقط في أيديهم ونصبوا عليه مدافعهم في اتجاه باب عزون (رأس تورة) التي سقطت هي الأخرى في أيديهم وأصبح الطريق ممهدا سهلا إلى المدينة ولم يبق إلا بعض المدافع الصغيرة المنصوبة على أسوار القصبة لا تستطيع ولا تكفي للمقاومة الجديدة.

وتحرج الموقف في المدينة بانتشار الفوضى، وتأزمت الحال بين الداي والأهالي. وكان من رأي الداي أن يستمر في المقاومة ولكن كثيرا من الناس ألحوا عليه وهددوا بإجابة طلب الفرنسيين، فأرسل الباش كاتب مصطفى بوجه إلى ديبورمون ليعرض عليه مشروعا للصلح بالشروط التالية:

1 — يتنازل الداي عن كل الديون التي له على فرنسا.
2 — يدفع نقدا كل ما يطلب منه بشأن الاعتذار عن حادث دوفال.
3 — يعيد للتجارة الفرنسية جميع امتيازاتها السابقة.
4 — يدفع لفرنسا جميع نفقات الحملة.

ولكن ديبورمون رفض هذه العروض وأصر على ضرورة تسليم الحصون والميناء والقصبة له، فحضر إليه شخصان آخران هما أحمد بوضربة وحسان بن عثمان وعرضا عليه أن ينقلا له رأي الداي الجديد فامتنع وأكد له لا يريد ولا يقبل سوى تسليم المدينة له. وعاد رسول الداي مرة ثالثة إليه بصحبة القنصل الانجليزي ونائبه وطلب منه أن يقدم للداي شروطا مكتوبة حتى يطلع عليها ويقر ماذا سيفعل فقدم إليه وثيقة بالشروط التالية:

1 — يسلم الداي إلى القوات الفرنسية قلعة القصبة والميناء وحصون المدينة كلها وأبوابها في صباح يوم 5 يوليو.
2 — يتعهد القائد العام بحفظ حياته وحياة ممتلكاته الشخصية.
3 — ويخير الداي بعد ذلك بين أن يبقى في المدينة مع أسرته في حماية القائد العام أو يرحل بها وبمن يلوذ به إلى أي مكان يريده.
4 — يقر القائد العام لجميع الجنود الأتراك نفس الحماية.

5 — يعد القائد العام بشرفه أن يحفظ حرية الدين الاسلامي وأملاك الأهالي وتجارتهم وصناعتهم وأن يحترم نساءهم وحرماتهم.

وبمجرد أن اتصل الداي بهذه الشروط وقعها وسلم المدينة الى القائد العام في اليوم الموالي 5 يوليو 1830م على الساعة العاشرة صباحا، وغادر هو الجزائر يوم 10 من نفس الشهر إلى نابولي فالإسكندرية حيث قضى بقية حياته حتى توفي فيها عام 1838م.

وبرحيل الداي حسين عن الجزائر رحل معظم الجنود الأتراك كذلك من البلاد. أما القوات الفرنسية فبمجرد أن دخلت المدينة وضعت يدها على خزائن الداي والدولة بعد أن نالتها يد النهب من طرف بعض الجنود والضباط. وقد قدر ما فيها من الأموال بمائة مليون فرنك ثم هبط هذا العدد إلى 48 مليون وأثار ذلك الشكوك في أمانة ديبورمون نفسه فتكونت لجنة تحقيق برأته من تلك التهمة وأقفل الموضوع حرصا على سمعة جيش الإحتلال والضباط. واقترح ديبورمون أن تقسم تلك الأموال على ضباط الحملة وجنودها كما توزع عليهم بعض أراضي الدولة. ولكن الحكومة الفرنسية عارضت الفكرة فبعث ديبورمون إلى باريس 43 مليون فرنك كتغطية لنفقات الحملة واحتفظ بخمسة ملايين لتسيير الادارة.

وكان ممكنا أن يحصل تطور دولي جديد في المشكلة بعد أن وصلت الى هذا الحد، وأن يوضع حد للاستعمار الفرنسي في افريقيا كلها لولا التطور الخطير الذي حصل في فرنسا وأدى إلى تغيير ملحوظ في السياسة الدولية نفسها، ذلك هو قيام ثورة يوليو عام 1830 في باريس التي أطاحت بشارل العاشر وحكومته وأحدثت آثارا خطيرة في العلاقات الدولية وفي مركز فرنسا نفسها. فأوقفت الحكومة الانجليزية معارضتها وخصومتها الشديدة لفرنسا فيما يخص القضية الجزائرية، وتحول الرأي العام الفرنسي الى النظر إلى مشكلة الجزائر من زاوية المصلحة الفرنسية الاستعمارية. وتشجعت فرنسا حينئذ على التمسك باحتلال الجزائر ولكنها ترددت قليلا

من يكتفي بالاحتلال المحدود، أم تتوسع حتى تسيطر على البلاد كلها، ثم اختارت الحل الثاني وسارت في ميدان التوسع خطوات كبيرة حتى كونت لنفسها امبراطورية فرنسية كبيرة في افريقيا.

وفيما يلي أسماء الولاة الأتراك في الجزائر حسب العصور وتاريخ التولية والانتهاء.

أ ـــ ولاة الفتح والبايلري باي

1 ـــ بابا عروج	1512 ـــ 1818م
2 ـــ خير الدين	1518 ـــ 1534م
3 ـــ محمد حسن آغا	1534 ـــ 1544م
4 ـــ حسن باشا بن خيرالدين	1544 ـــ 1551م
5 ـــ صالح رايس	1552 ـــ 1556م
6 ـــ حسن قورصو	1556 ـــ 1557م
7 ـــ حسن باشا (مرة ثانية)	1557 ـــ 1561م
8 ـــ أحمد باشا بسطانجي	1561 ـــ
9 ـــ القائد يحيى (مؤقتا)	1561 ـــ
10 ـــ حسن باشا (مرة ثالثة)	1562 ـــ 1567م
11 ـــ محمد بن صالح رايس	1567 ـــ 1568م
12 ـــ قلج علي	1568 ـــ 1572م
13 ـــ عرب أحمد	1572 ـــ 1574م
14 ـــ القائد رمضان	1574 ـــ 1577م
15 ـــ حسن فنزيانو	1577 ـــ 1580م
16 ـــ جعفر باشا	1580 ـــ 1582م
17 ـــ قائد رمضان (مرة ثانية)	1582 ـــ
18 ـــ مامي الأرناؤوط	1582 ـــ
19 ـــ حسن فنزيانو (مرة ثانية)	1583 ـــ 1587م

ب ـ ولاة عهد الباشاوات

1 ـ دالي أحمد باشا	1587 ـ 1589م
2 ـ الخضر باشا	1589 ـ 1592م
3 ـ الحاج شعبان	1592 ـ 1595م
4 ـ مصطفى باشا	1595 ـ
5 ـ الخضر باشا (مرة ثانية)	1595 ـ 1599م
6 ـ دالي حسن أبو ريشة	1599 ـ 1600م
7 ـ سليمان باشا	1600 ـ 1603م
8 ـ الخضر باشا (مرة ثالثة)	1603 ـ
9 ـ محمد قوصه	1603 ـ 1605م
10 ـ قوصه مصطفى القاحي	1605 ـ 1607م
11 ـ رضوان باشا	1607 ـ 1610م
12 ـ قوصه مصطفى (مرة ثانية)	1610 ـ 1611م
13 ـ مصطفى باشا	1611 ـ 1613م
14 ـ حسين الشيخ	1613 ـ 1616م
15 ـ مصطفى خزناجي	1616 ـ 1617م
16 ـ سليمان قاطانيا	1617 ـ 1618م
17 ـ حسين الشيخ (مرة ثانية)	1618 ـ 1619م
18 ـ الخضر باشا	1620 ـ 1621م
19 ـ مصطفى حافظ قصور	1621 ـ
20 ـ حسين باشا	1621 ـ 1623م
21 ـ مراد باشا	1623 ـ 1624م
22 ـ ابراهيم باشا	1624 ـ 1625م
23 ـ خصرف باشا	1625 ـ 1626م
24 ـ حسين باشا (مرة ثانية)	1626 ـ 1634م
25 ـ يوسف باشا	1634 ـ 1637م

26 — علي باشا	1637 — 1639م
27 — الشيخ حسن باشا	1639 — 1640م
28 — أبو جمال يوسف باشا (مرة ثانية)	1640 — 1642م
29 — محمد بورصالي باشا	1642 — 1644م
30 — أحمد باشا	1644 — 1647م
31 — أبو جمال يوسف (مرة ثالثة)	1647 — 1650م
32 — محمد باشا	1650 — 1653م
33 — أحمد باشا	1653 — 1655م
34 — ابراهيم باشا	1656 — 1659م

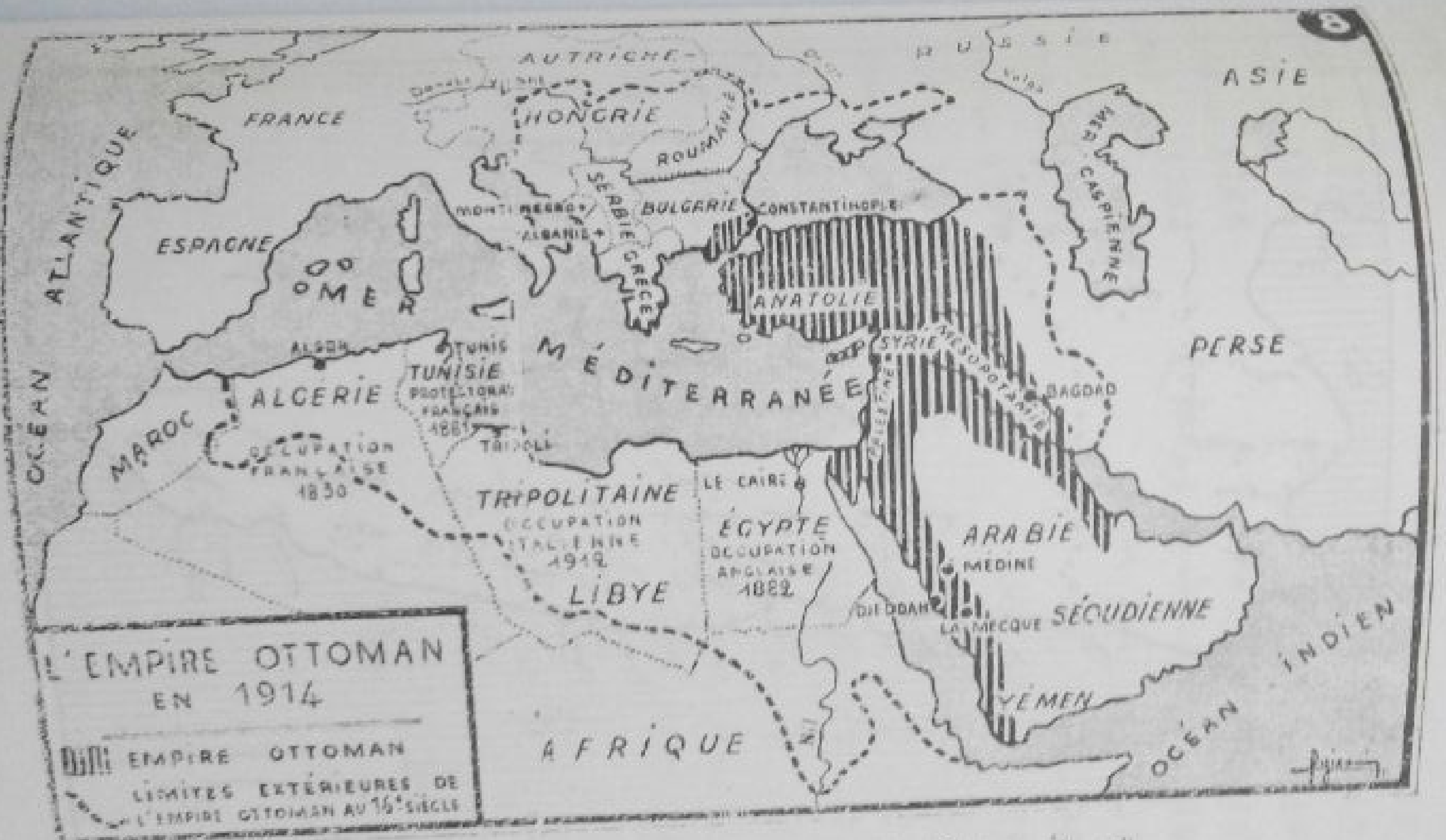
ج — ولاة عهد الآغاوات

1 — خليل آغا	1659 — 1660م
2 — رمضان آغا	1660 — 1661م
3 — شعبان آغا	1661 — 1665م
4 — علي آغا	1665 — 1671م

هـ — ولاة عهد الدايات

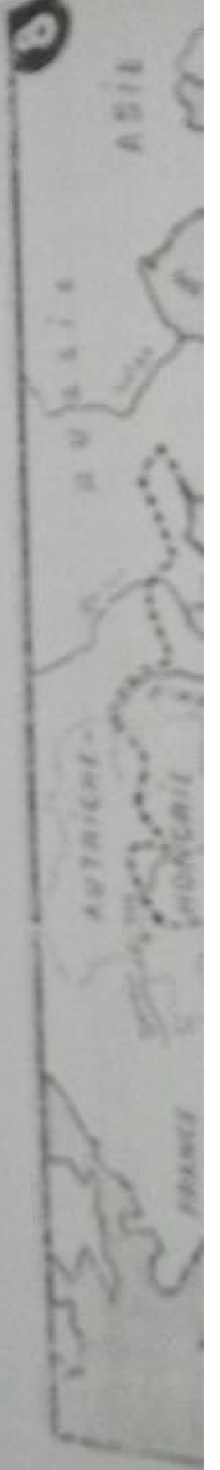
1 — الحاج باشا	1671 — 1682م
2 — بابا حسن باشا	1682 — 1683م
3 — الحاج حسين باشا ميزومورتو	1683 — 1688م
4 — الحاج شعبان باشا	1688 — 1695م
5 — الحاج أحمد باشا	1695 — 1698م
6 — حسن باشا الشاوش	1698 — 1700م
7 — الحاج مصطفى باشا	1700 — 1705م
8 — حسين خوجة باشا	1705 — 1710م
9 — محمد بقطاش باشا	1707 — 1710م

10 — علي باشا شاوش	1710 — 1718م
11 — محمد بن حسن باشا	1718 — 1724م
12 — كرد عبدي باشا	1724 — 1733م
13 — إبارهيم باشا	1733 — 1745م
14 — إبراهيم باشا كوجوك	1745 — 1748م
15 — محمد بكير باشا	1748 — 1754م
16 — علي باشا ملمولي (بوصباع)	1754 — 1766م
17 — محمد عثمان باشا	1766 — 1791م
18 — حسن باشا	1791 — 1798م
19 — مصطفى باشا	1798 — 1805م
20 — أحمد باشا	1805 — 1808م
21 — علي باشا الغسال	1808 — 1809م
22 — الحاج علي باشا	1809 — 1815م
23 — عمر باشا	1815 — 1817م
24 — علي خوجة	1817 — 1818م
25 — حسين باشا	1818 — 1830م



الغزو الأوربي لممتلكات الدولة العثمانية في شمال افريقيا وشرق أوروبا في القرن ١٩م

الملاحق



الملحق الأول

أسطول دار الجهاد جزائر الغرب المحروسة

921 ــ 1245هـ

1516 ــ 1830م

البوادر الأولى في القديم:

بدأت البحرية المغاربية تظهر على الساحة المتوسطية منذ أن وصل الفينيقيون إلى إفريقيا (تونس الحالية) أواخر القرن التاسع قبل الميلاد، وأسسوا مدينة قرطاجنة وكونوا دولتهم البحرية التجارية التي مارست العمل التجاري البحري بشكل واسع في كل عالم البحر المتوسط شرقه وغربه، ومارست الحروب البحرية ضد الأساطيل الرومانية فيما عرف بالحروب الصقلية (580 ــ 306 ق.م)، والحروب البونية أو البونيقية الثلاثة (264 - 146 ق.م).

وعن الفينقيين القرطاجنيين أخذ أهالي البلدان المغاربية، مهنة العمل البحري في التجارة وبناء السفن، واصلاحها، وقيادتها والتجديف، والسفر الى المياه البعيدة. وظهرت إلى الوجود لأول مرة موانىء بحرية هامة على طول السواحل المغاربية من ليبيا الى قادس مثل: لبتيس الصغرى (لمطة) ولبتيس الكبرى، (بلبيبا) أو لوبيا، وحدرموت (سوسة) وأوتيكة (بوشاطر) وهيبوزياريت (بنزرت) بتونس أو افريقيا أو المغرب الأدنى، وهيبو ريجيوس (بونة وعنابة)، ورروسكادي (سكيكدة)، وشولوا (القل)، والجيجلي (جيجل)، وصلداي (بجاية) ودللس، وتيقزيرت، ويول (شرشال) وتنس، والمرسى

الكبير، والمرسى الصغير (وهران) بالمغرب الأوسط أو الجزائر، أو جزر الغرب. وروسادير (مليلية)، وسبتة، وتنجيس (طنجة)، وسلا، وجنوب (أقادير) بالمغرب الأقصى[1].

وقد اكتسب سكان الجزائر القدماء وباقي البلدان المغاربية خبرات مهمة في السفن، واصلاحها وقيادتها، والعمل عليها، وممارسة التجارة، كما اكتسبوا خبرات خوض الحروب البحرية الى جانب القرطاجيين ضد الرومان في الحروب الصقلية والبونيقية. وتوسعت هذه الخبرة خلال الحكم الروماني والبيزنطي الذي استمر ما يقرب من سبعة قرون. ومن أبرز القواعد البحرية في هذه الفترة بالجزائر: المرسى الكبير، والمرسى الصغير (وهران)، وأرزيو، وتنس، وشرشال، وتيبازة، ودللس، وتيقزيرت وبجاية والقل، وجيجل، وهيبون، التي كانت تعج بالنشاط البحري التجاري والحربي حسب الظروف والمناسبات والحوادث.

تطور البحرية المغاربية في العهد الاسلامي الوسيط:

وعندما ظهر الاسلام وانتشر في شبه جزيرة العرب، وبلاد الشام. ومصر، اهتم المسلمون بانشاء أساطيل بحرية لمواجهة التحرشات البحرية البيزنطية، وخاضوا معركة ذات الصواري البحرية لأول مرة عام 35هـ (655 ــ 656م) ضد الأسطول البيزنطي في الشواطئ الشمالية الشرقية للبحر المتوسط، ثم أخذوا يغزون ويهددون مدينة بيزنطة نفسها عاصمة الدولة البيزنطية منذ عهد الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه. أوائل القرن الأول الهجري ومنتصف السابع الميلادي بزعامة معاوية بن أبي سفيان والي الشام.

---

(1) انظر يحي بوعزيز: الموجز في تاريخ الجزائر (الجزائر ــ المطبوعات الوطنية ــ 1965)، ص 26 ــ 27.

ومن المشرق الاسلامي وصل الاسلام الى البلدان المغاربية في شمال افريقيا الغربي وانتشر بين السكان وتأصل في نفوسهم وأسس القائد الاسلامي الكبير عقبة بن نافع الفهري مدينة القيروان كعاصمة سياسية لهذه البلدان المغاربية، وأخذ البيزنطيون يتحرشون ضد الحكم الاسلامي بها، واستشهد القائد الاسلامي زهير بن قيس البلوي، وهو يحارب ضدهم في ميناء برقة بليبيا حوالي عام 76هـ (695م). فاهتم حسان بن النعمان بعده بالأمر (77 — 85هـ = 696 — 704م) وأسس في مدينة تونس دار الصناعة لبناء السفن والمراكب البحرية، ونسج الحبال اللازمة لها، لكي يستطيع مواجهة التحرشات البيزنطية التي ثبت أنها وراء تمرد كل من كسيلة، والكاهنة دهيا، الأوراسيين. ومن أعمال حسان في هذا الميدان هو تخريب مدينة قرطاجنة وإحراقها حتى يقطع كل أمل للبيزنطيين في العودة إليها، وهي المرة الثالثة والأخيرة التي تحرق فيها وتخرب هذه المدينة.

وفي عهد موسى بن نصير، وطارق بن زياد 84 — 95هـ (704 — 713م)، تخطو البحرية المغاربية خطوة أخرى إلى الامام، ويتم تدعيمها بمجموعة من المراكب، وعدد من البحارة، وتتولى نقل جيش طارق بن زياد، ومن بعده موسى بن نصير، إلى شبه جزيرة ايبيريا ذلك الجيش الذي فتح بلاد الأندلس، وأوصل الاسلام وكلمة التوحيد الى ما بعد جبال البيريني أو البرانس كما يسميها المسلمون، وتكونت دولة اسلامية كبرى هناك عمرت أكثر من ثمانية قرون، ودفعت بعجلة الحضارة الانسانية الى الامام بخطوات عملاقة.

ثم تأتي بعد ذلك مرحلة أخرى في عهد الوالي والقائد الاسلامي عبدالله بن الحبحاب عام 114هـ (732 — 733م)، الذي طور دار الصناعة التي أنشأها قبله حسان بن النعمان واهتم ببناء المراكب البحرية وإصلاحها، وبتوفير التجهيزات البحرية كالحبال والأخشاب، وإعداد

البحارة والمجدفين فظهر الى الوجود أسطول مغاربي كبير العدد، موفور العدة سيكون له الأثر الفعال في مستقبل الدولة الاسلامية بهذه البلاد المغاربية وفي الحوض الغربي للمتوسط كله.

وقد نما هذا الأسطول المغاربي نموا سريعا بعد أن تكونت الدولة الاسلامية الكبرى بالأندلس، وتوثق التعاون بين العدوتين: المغربية والأندلسية، وبلغ عدد المراكب في عهد الخليفة الأموي عبدالرحمن الناصر الذي حكم الأندلس نصف قرن بكاملة من سنة 300 إلى 350 هـ (912 ـ 962م)، مائتي مركب بما فيها المراكب المغربية أو المغاربية، وواكب الأحداث والتطورات وتحمل عبء حماية الشواطىء الاسلامية، وتنشيط حركة التجارة بين الشرق والغرب، ونقل القوات الاسلامية الى المناطق المختلفة في مرحلة الفتوحات الاسلامية الكبرى.

وبفضل هذه القوات البحرية الاسلامية المغاربية تمكن الأغالبة من فتح جزيرة صقلية، والجنوب الايطالي على عهد الأمير زيادة الله الأول وذلك بقيادة القاضي الافريقي أسد بن الفرات أواخر القرن الثاني الهجري ومطلع التاسع الميلادي. وتمكن الفاطميون بعدهم، والصنهاجيون والحماديون، من مواصلة نفس المهمة والرسالة. وربط الصلات التجارية الوثيقة مع الأندلس الاسلامي غربا، ومع البلدان العربية الاسلامية شرقا، وبعض البلدان الأوروبية الجنوبية شمالا مثل جنوة، وبيزة، وبالرمو، ونابولي، وكذلك فرنسا الجنوبية.

وفي عهد الخليفة الموحدي عبدالمؤمن بن علي الكومي، الندرومي أصبح الأسطول المغاربي قوة بحرية عظمى لا مثيل لها يحسب له ألف حساب وحساب، وذلك خلال القرنين السادس الهجري والثاني عشر الميلادي وأصبحت موانئ: المعمورة، وسلا، والرباط، وطنجة، وسبتة، ومليلية، ورشقون، وهنين، والمرسى الكبير، ووهران، وأرزيو، وتنس، وشرشال

بجاية، وعنابة، وتونس، قواعد بحرية هامة للأسطول الاسلامي المغاربي يتم فيها بناء السفن الجديدة، واصلاح القديمة، وتجهيز البحارة واعدادهم للعمل البحري التجاري والعسكري.

وبهذا الأسطول الاسلامي المغاربي الكبير تمكن عبدالمؤمن عام 555هـ (1160م) من محاصرة النورمان بالمهدية تسعة أشهر الى أن تمكن من قهرهم، وطردهم من المدينة وباقي الموانئ التونسية، وطهرها من الوجود المسيحي وأعادها للسيطرة الاسلامية كما كانت.

وفي عام 1162 (558 — 559هـ) أمر عبدالمؤمن ببناء مائة مركب في موانئ: المرسى الكبير، ووهران، وأرزيو، ومائة وعشرين مركبا، في المعمورة، وستين مركبا في طنجة ومائة مركب في موانئ الريف المغربي الأخرى، وثمانين مركبا في بعض موانئ الأندلس، وذلك استعدادا لقطع الجواز إلى الأندلس وتأديب النصارى الاسبان وحلفائهم(1).

أسطول جزائر الغرب المحروسة أو دار الجهاد:

ورث بنو عبدالواد الزيانيون بتلمسان قسما من الأسطول الموحدي عندما أقاموا دولتهم عام 1236م، ولكنهم لم يقوموا بدور مهم يذكر في ميدان الحروب والتجارة البحريتين. نظرا للضغوط الكثيرة المسلطة عليهم وعلى دولتهم وامارتهم من طرف أشقائهم الحفصيين بتونس، والمرينيين والسعديين بالمغرب الأقصى. وذلك من ضمن العوامل التي أعطت التفوق للأساطيل البحرية القشتالية. ومكنتها من التحرش والاعتداء على معظم موانئ البلاد المغاربية واحتلالها خلال القرنين الخامس عشر والسادس عشر. واختل التوازن في القوى، وعمت الفوضى واشتد التطاحن بين البلدان المغاربية بدلا من التضامن والتعاون والتكاتف وصار الأمر خطيرا جدا وينذر

(1) يحيى بوعزيز: وهران عبر التاريخ. (الجزائر — 1985)، ص 42 — 43.

بكارثة كبرى، لولا أن قيض الله ثلاثة من الأخوة أتراكا، وهدى الله ذوي الرأي والمشورة في جزائر بني مزغنة، فتوجهوا إليهم في جيجل واستنجدوا بهم ضد الخطر الاسباني المسلط عليهم. وذلك عام 1516، فاستجابوا للدعوة مشكورين، وأنجدوا البلاد والشعب وغيروا صفحة التاريخ رأسا على عقب في هذه البلاد.

فقد تمركز هؤلاء الأخوة في جربة منذ عام 1502 لمحاربة القراصنة الأوروبيين ثم انتقلوا شمالا إلى حلق الوادي، وفي عام 1513 افتكوا جيجل من الجنويين، ونقلوا قواتهم البحرية إليها، وحاولوا ثلاث مرات تحرير بجاية من الاسبان المحتلين، فلم ينجحوا وفي عام 1516 استقروا بمدينة جزائر بني مزغنة التي ستعرف فيما بعد بالجزائر. وكان معهم حوالي أربعة عشر مركبا حربيا هي نواة اسطول جزائر الغرب المحروسة أو دار الجهاد، كما يسميها الإخوة الأتراك[1].

لقد كان قدوم هؤلاء الأخوة الأتراك الثلاثة: عروج، وخيرالدين وإسحاق، نصرا من السماء، بالنسبة للجزائر، وتونس، وطرابلس، التي وقعت معظم موانيها البحرية تحت سلطة الاحتلال الاسباني الصليبي المتكالب على هذه البلاد وأهلها، بروح صليبية شرسة وبقرصنة لا عهد لها في التاريخ اطلاقا[2]. فأنشأوا مجموعة من المراكب البحرية بوسائل مختلفة في البداية، وتمركزوا بها في مدينة الجزائر، التي طوروا ميناءها، وحصنوه وسلحوه ودعموه بالبطاريات، والمدافع، واتخذوه قاعدة حربية هامة

---

(1) يحيى بوعزيز: موجز... ص 32. وكذلك علاقات الجزائر الخارجية 1500 ـ 1830 (الجزائر 1985) ص 14 و 33 ـ 36.

(2) عن الغارات والهجومات الأوروبية على الجزائر وبلدان المغرب. انظر كتابنا: علاقات الجزائر الخارجية، ص 10 ـ 19.

... المراكب الجديدة وإصلاح القديمة والمعطوبة، وتجهيزها، كما اتخذوا تلك موانئ: شرشال، ودللس، وبجاية، وجيجل، وسكيكدة، وعنابة، وتنس، قواعد لهذا الأسطول البحري الجزائري الحديث الذي سيلعب دوره الرائد والممتاز في معظم أحداث حوض البحر المتوسط لمدة ثلاثة قرون وزيادة. لأن أداة المواجهة في تلك الفترة هي المراكب البحرية، ومصدر الغزو، والعدوان، والغارات، هو البحر. وقد نما أسطول جزائر الغرب المحروسة، وتطور بمرور الزمن، عدة وعددا، وتجهيزات، وأسست عدة ورش لبناء المراكب وإصلاحها في باب الواد، وباب عزون، بمدينة الجزائر، وفي مدينة شرشال كذلك، ولا يستبعد ان تكون هناك ورش أخرى في الموانئ الجزائرية الأخرى، ويستجلب الخشب اللازم لبناء السفن والمراكب، من غابات شرشال، وجبال جرجرة، وبجاية، وجيجل، والقل، والبابور، وكانت عائلة بني حيلس بالبابور، وعائلة أولاد مقران بمجانة في البيبان من العائلات التي كانت تزود ورش بناء السفن بالأخشاب اللازمة. وذلك بتعاقد مع الحكومة بالجزائر العاصمة، وإلى جانب ورشة بناء السفن استحدثت ورشة لصناعة المدافع بجوار باب الواد عرفت باسم دار البارود، لأنها يصنع بها كذلك البارود، والذخيرة الحية، وبعض قطع الغيار(1).

وقد اعتمدت الجزائر في تطوير أسطولها البحري على التجهيزات المحلية أولا، وعلى الاتفاقات، والمعاهدات الثنائية التي تبرمها مع البلدان الأوروبية، للتزود بقطع الغيار وكل التجهيزات البحرية المختلفة، ومن هذه الدول: الدانمارك، والسويد، وانجلترا، وهولندا، وفرنسا، وها مبورق، وبريم، وجنوة، والبندقية، وليفورن، ونابولي، واسبانيا وأمريكا، فيما بعد. وبالطبع فإن الدولة العثمانية كانت على رأس القائمة تزود الجزائر باستمرار، بالمراكب، والتجهيزات البحرية، والبحارة.

---

(1) Moulay BELHAMISSI: histoire de la marine algerienne 1515-1830 (Alger. E.N.A.L. 198[illegible]) pp. 49-50.

نماذج من التجهيزات البحرية الأوروبية للجزائر:

كانت السويد، والدانمارك، وهولندا، وأنجلترا، من أكثر الدول الأوروبية التي كانت تزود الجزائر بكثير من التجهيزات البحرية، لسنوات طويلة مثل: الأخشاب، والأشرعة، والصواري، ومادة البارود، والقذائف، والقنابل، والحبال والكابلات الحديدية، وغيرها.

ففي عام 1680م زودت هولندا الجزائر بالتجهيزات التالية:

16 مدفعا حديديا و 8 مدافع من البرونز، و 8 مدافع عيار 50 رطلا بالنسبة لقذائفها و 24 مرصاد Affuts، و 12 ألف قنبلة، و 600 ألف بارود و 800 بندقية .و 400 شفرة سيف و 25 حبلا غليظا من نوع الكابلات.

وفي عام 1746 زودت الدول العامة الجزائر بالتجهيزات التالية:

140 قطعة خشب كبيرة، و 400 قطعة خشب ذات مقاس 4 بوصات، و 600 قطعة قماش للأشرعة و 80 ألف رصاص و 60 ألف بارود، و 60 صاريا كبيرا و 35 حبلا غليظا من نوع قرولين: Greline.

وفي عام 1731 زودت السويد الجزائر بمايلي:

800 برميل بارود، و 800 بندقية، و 6000 قنبلة و 50 صاريا و 8 كابلات و 40 مدفعا(1).

وفي عام 1746 كذلك زودت الدانمارك الجزائر بالتجهيزات التالية تنفيذا للمعاهدات التي أبرمت بين البلدين:

---

(1) بلحميسي، ص 51.

.50 صاريا، و 20 مدفعا حديديا من عيار 20 رطلا بالنسبة لقذائفها، و 90 مدفعا حديديا عيار 12 رطلا. و 8 آلاف قذيفة لتلك المدافع من النوعين أو العيارين، و 100 ألف بارود. و 4 آلاف قنبلة ذات وزن 100 إلى 150 رطلا، و 4 مدافع هاون (مورتي MORTIERS) و 2 ألف طاولة من نوع 4 بوصات، و 500 قنطار حبالا و 10 حبال ذات غلظ 10 بوصات، و 30 حبلا ذات غلظ 5 إلى 8 بوصات.

والتزم ملك الدانمارك بأن يرسل الى الجزائر سنويا 50 ألف بارود، و 25 حبلا من نوع قريليس و 8 آلاف قذيفة.

وبمقتضى معاهدات أعوام: 1747 و 1748 و 1749م، التزم كذلك بتقديم تجهيزات معتبرة وأرسل لها عام 1747 مدافع هاون مخالفة للمقاسات التي طلبها الداي فرفضت تسلمها لأنها طلبت مدافع من البرونز. وجيء لها بمدافع حديدية، وقد حددت مهلة ستة أسابيع لاحضارها[1].

وفي عام 1749 احضرت هولندا جزية الدول العامة على ظهر أربعة مراكب.

وفي عام 1751 تعهدت امارة هامبورق الألمانية بتقديم التجهيزات التالية سنويا.

24 ألف بارود، و 100 قطعة قماش للأشرعة، و 35 ألف حبل، و 10 كابلات حديدية، ومثلها غير حديدية، و 34 ألف رصاص و 10 صواري، و 30 قارية (اثنين) للملاحة، و 800 قنبلة من أحجام مختلفة، و 56 ألف حبل.

---

(1) نفس المصدر، ص 51.

وفي عام 1747 قدمت السويد للجزائر التجهيزات التالية:

70 صاريا، و 903 حبلا للحزم و 80 حبلا آخر للحزم، و 170 لوحة خشب وعارضة. و 50 ألف بارود، و 294 برميل زفت: Poix و 200 برميل قطران و 20 ألف قذيفة ذات أحجام: 6 و 12 و 18 رطلا.

وفي عام 1778م أحضر مركب أنجليزي للجزائر التجهيزات التالية:

50 مدفعا حديديا منها: 18 ذات عيار 12 رطلا زنة كل واحد منها 22 قنطارا ومجموع وزنها كلها 565 و 64 رطلا، و 60 مدفعا ذات عيار 6 رطلا، زنة كل واحد منها 12 قنطارا ووزنها كلها 7961 رطلا، و 16 مدفعا ذات عيار 8 رطلا، زنتها كلها 950 و 34 رطلا ووزن المدافع 18 كلها: 1074 قنطارا و 75 رطلا. وثمنها 5 كيلات للقنطار الواحد من الحديد يضاف إليها ثلاث مخاطف ANCRES بنفس السعر. وبذلك كان ثمن المدافع 5373 كيلة من القمح، وثمن المخاطف 5506 كيلة من القمح الذي تم شراؤه من عنابة خلال شهر صفر من عام 1192هـ (مارس 1778م)(1).

وقد اقترحت انجلترا على الجزائر ان تزودها بمعدات للسفن متنوعة حديدية، وفولاذية، وبالكبريت، والبارود. وواصل تجار مرسيليا تزويد الجزائر بكل احتياجاتها من التجهيزات البحرية المختلفة. وقدمت انجلترا للجزائر في يوم 3 شعبان 1201هـ (21 ماي 1787م) التجهيزات التالية: 4 مدافع ذات عيار 40 رطلا، و 200 برميل بارود، كل واحد يزن نصف قنطار. و 400 قنبلة من عيار تلك المدافع(2).

---

(1) دفتر التشريفات: نقلا عن توفيق المدني: محمد عثمان باشا ط2 (الجزائر 1986) ص 175 – 178.
(2) نفس المصدر: ص 152، وكذلك بلحميسي. ص 52 — 53.

نماذج من التجهيزات البحرية العثمانية للجزائر:

لقد كان من عادة الدولة العثمانية انها تجهز الجزائر تقريبا كل سنة بمراكب، والتجهيزات البحرية المختلفة والمتنوعة خاصة عندما ترسل قفطان وفرمان التولية للوالي الجديد أو عندما تعود مراكب الجزائر التي حملت إلى السلطان الدنوش (الهدايا) أو الباشكاتش الدورية أو التي ذهبت نجدة للسلطان في حروبه ضد أعدائه الأوروبيين.

فبعد إلحاق الجزائر بالدولة العثمانية عام 1518، أرسل السلطان العثماني سليم الأول إلى خير الدين باشا مع قفطان التولية بايلربايا، مجموعة من المدافع، والبنادق وكميات من الذخيرة وألفي جندي الكشاري من بولداش ليساعدوه على إقرار النظام ودعم سلطته الجديدة. وتوالت بعد ذلك مساعدات السلطان للجزائر على مدى ثلاثة قرون كاملة وزيادة وفيما يلي نماذج من ذلك:

– ففي يوم 15 رجب 1180هـ (17 ديسمبر 1766م) أرسل السلطان العثماني إلى الداي محمد عثمان باشا التجهيزات التالية كهدية على سفينة هولندية:

8 مدافع: أربعة حديدية، وأربعة نحاسية، اثنان من نوع الهاون (مورتي) عيار 200 واثنان عيار 100، واثنان عيار 32، واثنان عيار 14، و19 صاريا كبيرا، و38 صاريا صغيرا، و 250 مجدافا صغيرا، و 200 مجدافا كبيرا، و 250 عودا للحمالين، و 22 عودا لدفة السفن و 60 محلة للمدافع، و 1577 قذيفة مدفع، و 100 قنطار من العلك اليابس (الصمغ العربي).

وفي يوم 25 شوال 1180هـ (26 مارس 1767م) وصلت الى الجزائر سفينة فرنسية وأخرى ساردينية قادمتين من اسطمبول بهدايا السلطان

والدولة العثمانية إلى الجزائر هي: 10 قطع من الخشب لصنع ركائز مدافع الهاون، و 6 مخاطف لرسو السفن، و 26 قاعدة للسفن و 139 قطعة سعوان، و 5000 منفذ Dégorgoir و 3715 رطلا من القنب Chanvre لصنع الحبال، و 3030 رطلا من الحديد، و 5000 قنبلة، و 22 صارية و 87 قاعدة خشبية لعربات المدافع، و 2540 قنطارا من المسامير الخشبية و 150 برميلا من العلك، (الصمغ العربي) و 45670 رطلا من الحديد و 7000 رطلا من المسامير النحاسية، و 17880 رطلا من القصدير و 145 قاعدة خشبية للمدافع، و 50 قربة من الزفت أو القار المعدني.

وفي شهر أوت عام 1748 أرسل السلطان العثماني مع قبطان الدولة التجهيزات التالية: 4 مدافع من حديد الزهر ذات عيار 6 أرطال، و 4 مدافع هاون كبيرة، و 400 قنبلة و 100 ألف من القنب chanvre ومثلها حديد، و 3000 أتين للملاحة وقطران وصمغ(11).

وفي العام الموالي 1749م أحضرت السفينة الفرنسية جان فيليب من اسطنبول تجهيزات متنوعة ومؤنا حربية من ضمنها: 165 ألف بارود، و 30 مدفعا كبيرا من حديد الزهر، و 6 مدافع هاون، و 800 قنبلة و 30 قنطارا، و 70 ألف فليس Filesors واثنيات (نظارات) وأخشاب وصواري.

وفي يوم 5 رجب 1198 (25 ماي 1784م) تسلم الداي محمد عثمان باشا التجهيزات التالية من السلطان العثماني على سفينة سردينية وهي: 500 قنطار نحاس، و 18 خشبة مثلثة الشكل لصواري مؤخرة المراكب، و 6 صواري كبيرة، و 104 خشبة لقواعد المراكب، و 500 قنطار أسلاكا حديدية، و 200 قنطار من الزفت (قار معدني) و 452 مجدافا، و 205 عودا للحمالين، و 538 قنطارا بارودا، و 200 قنطار علك.

---

(11) يذكر المترجمات نقلا عن وهبي التلي: محمد عثمان باشا، ص 150–151.

وقد دفع حسن وكيل الخرج مبلغ 6150 قرشا إيجارا للسفينة الساردينية يوم 6 رجب 1198هـ. ودفع لمصطفى باشا مبلغ 1025 محبوبا فيه مشتريات للداي محمد عثمان باشا وذلك يوم 21 رجب 1198هـ.

وفي يوم 2 شوال 1199هـ (8 أوت 1785م) وصلت إلى الجزائر التجهيزات التالية من السلطان العثماني، وتسلمها سليم آغا على سفينة ساردينية كذلك وهي: 450 قنطارا من البارود و 300 قنطار رصاص، و 50 قنطار نحاس، و 20 ألف قنبلة و 10 مدافع. ودفع حسن وكيل الخرج مبلغ 7 آلاف قرش إيجارا للسفينة يوم 13 شوال من نفس الشهر (19 أوت 1785م)(1).

وفي عام 1819 طلب الداي حسين من السلطان العثماني التجهيزات التالية مع عدد من خبراء بناء السفن، والجنود البحارة، وبعض المراكب الحربية، وهي: 40 مدفعا من النحاس، 3 آلاف قنبلة عيار 18. و 3 آلاف قنبلة عيار 16. و 1300 قنبلة عيار 12. و 6 مدافع مقنبلة OBUS زنتها 2 طن. و 15 ألف قنطار بارود أسود. و 2000 قنطار زيت ونفط و 500 قنطار زفت، و 1500 قنطار قطران، وزفت، و 40 مركبا من نوع الفرقاطة FREGATTE و 60 قارية فريقات، و 100 قطعة سلاح، و 150 قنطار شانفر (قار أوقب) و 2000 قنطار حديد، و 2000 قنطار نحاس، و 100 مدفع حديدي، و 1200 شراع كبير(2).

أنواع وأصناف سفن ومراكب أسطول جزائر الغرب المحروسة:

لقد تعددت أنواع المراكب والسفن في أسطول دار الجهاد جزائر الغرب المحروسة تبعا للظروف والتطورات التي عرفتها البلاد، وعرفها العصر

(1) نفس المصدر، ص 152. بلحميسي، ص 53.
(2) بلحميسي، ص 67.

نفسه، البعض منها كان يصنع في الجزائر، والبعض يشترى من الخارج أو يصادر ويغنم في البحر، أو يقدم لها في شكل هدايا أو إتاوات من الدول الأوربية، والأمريكية، ومن الدولة العثمانية كهدايا خالصة، وذلك في إطار المعاهدات، والاتفاقات الثنائية.

ويمكن أن نميز الأنواع التالية:

1 ــ القالير: la Gaère وهي أكثر أنواع السفن في أسطول الجهاد، طولها 50 مترا، وحمولتها متوسطة، وسرعتها خفيفة. وتحتوي على 25 إلى 26 مصطبة (بنك) كل منها يجلس عليها من 2 إلى 8 أشخاص.

2 ــ الغليوطة la Galiote وهي أصغر من القاليرة، وتحتوي على 14 إلى 25 مصطبة، وعدد مدافعها 20، وبحارتها من 10 إلى 30 رجلا وتصنع بالجزائر كثيرة، وشاعت عند الفلاماند والهولنديين في القرن 18م كأحسن مركب عندهم.

3 ــ الغليون le Galion وهو مركب حربي كبير شاع خلال القرون 16 و 17 و 18 واستعمله الأسبان في نقل الذهب والفضة والمعادن الثمينة، والأشياء الغالية، من مستعمراتهم بأمريكا اللاتينية.

4 ــ الشباك le Chebeck وهو مركب مزدوج يسير بالأشرعة والمجاديف ويحمل ما بين 12 و 30 مدفعا. وله 30 مجدافا، وحمولته ما بين 150 إلى 200 طن. وبحارته بين 30 و 200 بحار.

5 ــ القوليت la Goëlette وتدعى السكونة، وهي مركب صغير ذو صاريين، ويسير بالأشرعة.

6 ــ الطريدة la Tarida وهي من نوع القاليرة، ولكنها أكثر سرعة وتستعمل للشحن ونقل البضائع الثقيلة.

7 ـــ الفوستة la Fuste مركب سريع الحركة مزدوج يسير بالأشرعة والمجاذيف وبها ما بين 2 و 14 مصطبة.

8 ـــ البرقانتين le Birgantin يصنع بشرشال، ويستعمل لمهاجمة سواحل الأعداء ويسير بالمجاذيف.

9 ـــ الفرقاطة la Frégatte وهي وحدة حرب ذات حمولة أكثر من الكورفيت.

10 ـــ الكورفيت la Corvette وتدعى الحراقة، وهي طراد، ومركب حربي صغير له صاريان اثنان وحمولتها بين الفرقاطة والبريك.

11 ـــ البريك le Brick مركب صغير الحجم له مجدافان وشراعان مربعان.

12 ـــ البريك ـــ قوليت Brick-Hoëlitte وهو مركب بالأشرعة سريع الحركة له صاريان.

13 ـــ الكرافيل la Caravelle مركب صغير الحجم، شاع استعماله خلال القرنين 15 و 16م.

14 ـــ البولاكر la Polacre مركب ذو ثلاثة مجاذيف وشراع واحد.

15 ـــ الشيطة أو الشاطية: مركب صغير لحراسة السواحل (خفر السواحل).

16 ـــ العشارية. مركب صغير كذلك.

17 ـــ الغراب. يسير بالمجاذيف فقط، و به 24 مجدافا كل واحد عليه أربعة رجال لدفعه وهو كبير الحجم.

18 ـــ الشالوب Chaloupe فلوكة، وزورق طويل.

19 ـــ وهناك أيضا: الجفن، والشنون، والبلاندرة، والنحور.

أشهر سفن أسطول دار الجهاد:

ومن السفن الشائعة في أسطول دار الجهاد جزائر الغرب المحروسة في القرن الثامن عشر وما بعده: ابن الغواص، والمظهر الصالح، وأم الهدى، والجبية، والفارسية، والسلوقي، والهلال، والأسد الأبيض، ودرع الحصن، والجناح الأخضر، والخظ السعيد، والظافر، والصقر، والشمس والوردة الذهبية، وهول البحر، ونصر الاسلام، والثريا، ومفتاح الجهاد ونفير الاسكندر، وحامي الديوان وطريق الخلاص، والتيس البري، والغزالة واللبم المذهب، وهبة الله، والحجرة الثمينة، والبورتوقيزية، والأمريكية.

وهناك نوع من السفن منسوبة إلى ضباطها مثل الأروشيل للرايس الحاج ميتوف، والاهرام للرايس محمد، واليوسف للرايس محمد آغا والمبروك للحاج محمد بن سليمان، والكاميرا للرايس دشمان، والمسعود للرايس أحمد عامر، وليترفراتلي للرايس بوجمعة(1).

أطقم السفن والمراكب:

لكل سفينة من سفن أسطول دار الجهاد جزائر الغرب المحروسة، طاقم معين من الرجال قد يكون كبيرا وقد يكون صغيرا، وعادة يتألف مما يلي:

1 ــ القبطان رايس: وهو قائد السفينة. وقد يكون مالكها أحيانا.
2 ــ باش رايس: وهو نائب القبطان قائد السفينة.
3 ــ صوصو رايس: وهو نائب ثاني لقائد السفينة.
4 ــ رايس العسة أو الورديان: وهو مفتش المركب، والمشرف على صيانته، والعناية به.

---

(1) يحي بوعزيز: علاقات، ص 24. بلحميسي: ص 35 و 55 ــ 56.

5 — باش طبجي: وهو ضابط المدفعية في المركب يشرف على صيانة المدافع واستعمالها في الحرب.

6 — باش دوماجي: وهو ضابط الأشرعة في المركب، يشرف على كيفية استعمالها.

7 — الخوجة: وهو الكاتب الذي يضبط أمور المركب فيما يخص ما يحمله من الأمتعة والذخائر.

8 — الخزناجي: وهو محافظ خزينة الذخيرة الحربية، والأموال اللازمة للصرف والأغذية.

9 — باش جراح: وهو الطبيب الجراح الذي يرافق المركب لمعالجة المرضى والمعطوبين خلال السفر، والمعارك الحربية البحرية.

10 — باش الطريق: وهو رئيس فرقة الانكشاريين المرافقين للمركب ومهمته الإشراف على المدفعين، والهجوم على مراكب الأعداء خلال المعارك والمواجهات البحرية.

11 — الآغا: ولا ندري وظيفته ولكنه ضابط ذو رتبة عالية على أي حال.

12 — الإمام: ومهمته تلاوة القرآن الكريم، وإمامة البحارة في الصلاة، والدعاء لهم بالنصر خلال المعارك[1] وهذا مما يدل على تأصل الروح الدينية بين الجنود البحارة.

13 — قلفاط: مسؤول على دهن المركب بالقطران حتى لا ينشق، وينكسر، فتدخل إليه المياه.

14 — الصندال رايس: وهو المسؤول على معدية القارب. وقد جرت العادة أن يطلق على جنود مقدمة السفينة اسم: بحري، وعلى جنود مؤخرة السفينة اسم: سوطة رايس. ولحمل عادة حتى إلى 500 بحار[2].

---

(1) الشيخ عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، ط 3، ج3 (الجزائر 1982) ص 481 — 494.
(2) لحسيني ص 77 — 79.

قادة أسطول دار الجهاد:

كان لأسطول دار الجهاد قيادة مسؤولة عنه تتألف من عدد من الرجال أبرزهم:

1 ـ وكيل الخرج، أو وكيل حرج البحرية، وهو الرئيس الأعلى لكل المراكب والسفن الجزائرية ويعتبر بمثابة وزير البحرية حاليا. ويتولى رئاسة دار صناعة السفن، وورشة البناء والاصلاح، ورئاسة طائفة رياس البحر، وتجهيز المراكب البحرية للحرب، وبناء السفن الجديدة، واصلاح القديمة والمعطوبة، ويجلس في مكان خاص بالميناء من طلوع الشمس إلى ما بعد صلاة العصر، ثم يصعد الى قصر الداي ليقدم له عرض حال عن الأمور المستجدة. ومن أشهر وكلاء الخرج في النصف الثاني من القرن الثامن عشر:

ـ عمر رايس وكيل الخرج في عهد الداي محمد بن بكير خوجة (1754ـ1766م).

ـ حسن وكيل الخرج في عهد الداي محمد عثمان باشا (1766ـ1791م).

ـ الحاج محمد بن علي باشا في عهد الداي حسن باشا (1791ـ1798م).

ـ الحاج يوسف في عهد الداي مصطفى باشا (1798ـ1805م).

2 ـ قائد المرسى: وهو المسؤول على الميناء، وشرطته، والمخازن، والمراكب الداخلة والخارجة، التجارية والحربية، وتحته ثلاث ضباط هم:

ـ خوجة قائد المرسى: وهو الكاتب الذي يتولى تسجيل كل شيء مما يدخل ويخرج.

ـ ورديان باشا: وهو مفتش الميناء الذي يراقب ويحرس كل شيء من الرجال والسلع، وكل ما يجري في الميناء.

ـ المزوار: وهو رئيس شرطة الأخلاق العامة، ومستخلص ضرائب المومسات.

3 ـ وهناك أيضا مجموعة أخرى من الحراس حارس الخشب، والمصانع البحرية ونقط الحراسة، كلهم تحت سلطة قائد المرسى، يضاف إليهم: الأوداباشي، والبولكباشي، وآغا باشي والكاهية، والآغا، والخزندار، وخوجة الخيل الذي هو متصرف الجمارك.

وقد جرت العادة في الشتاء ان ينزع سلاح السفن، ويفرغ البحارة والبولية، لاصلاح السفن المعطوبة، ودهنها بالقطران وبناء أخرى جديدة، واعداد التجهيزات المختلفة لها، وتقوية تحصينات الموانئ، ودعم نقط الحراسة، ووضع البطاريات اللازمة للدفاع، أما في الربيع فيشرع الرياس والبحارة في الخروج الى البحار والمحيطات للتجارة، والصيد، والحرب، ويستمر ذلك الى نهاية فصل الخريف تقريبا.

وقبل أن يغادر الرياس والجنود الميناء يذهبون لزيارة ضريح سيدي عبدالرحمن الثعالبي، وضريح سيدي علي الفاسي، ثم يذهبون الى باب الجهاد أو باب البحر ليودعوا وكيل الخرج رئيسهم، وبعد ذلك يتجهون الى مراكبهم في الميناء ويستقلونها ويرفعون حبالها ويغادرون الميناء في جو من ولولة النساء، وزغاريدهن، ومودعين بأدعية جماهير الناس المحتشدين لتوديعهم بالسفر الميمون، وسلامة العودة غانمين، ويحيون مسجد سيدي بثقة طلقات المدافع(1) وهذا مما يدل على شعبية هؤلاء الجنود البحارة، ورضى الناس عنهم بصفة عامة طبعا.

وكان عدد البحارة في الأوقات العادية يتراوح بين 2000 و 3000 رجل، أما في الأوقات الخاصة والاستثنائية، فيصلون الى 5 أو 6 آلاف بحار، ولربما أكثر من ذلك حسب الظروف والأحوال.

---

(1) بلخميسي: ص 91 ـ 93.

أشهر رياس البحر:

لقد جرت العادة أن يطلق على كل قائد مركب بحري لقب: رايس أو قبطان رايس، وهؤلاء الرياس، والقباطنة ينتمون إلى «طائفة الرياس» البحريين الذين كانوا يكونون أهم فرقة عسكرية في الجيش الجزائري خلال عهد الأتراك العثمانيين، ومعظم الحكام في هذه الفترة كانوا ينتمون إليها ما عدا فترة الأغوات التي امتدت من عام 1659 إلى 1671م. وتمكن خلالها عنصر اليولداش، وهم جنود المشاة من السيطرة على الحكم في البلاد لمدة اثني عشر عاما.

وقد اختلف عدد الرياس حسب الظروف فأحيانا يكثرون وأحيانا يقلون، ولا شك أن عددهم كان مرتفعا خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأوائل القرن الموالي، حيث بلغ عددهم خلال حكم الداي مصطفى باشا (1798 ـ 1805م) خمسمائة رايس. بعضهم يعمل في المراكب الجهادية في البحار، والبعض يمثلون رؤساء الطرق، والبعض الآخر يقيمون في البلاد ويسيرون مع عزمهم السفر في البحار على ظهر المراكب، ووضع لهم هذا الداي مرتبا قارا قدره أربعة بوجو، وكتب أسماءهم في سجل خاص بذلك(1).

وتتم ترقيتهم على الكيفية التالية: يبدأ الواحد منهم العمل على ظهر مركب كخادم لقبطان السفينة، ثم بعد مدة يرقى إلى رتبة نوتي (بحار) ثم إلى رتبة زميل، ثم إلى رتبة رايس، وأخيرا إلى رتبة قبودان رايس (قبطان رايس) وهي أعلى رتبة في سلك هؤلاء الضباط البحريين. وقد رقي الكثير منهم خلال القرن السادس عشر، إلى منصب ((قبطان باشا)) على رأس الأسطول البحري للدولة العثمانية، وهو بمثابة وزير البحرية حاليا، ومن هؤلاء: خيرالدين باشا، وابنه حسن، والعلج علي.

(1) مذكرات الشريف الزهار، ص 71ـ80.

ومن أشهر هؤلاء الرياس على امتداد الفترة العثمانية بالجزائر خاصة على عهد الدايات: عروج، وخيرالدين واسحاق، وحسن آغا، وصالح رايس، وابنه محمد رايس، وحسن بن خيرالدين، ومامي أرنؤوط، ومراد رايس، والعلج علي رايس، وكحك علي رايس، وسليمان رايس، ومصطفى رايس، وعيلان رايس، ومحمد رايس، وبني محمد رايس، وعلي بتشيني رايس، وابن قرمش قبطان رايس، وعلي عراجي رايس، وقلفاط حسن رايس وعلي بن عودة رايس، وأحمد الزمرلي رايس، ومصطفى المالطي رايس، وعمر رايس، ومحمد بن زرمان رايس، وابن طاباق رايس، وقدور باصون رايس، وابن يونس رايس، وابراهيم رايس، والحاج عثمان رايس، وولد الترجمان رايس، والحاج يعقوب رايس، وقارة دنقزلي رايس وقورد وعلي رايس وعلواش رايس، وأحمد رايس، والحاج سليمان رايس، وعباس رايس، واسكندراني رايس، وقارة يوسف رايس، وحمدان رايس، وحاج موسى سلامي رايس، ويحي رايس(1) وعلي رايس(2) والرايس حميدو بن علي(3)، والرايس دحمان وليد بابا الشريف، والرايس شلبي، والرايس محمد

---

(1) الرايس حي هو صاحب القصر الموجود حتى الآن في سوق الجمعة في مدينة الجزائر حسبما أورد ذلك الشيخ عبدالرحمن الجيلالي في كتابه: تاريخ الجزائر العام ج3.

(2) علي رايس هو صاحب الحديقة الجميلة صاحبة الأبار التي عرفت فيما بعد حديقة الرايس حميدو والتي أمضى فيها الداي حسين معاهدة الاستسلام للفرنسيين يوم 5 جويلية 1830 حسب رواية الجيلالي كذلك بنفس المصدر.

(3) الرايس حميدو بن علي قبائلي الأصل استوطنت أسرته مدينة الجزائر، وبدأ حياته خياطا لدى أحد الخياطين، وهو في سن العاشرة ثم حول اهتمامه إلى العمل في البحار وعشقه حياة الرايس البحريين، فانخرط في قرات باي وحراس البحرية وأسند إليه الداي قيادة مركب من نوع شباك مدفع، ثم عينه قائدا على مراكب البحرية. وبعد ذلك أصبح قائدا لثلاثة مراكب من نوع شباك وتمكن من أسر مركبين من نوع بولاكر، اسبانيين، وقد أعطى له الداي حسن باشا مركب شنت به 12 مدفعا ويحمل 60 بحارا، ثم تحصل على مركب يحمل 44 مدفعا صنعه المهندس الاسباني مايسترو أنطونيو Maestro Antonio عام 1217 هـ (1802 – 1803م)، ولكن بواسطته من أسر الباخرة البرتغالية الكبيرة البجع le cygne ذات 44 مدفعا وعليها 282 بحارا، وأطلق عليها اسم البرتوقيزة ونال شهرة واسعة، واستشهد في معركة بحرية ضد الأمريكان قرب رأس قاطا في المحيط الأطلسي يوم 15 أوت 1815م

وعلي، والرايس الحاج علي طاطار، والرايس الحاج احمد الحداد، والرايس الحاج عبدالله والرايس الحاج صالح، والرايس حلاق علي، والرايس الحاج محمد(1).

دور البحرية الجزائرية في الدفاع على البلاد الاسلامية:

لقد كانت البحرية الجزائرية منذ أن ظهرت في مطلع القرن السادس عشر، تقوم بعمل مزدوج: الدفاع على الجزائر وباقي البلدان المغاربية، والمشاركة في الدفاع على البلدان الاسلامية الأخرى خاصة البلاد العثمانية في شرق البحر المتوسط وذلك دفاعا على المقدسات الدينية والوطنية. وفي هذا الاطار كان الأسطول الجزائري في المقدمة دائما يخوض المعارك تلو الأخرى الى جانب القوات البحرية الاسلامية الأخرى ضد أعداء المسلمين أينما كانوا.

ففي عام 1529 وجه خير الدين باشا نجدة بحرية من 15 مركبا الى مسلمي الأندلس في أوليفا Olivax قادها الرايس خيدرالين واصطدم بثمانية مراكب اسبانية يقودها روديقوبورنتاندو Rodrigo Poranto وانتصر عليها وأغرق واحدة وأسر الباقي بمن عليها من الرجال والأمتعة، قادهم الى مدينة الجزائر، وكان من ضمن رفاقه في الغزوة، صالح رايس، وشعبان رايس، وطاباقا رايس، وحادرين رايس، ويوسف رايس.

وفي عام 1555 غزا خيرالدين بنفسه جزر البليار، ردا على قيام شارلكان بغزو تونس واحتلالها، وأسر في ماهون 6000 شخص اسباني قادهم الى مدينة الجزائر.

---

(1) الرايس الحاج محمد من القباطنة المشهورين على عهد الداي محمد عثمان باشا، وخلفه الداي ... قاد عدة حملات بحرية جزائرية الى اصطنبول، وواجه الحملات الاسبانية ضد مدينة الجزائر ثلاث مرات وهي ثلاثة مراكب حربية وفرقاطات وستة مراكب صغيرة لحفر السواحل لدعم الشبطة ومركبان من نوع الرهبانين و 500 محور وأسر 24 ألف رجل بينهم 10 آلاف اسباني. انظر: الزهار، ص 25 — 33.

وفي عام 1538م اشترك اسطول الجزائر في حرب بريفيزا Prévésa باليونان إلى جانب الأسطول العثماني وحقق انتصارات هامة.

وفي عام 1539م هاجم البايلر باي حسن آغا الاسبان في جبل طارق وأحدث فيهم فزعا كبيرا.

وفي عام 1551 هاجم صالح رايس الاسبان المحتلين في صخرة باديس وقلعة باديس في الريف المغربي، قرب سبتة، كما هاجم السواحل الأندلسية، وشارك في اجلاء الكثير من المسلمين الأندلسيين المطرودين وغزا جزيرة ميورقة عام 1553م واعترض مراكب برتغالية وأسرها.

وفي عام 1560 اشترك أسطول الجزائر مع الأسطول العثماني في معركة جربة المشهورة جنوب شرق تونس ضد الأسبان وفرسان مالطة، بقيادة العلج علي، ومشاركة درغوت باشا حاكم طرابلس. وتم اغراق 19 مركبا من نوع القالير، و 14 حاملة جنود، وأسر 5000 ألف رجل، وقتل نفس العدد كذلك.

وفي عام 1565 اشترك أسطول الجزائر في حصار جزيرة مالطة بقيادة حسن بن خير الدين، والعلج علي، ومشاركة درغوت باشا، والأسطول العثماني وفيها أستشهد درغوت باشا.

وفي عام 1569 اشترك أسطول الجزائر بقيادة العلج علي مع الأسطول العثماني في تحرير تونس التحرير الأول من الاحتلال الاسباني، وانجد العلج علي مسلمي الأندلس باربعين مركبا من نوع القالير، قادها البحارة الجزائريون إلى ألميريا وسواحلها، وحملوا الى الثوار الأسلحة والمؤن والذخائر، وغزا مراد رايس شواطيء إيطاليا، وهاجم الطوسكان ومراكب البابا وغنم أشياء كثيرة عاد بها الى الجزائر.

ووجه نجدة أخرى بحرية في العام الموالي الى هناك لنفس الغرض، وعزم على التوجه بنفسه إلى هناك لولا أن الدولة العثمانية كانت تعد وتجهز أسطولها لمواجهة القراصنة الأوروبيين فاخطرته هو الآخر ليستعد ويشارك فيما عرف بعد بمعركة ليبانت عام 1571 بجنوب غرب اليونان، تلك المعركة التي لم ينج فيها الا الأسطول الجزائري وكانت نكبة على الأسطول العثماني، الذي فاجأه القراصنة الأوروبيون، على حين غرة ونكبوا به.

وفي عام 1574 اشترك أسطول الجزائر البحري، وجيشها البحري مع القوات العثمانية في تحرير تونس بصفة نهائية من الاحتلال الاسباني الذي عاد إليها عام 1573م[1].

وفي عام 1578 غزا مراد رايس شواطيء صقلية، واسبانيا، وجزيرة كابري، وأسر وغنم أشياء كثيرة. كما غزا حسن باشا جزيرة ميورقة وشواطيء اليكانت في نفس العام واعترض مراكب جنوية وأسرها وعاد بها إلى الجزائر بما عليها من البضائع والرجال.

وفي عام 1584 شارك الأسطول الجزائري في تهجير واجلاء عشرات الآلاف من مسلمي الأندلس المطرودين والفارين بدينهم، وشرفهم، وكان خيرالدين قبل ذلك في مطلع القرن قد هجر ما يزيد على سبعين ألفا الى موانيء وسواحل الجزائر، وكان حسن فنزيانو قبل ذلك عام 1582م قد هاجم جزر البليار، وبرشلونة، وهجر عددا آخر من الأندلسيين الفارين بدينهم، وفعل ذلك عام 1584م كما فعل غيره من بحارة الجزائر نفس الشيء في فترات سابقة ولاحقة، وقد قام مراد رايس بغزو سواحل افريقيا الغربية، ووصل حتى إلى مدينة لاقوس بنيجيريا وغنم أشياء كثيرة عاد بها الى الجزائر.

---

(1) يحي بوعزيز: علاقات ص 43–54.

وفي عام 1609 ـ 1610م أنجد الباشا رضوان مسلمي الأندلس عندما أعلنوا ثورتهم المشهورة في جبال الشارات، ووصل بمراكبه إلى سواحل دانيا.

وفي عام 1630 أنجدت الجزائر الدولة العثمانية في حربها ضد البندقية الايطالية، وقاد الرايس علي بتشيني، أسطول الجزائر إلى شواطيء البحر الأدرياتي الايطالية، وأرغمته الزوابع البحرية على الاتجاه إلى ميناء لافالون la Valone ففاجأه هناك أميرال البندقية كابلو Capello، وأغرق له أكثر من نصف مراكبه، وقتل له 1500 بحارا من رجال النجدة.

وفي عام 1709 اقترح الداي محمد بكداش (1707 ـ 1710م) باشا على السلطان المغربي اسماعيل العلوي، أن يقدم له دعما ومساندة بحرية وبرية لمهاجمة الاسبان المحتلين في مدينة سبتة واخراجهم منها، وفي مقابل هذا يمنحه طنجة القديمة ليؤسس بها ميناء وقاعدة بحرية للبحارة الجزائريين تسمح لهم بالعمل في المياه البعيدة، والعودة إليها ومحاربة القراصنة الاسبان والأوروبيين بصفة عامة، فرفض[1].

وخلال الحرب التركية ـ الروسية في أعوام 1757 ـ 1778م، طلب السلطان العثماني من الجزائر، وتونس وطرابلس، نجدات عسكرية بحرية منذ عام 1759 فأنجدته الجزائر ثلاث مرات على عهد الداي محمد عثمان باشا (1766 ـ 1791م):

النجدة الأولى عام 1183هـ (1769م) بقيادة الرايس القبطان علي بن يونس، وبقيت هناك خمس سنوات كاملة ثم عادت الى الجزائر.

---

(1) بلحميسي: ص 166.

النجدة الثانية عام 1188هـ (1774م) بقيادة القبطان الرايس محمد وتشتمل على خمسة مراكب بأسلحتها ومؤنها، وبحارتها، الأشاوس، وبقيت هناك ستة أشهر ثم عادت إلى الجزائر.

النجدة الثالثة يوم 17 جويلية 1789 بقيادة القبطان الرايس الحاج سليمان وتألفت من خمسة سفن كثيرة: إحداها ثلاثية الصواري ذات ثلاثين مدفعا، والثانية شطبة ذات 28 مدفعا، والثالثة شطبة كذلك ذات 36 مدفعا، والرابعة ذات 22 مدفعا، والخامسة من نوع خانيك ذات 14 مدفعا.

وكان قبطان البحرية العثمانية في هذه الفترة هو الباشا حسن الذي كان بايا على بايليك وهران لغاية عام 1756م، ثم التحق باسطمبول وأظهر بطولة وشجاعة في معارك الجيش العثماني، فعينه السلطان قبطان باشا على الأسطول العثماني، وأحسن استقبال النجدات الجزائرية التي قامت بدورها خير قيام، وخاضت معارك مشرفة للبحرية الجزائرية(1).

وعندما غزا نابليون الأول مصر عام 1798م إلى عام 1801م، قطعت الجزائر علاقاتها الديبلوماسية مع فرنسا احتجاجا على ذلك، وتضامنا مع الدولة العثمانية وأغلقت مراكزها التجارية بسواحل القالة وعنابة، واقتادت قنصلها الى ورشة عمل لتكسير الحجارة، مع باقي العمال، وأسر البحارة الجزائريون مركبين فرنسيين.

وعندما ثار اليونانيون ضد السلطان العثماني عام 1819م، استنجد بالجزائر وجهز الداي حسين مجموعة من السفن والمراكب، ومجموعة من

---

(1) أحمد توفيق المدني: مذكرات أحمد الشريف الزهار (الجزائر — 1974) ص 28 — 31 ، مذكرات أسير الداي كاثكارت قنصل أمريكا بالمغرب، ترجمة وتعليق اسماعيل العربي (الجزائر ديوان المطبوعات الجامعية 1982)، ص 89.

الجنود قادهم الرايس الحاج علي أرنؤوط الألباني الأصل، بصحبة الرايس الحاج أحمد الحداد، وقد تمكنت هذه المراكب الجزائرية من أسر 16 مركبا يونانيا، وبقيت هناك بمنطقة المعارك عامين كاملين ونصف العام، واصطدم البحارة الجزائريون بالثوار اليونان اثني عشر مرة حسب رواية الشريف الزهار، وأصيبت قطعتان من المراكب الجزائرية، فعوضها محمد علي والي مصر، وأرسل الداي حسين إلى هذه القوة البحرية الجزائرية زادا ومؤونا خلال تواجدها هناك مما يدل على اهتمامه بها وتطلعه لأخبارها، كما أنه أمر بإنشاء مجموعة من المراكب لتحل محل تلك التي ذهبت إلى المشرق من ضمنها فرقاطة ذات بطاريتين، وسكونة ذات 22 مدفعا.

وفي عام 1824م وجه الداي حسين كذلك عدة أخرى بحرية جزائرية للدولة العثمانية في حربها ضد الثوار اليونان، والمتعاطفين معهم من الأنجليز والفرنسيين، وقادها الرايس الحاج عبدالله صهر الرايس مصطفى باشا الذي عين عليها ساري عسكر، أي قائدا، بينما مصطفى باشا كان قبطانا عليها، وتألفت من ثمانية مراكب، فرقاطتين، وقوليطتين، وكورفيطتين.

وفي عام 1815م كلف الداي حسين باشا القبطان الرايس الحاج علي طاطار بمرافقة فرقاطة محمد علي باشا التي صنعها له الأنجليز، وخاف أن يستولي عليها اليونانيون فطلب من الداي حسين أن يكلف من يحرسها ويصحبها إلى مصر، فجهز للرايس الحاج علي طاطار، فرقاطتين، وكلفه بمرافقتها فقادها إلى الأسكندرية عبر جزيرة كريت.

وبعد معركة نافرين باليونان يوم 20 أكتوبر 1827م، طلب السلطان العثماني من الداي أن يرسل إليه 500 بحارا ليساعدوه على إعادة بناء الأسطول العثماني. وقد شارك أسطول الجزائر في هذه المعركة وتعرض لما تعرض له الأسطول العثماني وتحطم، ولم ينج منه إلا مركبان اثنان التجآ إلى مدينة الاسكندرية، بقيا بها حتى حملة الاحتلال الفرنسي عام 1830م(1).

---

(1) الزهار، ص 147 – 150 ؛ 156.

ميادين العمل لأسطول دار الجهاد جزائر الغرب المحروسة:

لقد كان مصدر العدوان الأوربي وأداته هي الأساطيل البحرية، وكثف القراصنة الأوربيون غاراتهم وهجوماتهم على الجزائر وكل بلدان المغرب في إطار الحروب الصليبية البغيضة، وتمكن الإسبان من احتلال معظم الموانئ الجزائرية والمغاربية من أصيلة وطانجة غربا، إلى طرابلس الغرب شرقا، وأرغمت الجزائر إرغاما على مواجهة العدوان بمثله، وأحدثت أسطولا قويا للدفاع عن نفسها وشرفها ودينها، ومقدساتها، ولم تكن هي البادئة بالعدوان، ولكن الأوروبيين حلو لهم أن ينعتوها بأقبح النعوت وأخسها، ويسموا حربتها الوطنية التي استحدثت للجهاد ورد العدوان، بالقرصنة، ومحاربيها بالقراصنة.

وهكذا قالوا: إن الجزائر واد للإهانات والإساءات، وجمهورية للصوص والنصابين، ووكر وعش للقراصنة، ومأوى لقطاع الطرق واللصوص، وجحر للسراق، وجحيم وجهنم للمسيحيين، ومغارة للوحوش الأفارقة، ومجتمع للقراصنة، وسكانها أباليس وعفاريت.

بينما يعتبرون قراصنتهم المسيحيين جنود المسيح، وفرسان الله، ومجاهدين من أجل الوطن، وما إلى ذلك من الأوصاف الحميدة، وهو دجل على أي حال، والدليل هو أنهم كانوا يغزوننا إلى عقر ديارنا ويحتلون مدننا وموانئنا الساحلية، بينما لم يحتل الجزائريون أية مدينة أوربية ولم يكونوا هم البادئين بالعدوان بل كانوا يدافعون عن أنفسهم وبلادهم ويردون العدوان، واضطروا اضطرارا إلى ممارسة الهجوم بعد أن انتهوا من مرحلة الدفاع وكونوا قوة بحرية رادعة، وهو عمل مشروع في كل الأعراف والقوانين الدولية من غابر الأزمان حتى اليوم وإلى ما شاء الله(1).

---

(1) لمعرفة كثير عن الغارات والهجومات المكثفة على الجزائر وبلدان المغرب الأخرى من طرف الغرب الأوربي انظر كتابنا: ملحمات الجزائر المشار إليه سابقا، ص 10_19.

ونظرا لكثرة الغارات الأوروبية ضد الجزائر، وكثافة هجومات وقصفها على المدن الساحلية الجزائرية، فان البحرية الجزائرية كانت تمارس هي الأخرى الهجوم على السواحل الأوروبية حيث أوكار القراصنة، وتهاجم المراكب الأوروبية في البحر كذلك عندما لا تكون دولها في حالة سلم معها، ولذلك كانت معظم الشواطيء الأوروبية وجزرها المتوسطية هدفا للبحارة الجزائريين، ومراكبهم البحرية طوال ثلاثة قرون تقريبا، سواء في حوض البحر المتوسط، أو على الواجهة الأطلسية الغربية والشمالية. وسنحاول اعطاء نماذج فقط على كل الواجهتين: المتوسطية والأطلسية.

على الواجهة المتوسطية:

لقد تم التركيز في الواجهة المتوسطية، على السواحل الاسبانية، والبرتغالية والفرنسية، والايطالية، وجزر البليار، وسواحل جنوة، ونابولي، وليفورن، وسردينية وكورسيكة، وصقلية، وشواطيء البحر الادرياتي، وجزره المختلفة، ومالطة وقورو، حيث يتمركز القراصنة الأوروبيون ويعدون هجوماتهم على الجزائر، وتبدأ القصة منذ أن استقر خيرالدين باشا بالجزائر عام 1516م، ان لم يكن قبل ذلك.

ففي عام 1516م جرت محاولة لأسر البابا ليو العاشر، الذي كان شديد الحقد على المسلمين.

وفي عام 1535م هاجم البحارة الجزائريون مناطق عديدة، في اسبانيا وايطاليا وأسروا المرأة الإيطالية قيوليا قونزاقا Giulia Gonzaga وسلموها الى خيرالدين باشا الذي كان يحاصر ماهون عاصمة البليار كرد فعل على غزو شارلكان لتونس واحتلالها وتواصلت أعمال البحرية الجزائرية ضد السواحل الأوروبية طوال القرنين 16 و 17، وغالب القرن 18م.

وفي عام 1609م أثار سيمون دانسا أزمة بين فرنسا والجزائر، وهو هولندي الأصل من دوردريخت Dordrecht كان يقيم في مرسيليا، ثم

ذهب إلى الجزائر واستقر بها وتزوج وأعلن اسلامه وأطلق على نفسه اسم دالي رايس أودوفيل Devil واشتغل في تجارة السفن، وترقى إلى رتبة رايس في طائفة الرياس، وتصدى لتعليم مهنة بناء السفن والمراكب لعدد من البحارة، وخرج غازيا إلى البحر عدة مرات مع الرياس الجزائريين، وتمكن من أسر 40 سفينة لحسابه، وعبر مضيق جبل طارق إلى المحيط الأطلسي عدة مرات مع البحارة الجزائريين حتى وصل معهم إلى شواطئ ايسلندا.

وفي عام 1609 حجز سفينة اسبانية عليها عشرة رهبان جزويت خارج شواطئ فالنسيا، وقرر العودة إلى مرسيليا والمسيحية، فأخطر الملك الفرنسي هنري الرابع سرا برغبته في الالتحاق بزوجته وأولاده في مرسيليا والتخلي عن الاسلام والعودة إلى المسيحية، فقبل عرضه، وقام بسرقة مدفعين من البرونز والتحق بمدينة مرسيليا، وسلم المدفعين إلى الدوق دوقيز le Duc Deguise فأعاد له مجلس بلدية مرسيليا حقوق المواطنة الفرنسية وفي العام الموالي قدم مشروعا لغزو الجزائر فلم يلتفت إليه أحد، غير أنه أثار أزمة حادة بين الجزائر وفرنسا استمرت سنوات طويلة، وانجر عنها عام 1620 قيام سكان مرسيليا بقتل أعضاء الوفد الجزائري الذين ذهبوا إلى فرنسا للتفاوض من أجل اعادة المدفعين، وابرام صلح بين البلدين ورد الجزائريون على ذلك باعلان حرب شعواء ضد فرنسا، وأسروا حوالي 8 آلاف تاجر وبحار فرنسي(1).

وفيما بين 1611–1613 أسر الجزائريون 8 مراكب بحرية أوربية وفي عام 1635 تمكن أحد رياس البحر الجزائريين من أسر الغليون الكبير التابع لنابولي، وعليه حمولة من القمح، و 10 آلاف زوج من جوارب الحرير، و 20 كيسا من خيوط الذهب، و 76 مدفعا، و 10 آلاف كرة Boulets و 130 رجلا فاقتاده بما فيه إلى الجزائر.

---

(1) بوعزيز: علاقات، ص 42–43.

وتمكن الرايس حميد بن البيقرو من حجز قالو للفرسان الإيطاليين جوان الجساوي يسمى سان أقات Saint-Agathe وعليه مجموعة من رجال من علية القوم ومبلغ 800 ألف ريال ملك لدو سيرا de Serra.

وفي عام 1647 اقتربت ثلاث سفن جزائرية من سان طروبيز Saint-Tropez وهددوا la Chartreuse d'argentiere على أمل اعتراض قس evequeطولون.

وفي عام 1650—1651 هاجم قالوان جزائريان الكاردينال أنطونيو باربريني Antonio Barberini عندما كان يغادر ميناء مرسيليا، وتمكن البحارة من الاستيلاء على المركب الذي كان يحمل أمواله وأمتعته، ولم تنجح مدافع موناكو من صدهم ومنعهم من ذلك. وعندما أراد العودة عام 1655 رفض أن يسلك طريق البحر وتأخر حتى عام 1657، وسافر برا بصحبة الماركيزمارتل إلى سيفيتا فيكشيا Civita-Vecchia.

وفي عام 1662 حاصرت 18 سفينة جزائرية جزر هوييس: واستولوا على أشياء كثيرة عادوا بها كغنائم.

وفي عام 1668 اضطر تجار مرسيليا أن يشتروا أسراهم من الجزائر، وهم كثيرون بمبلغ 205 ريال للأسير العادي، و 370 إلى 469 ريال للأسير غير العادي من النوتية، وصناع السفن.

وفيما بين 1737 و 1799 جهزت الجزائر 1008 مركبا حربيا للحرب والجهاد ضد القراصنة الأوربيين في البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وهو ما يعادل 16 مركبا كل عام، وذلك للرد على الحرب المحمومة التي كانوا يشنونها على سواحل البلاد ومدنها وقراها، وعلى مراكبها.

وفي عام 1784 اعترض البحارة الجزائريون 4 مراكب فرنسية أمام مرسيليا وأسروها، واضطر أصحابها أن يطلبوا من الملك الفرنسي هنري الرابع أن يتدخل لدى الجزائر من أجل استرجاعها.

وفي عام 1794 جهزت الجزائر سبعة مراكب بحرية وكلفت بحارتها بالخروج للغزو ضد المراكب الجنوية وسردينيا، فأسروا لسردينيا 10 مراكب، ولجنوة عددا آخر، وأسروا لنابولي ثمانية مراكب، وكان ضمن البحارة في هذه الغزوة القبطان الرايس حميدو بن علي الذي كان يقود مركبا من نوع بريقانتين، وفي العام الموالي 1795 أعادت الجزائر إلى المغرب مدينة وجدة بعد أن بقيت تحت سيطرتها سنوات طويلة.

وفي عام 1797 كلف الداي مصطفى باشا بحارة الجزائر بغزو مدينة ليفورن الايطالية وجهز لهم خمسة مراكب، وتمكنوا من الاستيلاء على ثلاثة مراكب يونانية واحدة منها كانت محملة بالقموح، فباعوه في ليفورن، وعادوا بالمراكب إلى الجزائر ثم رحلوا الى الشواطىء الاسبانية واستولوا على 18 مركبا يونانيا كلها محملة بالقموح والبضائع المختلفة والمتنوعة، وقد أطلق على احدى السفن الثلاثة المأسورة في ليفورن اسم زنطوطة.

وفي هذا العام نفسه 1797 قرر الداي مصطفى باشا وضع مرتب خاص وقار للجنود بالاتفاق مع القبطان الرايس محمد، وتم وضع سجل خاص لأسماء الجنود وعلاواتهم، وحدد مبلغ 4 بوجو لكل واحد.

وفي عام 1798 غزا الأسطول الجزائري نابولي الايطالية وحطم لها حصنا عسكريا كبيرا واستولى على مابه من بضائع وذخائر عاد بها الى الجزائر وفي الطريق صادف مركبا مالطيا وحطمه وكان محملا بالجبن والكتان.

في عام 1801 طارد الرايس وليد بابا الشريف، سفنا برتغالية في جهة نابولي الايطالية وأسر 350 شخصا بينهم 16 امرأة مع بعض أولادهن،

وغزا الرايس الحاج طاطار البحر وأسر عددا من الفرنسيين ومراكبهم، وغزا الرايس قارة دنقزلي (أسود) شواطيء اسبانيا وأسر سفينة فرنسية، ولكن الاسبان اعترضوه وانتزعوا منه السفينة، ثم اضطروا أن يعيدوها للجزائر، ثم أعادت فرنسا رجالها الذين سلمهم الاسبان إليها بعد أن تم توقيع الصلح بينها وبين الدولة العثمانية على اثر طرد نابليون من مصر.

وفي عام 1802 جهز الداي مصطفى باشا سبعة مراكب منها ثلاث برقطات وعين عليها الرايس محمد وعلي، ومعه الرايس حميدو بن علي، والرايس شلبي الذي استندت إليه قيادة السفينة: البورتقيز، وكلفهم بغزو واعتراض مراكب نابولي في البحر، التي كانت تكثر من الاعتداء على المراكب البحرية الجزائرية.

والداي مصطفى هذا هو الذي أمر بصنع 200 لنجور، و 2 بلاندات، وفرقاطتين، وأنشأ بستانا بحي الربط بني في وسطه قصرا جميلا لا يزال حتى اليوم كجزء من قصر الشعب، وقد بلغ عدد الرياس في عهده 200 رايسا بسبب اهتمامه بالأسطول البحري وانشغاله بمواجهة الأعداء.

وفي عام 1813 غزت مراكب جزائرية بلاد اليونان، وكان الرايس حميدو ضمن الحملة، وتمكن البحارة الجزائريون من أسر 20 مركبا مشحونا بالقموح والسلع المختلفة قادوها إلى الجزائر، ودعموا بها أسطول البلاد ثم عاد هؤلاء البحارة إلى البحر وهاجموا مراكب السويد، والدانمارك، وأسروا منها 20 مركبا مشحونا بالسكر، والقهوة، والكاكاو وغيرها.

على الواجهة الأطلسية:

وكما كان البحر المتوسط كله من سواحل الشام إلى جبل طارق، مجالا لعمل الأسطول الجزائري، وجهوده ضد القراصنة الأوربيين، كذلك كان المحيط الأطلسي مجالا لعمله أيضا، لأن البحارة الجزائريين استهدفوا

كذلك اعتراض السفن الأسبانية والبرتغالية العائدة من أمريكا بالمعادن النفيسة، وباقي الخيرات والبضائع الأخرى وهذا غزوا جزر الأزور، وكناري، وماديرا، وشواطئ، فرنسا والجلترا، وايسلندا ففي عام 1617 غزت 8 مراكب جزائرية جزر ماديرا وغنمت أشياء كثيرة وأسرت عددا من الأسرى.

وفيما بين 1616م — 1627 وصل البحارة الجزائريون إلى شواطئ ايسلندا شمال أوربا، وإلى جزر ويستمان Westmann على الشاطئ الغربي للجزيرة.

وفي عام 1634 وصل مراد رايس إلى بالتيمور Baltimore في بريطانيا.

وفي عام 1647 وصلت سبعة مراكب جزائرية إلى سواحل كورنوايل جنوب غرب بريطانيا.

وفي عام 1650 إلى 1654 وصلت البواخر الجزائرية وبحارتها إلى بليموث في بريطانيا، ووصل بعض الرياس إلى الأراضي الجديدة، واستولى آخرون على مركب انجليزي في تيكسل Texel[1].

وفي عام 1785 اتجهت مجموعة من المراكب الجزائرية إلى المحيط الأطلسي لاعتراض السفن البرتغالية والبرازيلية العائدة من أمريكا، وتمكن البحارة من أسر سفينتين أمريكيتين هما: ماريا من بوسطن قرب سان فانسان جنوب شرق البرتغال، وفيلادلفيا على بعد 70 فرسخا من مدينة لشبونة وذلك خلال شهر جويلية، كما أسروا عددا من المراكب البرتغالية وعادوا بها إلى الجزائر.

---

(1) بحسبي ص 146—147.

وكان عدد الأسرى الأمريكيين في هذه الغزوة 21 بحارا بينهم كاتكارت الذي بقي بالجزائر أكثر من عشرة سنوات، وشارك في المفاوضات التي انتهت بإبرام المعاهدة الجزائرية الأمريكية يوم 5 سبتمبر 1795[1].

وفي عام 1791 حصلت حرب بين مراكب الجزائر، ومراكب كل من السويد، والأمريكان، بعد أن قطع الداي حسن علاقاته مع السويد، وجهز للغزو البحري مراكب عين عليها الرايس الحاج محمد وكان ذلك إحدى الأسباب التي ادت إلى هروب الخزناجي علي برغل إلى اصطمبول، وتعيينه بعد ذلك باشا على طرابلس الليبية قبل أن يفر إلى مصر.

وفي عام 1792 وخلال شهري: أكتوبر ونوفمبر، أسر الجزائريون 11 مركبا أمريكيا، فارتفع عدد الأسرى الأمريكيين بالجزائر إلى أكثر من 119 بحارا.

وفي عام 1793 هاجم البحارة الجزائريون سفن الفلاندر احدى ولايات هولندا النمساوية آنذاك ، وكان يقودهم الرايس الحاج محمد على رأس سبعة أجفان وغنموا عشرين مركبا.

وفي يوم 8 أكتوبر 1793، أسروا المراكب الأمريكية الثلاثة: طوماس: Thomas وهوب Hope، والشونردي باتش le Shonner des Patch وبعد ثلاثة أيام أسروا المراكب الثلاثة الأخرى جورج Georges، وأوليف برانش Olive Branch وجان بوي شونور جاكس Jean Puis du Shooner Ner jax وفي يوم 18 من نفس الشهر أسروا مركب مينرف دوفيلا ديلفيا Minerve de Phila delphia واقتادوا الجميع إلى مدينة الجزائر.

(1) مذكرات كاتكارت: ص 16ـ23.

- في عام 1794 غنم البحارة الجزائريون مجموعة من المراكب الأخرى في المحيط الأطلسي مشحونة بالقهوة والسكر، وبضائع أخرى متنوعة، وعندما تم توقيع معاهدة الصلح بين الجزائر وأمريكا يوم 5 سبتمبر 1795، قدمت أمريكا للجزائر فرقاطة، وبلاندرف، وثلاث سكونات، مجهزة بالأدوات اللازمة لها من التجهيزات، والتزمت بدفع 25 ألف سلطاني بها ذكر الزهار بأنها التزمت بدفع 2.5 مليون دورو وثلاثة بواخر حربية.

- في عام 1796 قاد الرايس محمد بن زرمان مجموعة من المراكب الجزائرية إلى المحيط الأطلسي وأخذ يهاجم المراكب البرتغالية، واصطدم حظاً مراكب الحلفية فعطلوا له بعض المراكب، وقتلوا وجرحوا بعض البحارة، ثم قاموا بإصلاحها بعد أن تم التعرف على بعضهما البعض، ولكن الرايس بن زرمان التجأ إلى المغرب الأقصى حتى توفي الداي حسن باشا عام 1798 حتى لا يتعرض للعقاب.

وخلال عهد الداي حسن باشا هذا (1791—1798) تم بناء مركبين من نوع برغانتين: واحدة ذات 24 مدفعا، والثانية ذات 36 مدفعا، ومركبين آخرين من نوع بلاندرة كل منهما مسلحة بأربعة وعشرين مدفعا، وأعطي للرايس حميدو مركب من نوع شبك عليه 12 مدفعا ويحمل 60 بحارا، وفي إحدى المرات غرق للرايس حميدو هذا الشبك أمام سواحل نهاية، فخاف من العقاب، والتجأ إلى تونس ثم عاد إلى عنابة، وقسنطينة ومنها إلى الجزائر فعفا عليه الداي وأعطاه الفرقاطة التي صنعها المهندس الإسباني مايسترو أنطونيو.

- في عام 1799 (1214هـ) خرج أسطول الجزائر لاعتراض سفن البرتغال، وصادف في البحر مراكب نمساوية، واستولى عليها، واصطدم برئيس من طابال سفينتين برتغاليتين: بلاندرف، وسكونة، فاستولى على بلاندرف، وهربت السكونة فلاحقها إلى سواحل برشلونة، وأغرقها، وكان عليها 300 رجلا أسرهم وأتى بهم إلى الجزائر.

وفي عام 1802 خرج الرايس حميدو على فرقاطته التي صنعها له مهندس الأسباني مايسترو انطونيو، والمسلحة بأربعة وأربعين مدفعا، وصادف الباخرة العسكرية البرتغالية الكبيرة البجع le Cygne قرب رأس قاطا Cap Gatta وعليها 282 بحارا نوتيا، وهاجمها واستولى عليها برجالها ومدافعها الأربعة والأربعين، وقادها إلى الجزائر مع رفيقيه: الرايس وليد شريف بابا، والرايس شلبي، واستقبلهم الداي استقبال الأبطال، وأطلق على تلك السفينة اسم «البورتقزية» من ذلك اليوم، وبقيت تعمل في أسطول الجزائر إلى أن أغرقها القذف الانجليزي بقيادة اللورد اكسموث عام 1816م.

وفي عام 1813 هاجمت المراكب الجزائرية، مراكب السويد، والدانمارك، وأسرت منها عشرين مركبا مشحونا بالسكر، والقهوة، والكاكاو، وغيرها.

ومن الحوادث التي حصلت هذا العام هروب أسير برتغالي من باب الوادي على مركب اسباني صغير، وقيام الداي بحجز كل مراكب اسبانيا في الميناء، ثم كاتب الملك الاسباني، وطالبه بإعادة الأسير فأعاده إليه، وقام باطلاق سراحه إكراما للملك الاسباني، وذلك من مظاهر الشهامة على أي حال، لا نجدها لدى ساسة أوربا آنذاك ولا حتى في هذا الوقت.

وفي هذا العام كذلك (1813م) تم ابرام صلح بين الجزائر والبرتغال للمرة الثانية بواسطة كل من اسبانيا، وانجلترا، أما المرة الأولى فكانت عام 1793م بواسطة انجلترا كذلك، واسبانيا، وبمقتضى هذا الصلح الثاني دفعت البرتغال للجزائر 2,5 مليون دورو، وافتدت أسراها بمبلغ ألف دورو للأسير(1).

---

(1) الزهار، ص 110.

وجهز الداي هذا العام مراكب وأمرها بمهاجمة المراكب اليونانية [illegible] لأن اليونانيين ثاروا على الدولة العثمانية، وتمكن الجزائريون من [illegible] بعضها مع بحارتها، فأمر السلطان العثماني بإطلاق سراحهم، ورفض الداي ذلك وقام بصلب الأسرى اليونان على صواري المراكب، وذكر القنصل الذي جاء للتدخل في شأنهم: إذا بقيتم هكذا فإن اليونان سيأخذون بحر سادتكم، وحصل ما توقعه الداي الحاج علي باشا بعد ثورة اليونان [illegible] 1819م وما بعده.

وكان الداي علي باشا قد نفى الرايس حميدو إلى الشام عام 1808 لكونه كان يكرهه، ويأخذ عليه أشياء، وحسن حظ حميدو أن هذا الداي لم يحكم سوى أربعة أشهر، ثم قتل وخلفه الداي علي [illegible] (1809ـ1814م)، فاستقدمه من بيروت عام 1809م، وكرمه وعينه قبطانا على فرقاطة كبيرة أنشئت حديثا بناها المهندس الأسباني ماستروا انطونيو، وأطلق عليها اسم السكرلات، وجهز له ثلاث فرقاطات وبلانكرة، وأمره بالخروج إلى المحيط الأطلسي لاعتراض المراكب البرتغالية، وعندما وصل إلى جبل طارق ورأته المراكب البرتغالية فرت إلى [illegible] طارق واحتمت به، فاخترق البوغاز إلى المحيط وصادف مركبا حربيا برتغاليا وهاجمها وغنم أشياء كثيرة ثم عاد إلى الجزائر بينما اتجهت ثلاث مراكب جزائرية من نوع البريغانتين إلى صقلية وأسرت مركبا وعادت إلى الجزائر.

وفي عام 1810م اتجه حميدو على رأس مراكبه إلى الشرق وخرجت [illegible] التونسية على رأس ستة مراكب، وأربع لسحورات، واصطدم بمراكب تونسية في حجر فرقة، وأسر واحدة منها وترك الباقي تفر إلى تونس دون أن يلاحقها وعاد إلى الجزائر وكرمه الداي.

وفي عام 1811م قاد حميدو 16 مركبا ولسحورا إلى تونس، وفي حلق الوادي ثم رجع وأسر في طريقه 20 مركبا يونانيا مشحونة بالقمح

وفي عام 1812م جهز الداي 45 مركبا وأمرها بغزو تونس، وسافر معها الرايس حميدو فمرت بعنابة، واصطدمت بقوات تونس في حلق الوادي التي كانت تتألف من حوالي 100 لنحور، وتبادل الطرفان التراشق بالقذف، وكان حميدو مريضا ومعظم الضباط كانوا ضد هذه الغزوة، ولهذا تحايلوا على تجنب خوض معارك فاصلة، ورحلت القوات البحرية الجزائرية وعادت إلى الجزائر بنتائج لم ترض الداي.

وفي يوم الأحد 22 شعبان 1227 — 1812م جهز الداي ثلاثة مراكب وكلفها بالغزو في المحيط الأطلسي واعتراض المراكب الأمريكية، وفي يوم 21 شوال 1227—1812م جهز الداي مركبين وفرقاطة بقيادة الرايس الحاج سليمان، وفرقاطة البورطقيز بقيادة الحاج حسن، وكلفهما بغزو المحيط واعتراض المراكب الأمريكية(1).

وعندما تولى عمر باشا منصب الداي عام 1814م خلفا للداي محمد باشا جهز خمسة مراكب للقبطان الحاج عثمان، وخمسة مراكب أخرى للقبطان الرايس حميدو بن علي، وكلفهما بغزو نابولي الإيطالية، واعتراض مراكبها في البحر وعندما وصل حميدو إلى بوغاز جبل طارق علم بأن عمارة بحرية للأمريكان تتجه للجزائر لطلب الصلح وتحتوي على تسعة فرقاطات، وبلاندا، وسكونات، فرجع على جناح السرعة إلى الجزائر وأخبر الداي بذلك وبقي في المدينة ثلاثة أيام ثم استأذن الداي في الرحيل والعودة بعد أن وشى ضده وكيل الحرج إلى الداي زاعما أنه يتصرف كما يريد، ولا يطبق تعليماته.

ورحل على رأس بلاندرا، وغليوطة، والتقى بالمراكب الأمريكية العشرة في رأس قاطة جنوب شرقي اسبانيا، وغرب قرطاجنة، فأحاطت به،

---

(1) الزهار، ص 105—110 و، دفتر التشريفات نقلا عن توفيق المدني.

ودخل معها في معركة غير متكافئة، واصابته قنبلة مدفع كبير، وشطرته إلى قسمين، وتوفي في الحال فألقاه نائبه وخليفته الباش رايس الحاج أحمد ولد عمر، في البحر وذلك يوم 15 جوان 1815م وواصل القتال حوالي خمس ساعات فتكسرت فرقاطته، ودخل إليها الماء، وقتل كثير من رجاله، وتمكن الأمريكان من أسرهم واقتيادهم مع مراكبهم إلى قرطاجنة الاسبانية، واغتاضوا عندما لم يعثروا على الرايس حميدو، ومن قرطاجنة اتجه الأمريكان إلى الجزائر وطلبوا من الداي ابرام صلح فرفض في البداية، ثم لما سمع بمقتل حميدو، وأسر باقي رجاله، ومراكبهم، وتهديد الأمريكان بأسر باخرة جزائرية قدمت من الشرق ولم تكن لديه الوسائل الكافية لمنع ذلك، قبل إبرام صلح مهين، فأطلق الأمريكان سراح الأسرى الجزائريين، وأعاد الاسبان البلاندرا ومن عليها من الرجال الذين تسلموهم من الأمريكان في قرطاجنة(1).

اما القبطان الحاج عثمان فقد اتجه إلى خليج بلنسيا ثم إلى نابولي، وأسر 450 شخصا بينهم الرجال والنساء والأطفال، واستولى على مركبين صقليين، وعلى مركب حسونة ورديا روباشي التونسي، وفي الطريق التقى بمركب انجليزي قاصدا حلق الوادي فسلم له حسونة التونسي ليوصله إلى هناك، وأرسل مركبه إلى الجزائر بقيادة الحاج مصطفى ولد عيسى.

وفي عام 1815م كذلك جهز الداي عمر باشا 10 مراكب وكلف القبطان دالي حسن بغزو بلاد الفلامنك بالفلاندر في هولندا، فسافر إلى هناك عبر المحيط الأطلسي، ولم يصادف أي مركب لفلامنك، وعاد مع رفاقه إلى الجزائر، بينما انتقم الداي من وكيل الخرج الذي تسبب في مقتل حميدو وعزله، وأجزل العطاء على البحارة الجزائريين حتى يسعوا للانتقام لمقتله ويعملوا بجد واجتهاد لمواجهة أعداء البلاد الذين تكالبوا عليها.

---

(1) الزهار، ص 117 — 119.

وفي عام 1816م حصلت غارة اللورد ايكسموث على مدينة الجزائر الذي دمر جزءا من مباني المدينة وخرب عددا من المراكب البحرية من ضمنها البورتقيزية التي أسرها حميدو من البرتغال عام 1802م وأرغم الداي عمر على امضاء صلح مهين مع الانجليز، ومع الفلامنك فاطلق جميع الأسرى المسجونين بالمدينة، وأعاد المبالغ المالية التي تم بها شراء الأسرى قبل ذلك، وتنازل عن المطالبة بدفع الأتاوات(1).

وبعد هذه الأحداث شرع الداي عمر في اصلاح ما تخرب من الأبراج، والحصون ونقط الحراسة، والمسجد الأعظم، وأرسل إلى السلطان العثماني الرايس الحاج علي أرنؤوط على مركب سكونة ليحيطه علما بما حصل، فأرسل له السلطان ثلاث فرقاطات و 2 كورفيت ومدافع، وآلات حربية متنوعة.

وكتب إلى سلطان المغرب الأقصى سليمان بن عبد الله كذلك رسالة حملها إليه القاضي الحنفي الحاج محمد العنابي، فأرسل إليه 2 كورفيت، وبلانترة، ومبلغا من المال للمجاهدين، وكذلك كتب لباشا طرابلس فأرسل إليه مركبا من نوع بولاكر، وهذا يدل على مدى التضامن الكبير بين البلدان المغربية الشقيقة(2).

وكم نتمنى أن يعود هذا التضامن من جديد حتى يتم بناء المغرب الكبير وتطوى مراحل التخلف بسرعة، ويتم اللحاق بركب المتقدمين.

---

(1) الدكتور عبد الجليل التميمي: بحوث ووثائق في التاريخ المغربي 1816 – 1871م (تونس 1972)، ص 231 – 260. الزهار، ص 121 – 127.

(2) الزهار، ص 127.

الأسرى الأوربيون ومراكبهم بالجزائر

نظرا لكثرة الغارات، والهجومات، والحروب بين الجزائر وقراصنة أوربا خلال ما يزيد على ثلاثة قرون، فقد قتل الآلاف من الناس، ووقع الآلاف أسرى، من الطرفين وتمكن البحارة الجزائريون من أسر الآلاف من الرجال والنساء، والأطفال، وما آت من المراكب البحرية المختلفة الأنواع، والأشكال، والأحجام، وتفنن كل طرف في استغلال ذلك لصالحه. وسنورد فيما يلي نماذج لعدد الأسرى والمراكب البحرية التي غنمها البحارة الجزائريون، من القراصنة الأوربيين خلال هذه الحقبة المحمومة التي احتد فيها الصراع إلى درجة تفوق حد التصور، وهذا الموضوع لم يدرس بعد من طرفنا نحن، ويحتاج إلى دراسات وأبحاث عميقة من واقع الرسائل والتقارير التي توجد في دور المخطوطات المختلفة، للكشف عن زيف الادعاءات الأوربية التي تزعم أن الأسطول الجزائري، وباقي الأساطيل المغاربية كانت تمارس القرصنة، وللكشف عن المعاملات الخسيسة التي كان القراصنة الأوربيون يمارسونها ضد الأسرى المسلمين وعن الحقد والمهانة التي كانوا يسلطونها عليهم، على عكسنا نحن في بلادنا، لدرجة أن الكثير من الأسرى المسيحيين وصلوا إلى مراتب عليا في بلادنا بعد أن أسلموا.

ففي عام 1556م أسر الجزائريون 28 مركبا في مالقا و 50 أمام جبل طارق. وفي عام 1608م هاجموا وأسروا 42 سفينة و860 شخصا.

وفي عام 1608 أسروا 42 سفينة وأسروا 860 شخصا.
وفي عام 1609 أسروا 36 سفينة وأسروا 632 شخصا.
وفي عام 1610 أسروا 32 سفينة وأسروا 384 شخصا.
وفي عام 1611 أسروا 20 سفينة وأسروا 384 شخصا.
وفي عام 1612 أسروا — سفينة وأسروا 3804 شخصا اسبانيا.
وفي عام 1613 أسروا 16 سفينة وأسروا 0230 شخصا.
وفي عام 1614 أسروا 35 سفينة وأسروا 0467 شخصا.
وفي عام 1616 أسروا 34 سفينة وأسروا 0767 شخصا.
وفي عام 1617 أسروا 36 سفينة وأسروا 1763 شخصا.
وفي عام 1618 أسروا 19 سفينة وأسروا 1468 شخصا(1).
المجموع 339 سفينة و12239 شخصا.

وفيما بين 1621ـ1627م أسر الجزائريون عشرين ألف شخص. وقد طلب عدد كبير منهم اعتناق الاسلام في الفترة الممتدة بين 1609 و 1619 بينهم 867 ألماني، و 300 انجليزي، و 250 بولوني، ومجري، وموسكوفي، و 160 دانماركي، و 138 هامبورغ، و 130 هولندي وفلامنكي.

وفي نهاية القرن 16 وصل عدد كبير من الأسرى المسيحيين الذين أسلموا وحسن اسلامهم إلى مراتب عليا في الأسطول الجزائري، وأصبحوا رياسا وقباطنة للمراكب البحرية الجزائرية ومنهم: مراد رايس الفرنسي، ومراد رايس الألماني، وفريز رايس الجنوي، ومراد بترابيلو Patrapilo الاسباني، ومورارد رايس الصغير اليوناني، وحسين رايس الكريتلي (كريت)،

(1) وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، ترجمة وتعليق: د. عبد القادر زبادية، الجزائر، 1980م، ص 131.

وعمر رايس الرود سلي (رودس)، ومارد ميمات اليهودي، ومامي العسقل.

وفي عام 1589م كان باشا الجزائر حضر من أصل مجري، ومن بين 34 رايسا حربيا كان هناك تسعة عشر مسلما من أصل أوروبي أسلموا، واثنان مسيحيين أسلما كذلك. وكان الثلثان من المراكب الجزائرية من نوع الغليوطات يقودها رياس مسلمون من أصل مسيحي، وفي عهد الداي مصطفى باشا (1798 — 1805م) كان هناك مئات من الرياس من أصل مسيحي يعملون في البحرية الجزائرية(1) وهذا يدل على مدى تسامح الجزائر، والإسلام، بصورة خاصة الذي يجعل المسلمين كلهم سواء بقطع النظر عن الأصل العرقي، واللغة والبلد.

وينتمي هؤلاء الأسرى الأوربيون المسيحيون إلى الجنسيات التالية: إسبان، وبرتغاليون وفرنسيون، وانجليز، ودانماركيون، وفلامنكيون، وسكتلانديون، وهولانديون، وإرلنديون، وجنويون وبنادقة، وليغورنيون، ونابوليون (نابلي) ومجريون، وأمريكيون، وبولونيون، وموسكوفيون، وسيسيليون، ويابانيون، ومصريون، وشوام، والنوبيون.

وكان عددهم في منتصف القرن 17 أكثر من 36 ألف أسير. ثم أخذوا يتناقصون شيئا فشيئا. ففي عام 1627 كان عددهم عشرين ألف، وينقص إلى 2000 أسير عام 1790م وإلى 1200 أسيرا عام 1800م، ولو أن عددهم في عهد الداي محمد عثمان باشا (1766—1791م) كان 24 ألفا حسب رواية أحمد الشريف الزهار في مذكراته(2).

---

(1) بلحميسي، ص 54 — 55.
(2) الزهار، ص 25 — 26.

وفي الفترة الممتدة من 1613 إلى 1621 أسر الجزائريون 936 مركبا بحريا من مختلف الجنسيات والأنواع محملة بالبضائع والمؤن والذخائر منها: 447 هولندية، و 193 فرنسية و 120 إسبانية و 60 انجليزية، و 56 ألمانية(1).

وفي الفترة من 1630 إلى 1634 حجز الجزائريون 80 مركبا فرنسيا، و 1331 أسيرا فرنسيا كذلك.

وفي عام 1723 أسروا 10 سفن أمريكية، وفي يوم 16 أكتوبر 1749 تمكنت ثلاثة مراكب جزائرية من نوع شبك من أسر الباخرة أوغسطس الثالث لصاحبها ج. ف. شولتز الغدانسي J.PH. Schultz de Gdansk وفي الفترة من 1765 إلى 1799 حجز البحارة الجزائريون عددا كبيرا من المراكب البحرية خلال 376 هجوما بحريا، ودعموا بها الأسطول البحري الجزائري، وذلك كرد فعل للاعتداءات الأوربية على الجزائر، ومدنها الساحلية ومراكبها في عرض البحر.

وفي شهر نوفمبر 1793 أسروا وحجزوا 11 سفينة أمريكية أخرى، وأكثر من 100 أسير أمريكي. وفي عام 1802 أسر البحار الجزائري الذائع الصيت حميدو الباخرة البرتغالية الكبيرة المسماة le cygne، وعليها 282 بحارا برتغاليا اقتادهم إلى الجزائر العاصمة وتم اطلاق إسم: البرتقيزية على تلك الباخرة، وهي ذات 44 مدفعا.

وفيما بين 1817 و 1827 أسر الجزائريون 26 مركبا بحريا أغلبها لليونانيين وأطلقوا على واحدة منها اسم: زنطوطة.

---

(1) يحي بوعزيز: علاقات ص 67 — 68، وكذلك [illegible] تاريخ الجزائر العام [illegible] — 1910)، ص 451 — 459.

وقد كانت استراتيجية الجزائر تجاه بلدان أوروبا، تقوم على أساس منع قيام أي تحالف ضدها فيما بينها، وطبقت أسلوب المطالبة بالضرائب السنوية والدورية، ومنح المعاملات المتميزة للبعض منها فيما يخص افتداء الأسرى، وتبادلهم، وابرام معاهدات السلم والصداقة، وتقديم امتيازات للبعض منها دون الأخرى في المجالات الاقتصادية والقنصلية، والتجارية، وحجز أهداف البحرية أحيانا أخرى، وقد نجحت الجزائر في هذه السياسة إلى أبعد حد خلال القرنين 17 و 18، نظرا للخلافات والصراعات التي كانت قائمة بين البلدان الأوربية.

وقدر القس دان «Dan» عام 1634 قيمة الغنائم التي غنمها الجزائريون في البحر منذ مطلع القرن 17 بمبلغ 20 مليون فرنك، وقدر عدد الأسرى بمليون شخص، وهذا ما يعني في نظره 25 مليون فرنك، وهو تقدير فيه نظر. وقدر القنصل الفرنسي شي «Chaix» الخسائر الفرنسية في الشهور الثمانية الأولى من عام 1616 بمبلغ مليون وثمانمائة ألف ريال (1.800.000)(1).

---

(1) سعيدوني: ص 146 – 148 وكذلك دوقرامون.
H.D. de Grammont Histoire d'Alger sous la Domination turque 1515-1830 (Paris 188[illegible]) pp. 157-175.

فرنسا تستنجد بالأسطول الجزائري

ونظرا لما للأسطول الجزائري من قوة وبأس في القرن 16م، وماله من فعالية في الأحداث الدولية، ونظرا لما حققه من انتصارات رائعة ضد القراصنة والغزاة الأوربيين، خاصة شارلكان الأسباني، ونظرا إلى ما كانت تعانيه فرنسا من مشاكل داخلية وخارجية، فقد اضطرت أن تستنجد بأسطول الجزائر أكثر من مرة ليساعدها على قمع بعض الثورات الداخلية، ومواجهة اعتداءات شارلكان الأسباني الخارجية.

ففي خلال عام: 1535ـ1536م استنجد فرانسوا الأول خير الدين باشا الذي قاد أسطوله إلى مرسيليا لمواجهة تمرد الهيجنوت الثائرين على السلطات الفرنسية المحلية. وفي خلال عامي 1543 ـ 1544م استنجد مرة أخرى بخير الدين الذي قاد أسطوله إلى مرسيليا حيث انضم إليه دوق انجوا Duc d'Enjieu قائد الأسطول الفرنسي واقتحموا مدينة فرانش Pranche، ونهبوها وحاصروا دوق سافوا Savoie في مدينة نيس، وطردوه منها وحرروها، ثم اتجه خير الدين إلى مياه طولون، ووجه من هناك عددا من مراكبه لتغزو الشواطىء الأسبانية، وتؤدب قراصنة شارلكان الأسباني[1].

وفي عام 1593 استنجد هنري الرابع الفرنسي بالقوات العثمانية ليرغم سكان مرسيليا بالاعتراف بسلطته، فأمر السلطان العثماني مراد

---

(1) يحي بوعزيز: علاقات، ص 47ـ48.

الثالث، والي الجزائر خضر باشا بالحادث، ووجه إليه قوات بحرية جزائرية أرغمت السكان على الاعتراف بسلطة ملكهم هنري الرابع وذلك عام 1596.

وفي عام 1676 طلب أرباب السفن الفرنسيين في مرسيليا من البحارة الجزائريين حراسة مراكب الشحن الفرنسية الكبيرة ذات الحمولات المهمة، وتكلف الرايسان الجزائريان مامي صمصون، وميزو مورلو بذلك. وعندما عزم المبعوث الفرنسي جاك فيلوت Jacques Villotte على مغادرة اسطنبول إلى مرسيليا بحرا وخاف أن يقع في أيدي أعداء فرنسا، اقتاده بحارة جزائريون من هناك إلى عنابة عبر خليج سرت، وشواطئ تونس، ونزل عدة مرات إلى البر حتى لا يقع في أيدي الأعداء.

وفي عام 1708 قادت أربعة مراكب جزائرية القنصل الفرنسي إلى طهران ليلتحق بمنصبه، وذلك بطلب من لويس الرابع عشر الذي كان في حروب طويلة مع معظم بلدان أوروبا وتخوف أن يقع سفيره في أيدي أعدائه[1]، وهذا ما يؤكد قوة الأسطول الجزائري، وشجاعة بحارته، وقوة نفوذهم وسطوتهم، وحكمة ساسة الجزائر، ورشدهم. وقدرة الدولة الجزائرية على مواجهة الأحداث والتطورات ومعالجتها في وقت تكالبت فيه ضدها كل القوى الأوربية الباغية.

(1) شحنتي: ص 151-154.

الأوربيون يتجسسون ويستعلمون على سواحل الجزائر

لقد اكتسبت الجزائر قوة ومناعة في العصر الحديث، ودلت على الخلاف موقف ثابتة وحاسمة في تعاملها مع أوروبا خاصة القراصنة أصحاب القوة في الحريات الأوروبية، وأظهرت تفوقا واضحا وبارزا في معظم المعارك التي خاضها أسطولها البحري في كل عالم البحر المتوسط، وجعله رمزا للبطولة والتضحية والفداء، التي أثارت حفيظة الأوربيين جميعا، وجعلتهم يبحثون عن سر قوتها، وأخذوا يرسلون الجواسيس والمخبرين ليكشفوا لهم عن هذا السر، ويعدوا لهم الخطط التي تساعدهم على تحطيمها والقضاء عليها.

ففي عام 1587 وجهت مالطة كلا من لانفردوكسي Lanfre وبوسيو Bossio Ducci إلى سواحل الجزائر ليستعلما لها عن قوتها، ويحددا المنطقة التي تصلح للهجوم والنزول إلى البر، واقترح الفارس دارفيو d'Arvieux على البرتغال أعداد حملة عسكرية ضخمة ضد الجزائر عن طريق مدينة بجاية واقترح كليرفيل Clerville على لويس الرابع عشر عام 1661م تنظيم حملة عسكرية تنزل في ستورة قرب عنابة بعد ان استطلع مواقيء: ستورة وعنابة، والقالة وبجاية.

وفي عام 1757م اقترح المهندس الاسباني ريكو Ricaud على اسبانيا أن ترسل حملة عسكرية ضد الجزائر تنزل بوادي الحراش، ثم عدل مشروعه واقترح أن تنزل في رأس قاسم، وسيدي فرج، كذلك اقترح الجاسوس الايطالي ليفيو باسكولي Livio Pascoli غزو الجزائر من جهتين: عنابة شرقا، وسبتة غربا للاطباق عليها واحتلالها كلها، وجعلها مستعمرة

أوربية، وهذا مما يكشف الأطماع الاستعمارية الأوربية في بلادنا، وحتى روسيا البعيدة عن الميدان أقحمت نفسها في الموضوع، ووجهت كاترين الثانية الضابط البحري الروسي، ماتفي قريقوريفيتش كوكوستوف Matvei Grigorie Vitch kokostov إلى سواحل تونس والجزائر في الفترة من 14 جويلية إلى 7 أوت 1777م ليستعلم ويستخبر عن النقط التي تصلح للهجوم عليها واتخاذها قاعدة للأسطول الروسي ضد الجزائر والدولة العثمانية معا وحضر على مركب فرنسي في زي تاجر ورجل أعمال، وتجنب النزول إلى البر حتى لا يتعرف عليه أحد وينكشف أمره، وكان من ضمن أهداف روسيا ابرام معاهدات مع البلدان المغربية لاضعاف الدولة العثمانية، ولكن الجزائر رفضت ذلك بإصرار وأخذت المراكب الروسية تهاجم المراكب الجزائرية في البحر انطلاقا من ماهون باسبانيا، وليفورن بإيطاليا[1].

وفي عام 1803م حضر إلى الجزائر الجاسوس الاسباني دومنقو باديا Domingo Badia الذي تستر تحت اسم: «علي بك العباسي»، واستعلم على القوات البحرية الجزائرية وقدم بذلك تقريرا إلى الوزير الفرنسي ريشليو Richelieu ألح فيه على ضرورة احتلال الجزائر، وبعده قام الضابط بوتان Boutin من سلاح الهندسة العسكرية الفرنسية عام 1808م، وباناتي Bananti الايطالي عام 1814م بنفس المهمة، والأخير من أسرة بورجوازية، أسره الرايس حميدو على ما قيل، وأقام في الجزائر مدة، واقترحا معا احتلال الجزائر بصفة دائمة[2].

---

(1) Maupoint. Les Premiers russe en méditerranée 1770-1807 les corsaires moscovites. Revue de la defense nationale (Avril - 1947).

(2) [illegible] الموجز في تاريخ الجزائر، ص 167، [illegible] ص 118–119.

أعداد السفن والمراكب في الأسطول الجزائري عبر السنوات

(1516 – 1830م)

ليس هناك إحصاء دقيق لأعداد السفن والمراكب في الأسطول الجزائري الحديث، لأن أرشيف الدولة الجزائرية أخذه الفرنسيون بعد احتلالهم للجزائر، ولم يتم بعد استرجاعه واستعادته، ثم لم تسجل أعداد السفن في سجلات معينة بكيفية منظمة طوال القرون 16 و 17 و 18، قد لا يكون حصل، غير أن الرحالة، والمتجولين الذين زاروا الجزائر، وكتبوا مذكرات ورسائل عن رحلاتهم وتنقلاتهم، والأسرى الأوربيين الذين أقاموا بالجزائر عدة سنوات في أزمنة مختلفة، سجلوا معلومات عن حياتهم في الأسر، وذكروا قوائم مختلفة حسب الظروف والفترات، سواء منهم الأوربيون والمسلمون، وعليها اعتمد بعض الكتاب العرب في إيراد بعض القوائم والأعداد لمراكب الأسطول الجزائري، ومعظمها في نظرنا تقريبية وليست هي كل الحقيقة.

والشيء الذي لا شك فيه هو أن نواة الأسطول الجزائري الحديث بدأت بالمراكب الاثني عشرة أو الأربعة عشرة التي جاء بها الإخوة الأتراك عروج، وخير الدين، وإسحاق، إلى جيجل عام 1513م ثم إلى مدينة الجزائر عام 1516م، وبعد ذلك أخذ عدد الأسطول ينمو، ويكبر، ويتطور، ويزداد في الرمي، عدة، وعددا، حتى أصبح يعد بالمئات، إلى مطلع القرن التاسع عشر، وليس هناك تناسب تصاعدي أو تنازلي في أعداد المراكب والبحارة، فأحيانا يكثر العدد وأحيانا ينقص حسب الظروف، والأحداث التي تعرض لها

...ـك وكانت باستمرار هدفا لغارات وحروب أوربية مكثفة وحاقدة من طرف القراصنة الأوربيين سواء على شواطئ البلاد وسواحلها أو في عرض البحر.

وبالطبع فإن هذه الحروب والغارات الأوربية، كانت تسعى باستمرار لتحطيم قوة الجزائر على أساس أنها أداة الردع، والوسيلة الناجعة التي صمدت بها أمام العدوان، وتكيل للقراصنة الأوربيين الصاع صاعين، وهذا لا غرابة أن تجد الجزائر تملك في سنة أكثر من مائة مركب، وفي أخرى أقل من ذلك أو أكثر بكثير.

لقد كانت الجزائر في صراع حاد، ومحموم، وشرس، ضد القراصنة الأوربيين، وعملت بكل جهودها لتقوية نفسها، وتدعيم دفاعاتها البحرية، واستحدثت أسطولا حربيا هاما وكبيرا، وطورته بمختلف الوسائل، وفرضت على الدول الأوربية أن تقدم لها مختلف التجهيزات البحرية المتنوعة في إطار الجزية والضرائب السنوية والدورية، كل ذلك من أجل تقوية مركزها ومواجهة الأحداث بما تستحق من الحزم والقوة والصرامة وهو ما فعلته بالفعل، وكانت مثلا في الشجاعة والإقدام، والتضحية، وأذلت القراصنة الأوربيين، وأعطت لهم دروسا أصبحت مثلا في التاريخ البحري الحديث، وهزمت مختلف حملاتهم التي شنوها على البلاد طوال ثلاثة قرون كاملة. وفيما يلي نماذج من الإحصاءات لبعض السنوات.

ففي عام 1516م كان عدد قطع الأسطول الجزائري أربعة عشرة مركبا من أنواع مختلفة.

وفي عام 1530م ارتفع عددها إلى ستين قطعة حربية ذات 25 إلى 40 مدفعا لكل واحدة.

وفي عام 1536م نزلت إلى 44 قطعة من نوع الأغربة وغيرها.

وفي عام 1540 ــ 1544م ارتفعت إلى 125 قطعة منها 65 قطعة حربية، و 60 قطعة للنقل البحري.

وفي 1568م نزلت إلى 40 قطعة كلها سفن حربية.

وفي 1571م ارتفعت إلى 50 قطعة حربية من نوع القالير، والغليوطة، مع مجموعة أخرى من السفن الصغيرة.

وفي 1580 ارتفعت إلى 60 قطعة منها 35 فرقاطة، و 35 حفنا ذات 60 مدفعا لكل واحدة.

وفي 1581م ارتفعت إلى 80 قطعة منها 50 سفينة حربية ذات 15 إلى 24 مصطبة لكل منها مجدفان وهي من الغليوطة و 30 سفينة ذات حجم متوسط من نوع الفرقاطة.

وفي 1588م نزلت إلى 35 قطعة من نوع القالير، إلى جانب مراكب أخرى صغيرة.

وفي 1590م ارتفعت إلى 75 قطعة كبيرة الحجم من الأنواع المختلفة.

وفي 1619م ارتفعت إلى 80 قطعة بمياه الجزائر العاصمة فقط، وهناك أعداد أخرى في الموانئ الأخرى.

وفي 1620م نزلت إلى 75 قطعة من مختلف الأنواع والأحجام.

وفي 1623م ارتفعت إلى 175 قطعة من مختلف الأنواع والأحجام.

وفي 1630م نزلت إلى 70 قطعة في مياه الجزائر العاصمة فقط، وهناك قطع أخرى في الموانئ الأخرى.

وفي 1632م ارتفعت إلى 106 قطعة منها 13 علبوطة بالمجاديف، و 70 علبوطة بالشراعات، و 23 مركبا كل منها مسلحة بثلاثين إلى خمسين مدفعا.

وفي 1634 نزلت إلى 70 قطعة ذات 25 إلى 40 مدفعا لكل واحدة.

وفي 1657م نزلت إلى 23 قطعة ذات 30 إلى 35 مدفعا، تحمل ما بين 300 إلى 400 جند يا بحارا.

وفي 1659م بقي نفس العدد منها 12 بارجة و 9 علبوطات، ونزل عام 1662م إلى 21 قطعة.

وفي 1670م ارتفع العدد إلى 70 سفينة حربية من مختلف الأشكال والأنواع.

وفي 1681م نزل العدد إلى 19 سفينة منها 17 حربية و 2 ذات حجم كبير تحمل كلها 112 مدفعا.

وفي 1686م ارتفع العدد إلى 74 مركبا حربيا منها مركبات بكل منها 30 إلى 32 مدفعا، و 10 سفن ذات صاريين بكل منها 30 مدفعا، و 10 سفن ذات صاري واحد بكل منها 14 إلى 20 مدفعا، بصاريين وبهما 45 مدفعا وحراقة واحدة ذات 20 مدفعا، و 59 مراكب بكل منها 30 إلى 50 مدفعا وسفن للنقل والتجارة.

وفي 1687م نزل العدد إلى 70 مركبا مختلفة الأحجام والأنواع، وتحمل 500 مدفعا.

وفي 1720م نزلت إلى 27 مركبا ذات 18 إلى 60 مدفعا، ومعها مجموعة أخرى من المراكب الصغيرة.

وفي 1725م نزلت إلى 20 مركبا من الأحجام الكبيرة.

وفي 1752م ارتفعت إلى 103 مركبا مسلحة بعدد 450 مدفعا و 22 منجنيقا.

وفي 1759م نزلت إلى 21 مركبا منها بارجات ذات 30 مدفعا و 19 مركبا صغيرا.

وفي 1766م ارتفعت إلى 24 باخرة ذات 10 مدافع بكل منها.

وفي 1779م نزلت إلى 13 قطعة منها 4 قاليوت ذات 2 إلى 7 مدافع، و 3 غليوطات وكارافيل واحدة ذات 60 مدفعا، و 5 كارك ذات 8 إلى 24 مدفعا.

وفي 1780 ارتفعت إلى 17 سفينة كبيرة ذات 10 إلى 40 مدفعا.

وفي 1784م ارتفعت إلى 560 قطعة منها 60 كبيرة من أحجام مختلفة حربية و 500 من نوع النحور.

وفي 1785م نزلت إلى 19 قطعة منها 10 حربية ذات 8 إلى 36 مدفعا وتحمل 400 بحار، و 9 شراعية ذات 3 صواري.

وفي 1791م ارتفعت إلى 70 قطعة منها 7 شباك ذات 12 إلى 32 مدفعا، و 3 ذات 40 إلى 50 مدفعا و 10 من نوع اللحور، و 50 زورقة من نوع شالوب كانت في طور البناء، وهي مختلفة الأشكال والأحجام.

وفي 1800م نزلت إلى 16 قطعة متنوعة مجموع مدافعها 355 مدفعا.

وفي 1802م ارتفعت إلى 266 قطعة منها 66 بارجة ذات 25 إلى 80 مدفعا، و 200 لنجور يعمل عليها 500 رايا.

وفي 1815م نزل العدد إلى 41 قطعة متنوعة الأشكال والأحجام.

وفي 1816م ارتفع إلى 49 قطعة منها 5 بوارج من نوع الفرقاطات ذات 50 إلى 60 مدفعا، و 5 كورفيطات ذات 5 مدافع، و 2 بريكات ذات 18 مدفعا، وواحد بولاكر ذو 20 مدفعا، و 35 قاربا صغيرا، وقالير واحدة.

وفي 1817م نزل إلى 22 قطعة منها 20 كورفيطات، وفرقاطتان.

وفي 1820م ارتفع إلى 32 قطعة تحمل 368 مدفعا.

وفي 1821م بقي نفس العدد ومن ضمنها: مفتاح الجهاد، ذات 62 مدفعا، وابن العواص ذات 50 مدفعا، والفارسية ذات 46 مدفعا، والمظهر الصافي ذات 36 مدفعا وفوز الاسلام ذات 24 مدفعا، والحية ذات 16 مدفعا، وأماني المهدى.

وفي 1825م نزل العدد إلى 14 قطعة، ووردت بأسمائها التالية: مفتاح الجهاد فرقاطة وبارجة ذات 62 مدفعا، وابن العواص ذات 50 مدفعا، وفتح الاسلام ذات 24 مدفعا، وهي سكونة قوليت، ونفير الاسكندر فرقاطة وبارجة ذات 36 مدفعا، ومظهر اسيفنس كورفيت والفارسية كورفيت حراقة ذات 36 مدفعا، والخط حراقة ذات 36 مدفعا، والسلوقي (زاغر) بولاكر ذات السعيد (موجراس) بريك ذات 36 مدفعا، وطونقاردا اسكونة ذات 20 مدفعا، وميورقة، الشباك ذات 20 مدفعا،

صاري و 14 مدفعا، والثريا، والصقر (شباهين ديريا)، و 3 سكونات شبك في طور البناء و35 زورق في طور البناء كذلك، ذات أحجام عادية، وهبة الله (نعمة جودة) بريك وجفن ذو 3 صواري، و 18 مدفعا.

وفي عام 1829م ارتفع العدد إلى 9 قطع منها:: فرقاطة ذات 34 مدفعا، وكورفيت ذات 40 مدفعا، و 2 بولاكر كل منهما ذات 22 مدفعا، و 2 بريك ذات 14 مدفعا، و 3 قوليت ذات 12 مدفعا، يضاف إليها مجموعة قطع كانت بموانيء: وهران، وتنس، ودللس، وعنابة، مجموع بحارتها 3260 رجلا.

وفي عام 1830م ارتفع العدد إلى 44 قطعة منها فرقاطة قديمة غير مسلحة، وكورفيت قديمة و 4 بريكات ذات 10 مدافع، وقوليت بريك، و 4 فولج Felouge مركبا مسطحة ذات مدفع واحد، وفرقاطة في طور البناء، و 2 قوليط.

وقد تم ارسال 8 منها إلى طولون بعد الاحتلال الفرنسي للمدينة عام 1830 وهي: فتح الاسلام، والتيس البري، وهبة آلله، والحظ السعيد، وطونقاردا، والثريا، والصقر، ومايورقا، وأرسل معها كذلك المدفع الذي يعرف باسم القونصولير la Consulaire من البرونز والذي تم بواسطته قذف القس لوفاشي قنصل فرنسا بالجزائر عام 1683م على اثر الغارة التي شنها الأميرال الفرنسي دوكين على مدينة الجزائر(1).

هذه لمحات عن أسطول دار الجهاد جزائر الغرب المحروسة في العصر الحديث، وتلك هي بعض أعماله، وجهوده في مقاومة القرصنة الأروبية لمدة تزيد على ثلاثة قرون، وبالطبع هي لمحات مختصرة إذ لا يمكن الاحاطة بأحداث ثلاثة قرون كاملة، في مقال مختصر كهذا، سجلت فيها الجزائر صفحات مشرقة وواجهت أحلافا أوروبية كبيرة وعديدة الأطراف،

---

(1) بلحميسي: ص 168 — 171 بوعزيز: علاقات، ص 84—88.

وصليبية الأهداف ولكنها والحمد الله خرجت منتصرة مظفرة، عزيزة الجانب، رغم أنها كبت عام 1830م وسقطت تحت الاستعمار الفرنسي الأوربي المسيحي لمدة قرن وثلث القرن، ولكنها ثأرت لكرامتها المهانة وانتقمت لشرفها المداس، وحافظت على اسلامها، وضحت في سبيل بقائه وخلوده وقدمت ملايين الشهداء لتبقي كلمة التوحيد: «لا اله إلا الله محمد رسول الله»، عالية، وثابتة، وخالدة خلود الدهر في هذه البلاد وشعبها.

وكما كانت البحرية مهمة في القرون الماضية، مكنت الجزائر من مواجهة العدوان وقهره، فهي مهمة اليوم كذلك لقهر العدوان وكسر الاحتكار الذي تملكه الدول الكبرى والشبيهة بالكبرى حاليا، سواء في ميدان الحروب، والتجارة والنقل الدوليين، وينبغي على القيادات العربية ان تهتم ببنائها ودعمها وتطويرها عدة وعددا بالخبرة الوطنية حتى تتخلص من التبعية الأجنبية التي تكلفنا أموالا ضخمة وتضع أمامنا عراقيل لا تحصى.

والله الموفق

وهران — حي الصادقية

الأحد { 18 جمادي 1 — 1407هـ
18 جانفي 1987م.

د. **يحي بوعزيز** — جامعة وهران

فهرس الجزء الثاني

الجــــزء الثــاني

القسم الثالث

الجزائر الحديثة

أنجز طبعه على مطابع
ديوان المطبوعات الجامعية
الساحة المركزية - بن عكنون
الجزائر

هذا الكتاب

يتناول المؤلف في هذا الجزء الثاني من تاريخ الجزائر: المرحلة الحديثة، والتي يحددها المؤرخون بنهاية العصور الوسيطة والمتمثلة في هذه المنطقة بسقوط الأندلس وبداية الهجمات الأوروبية عامة، والإسبانية - البرتغالية خاصة، على سواحل الجزائر وشمال إفريقيا.

وقد تزامن هذا الحدث مع ظهور العثمانيين واستيلائهم على معظم أقطار المشرق العربي ووصولهم بحرا إلى شمال إفريقيا عن طريق الإخوة: عروج وخير الدين وإسحاق، واستماتتهم في الدفاع عن سواحل شمال إفريقية عامة و السواحل الجزائرية خاصة باستعادة بجاية واحتلال الجزائر وإلحاقها بالدولة العثمانية في القسطنطينية.

ويركز المؤلف في هذه الفترة - التي أصبحت الجزائر خلالها تابعة شكليا للدولة العثمانية - على خصائص الحكم العثماني من جوانبه الإدارية والعمرانية والاقتصادية والاجتماعية، وبداية الصراعات التي ظهرت بين القوة العسكرية الانكشارية من جهة، وبين الطبقة السياسية القيادية المتمثلة في البايات والدايات.

والجزائر التي هي جزء من العالم العربي الإسلامي الخاضع للدولة العثمانية والذي عرف فيما بعد لدى الساسة الأوروبيين بـ (أملاك الرجل المريض)، فأصبحت - كبقية الأقطار الأخرى - محل أطماع الأوروبيين الذين تقاسموا هذه الأملاك، واخترعوا له الأسباب - كحادثة المروحة - لاحتلال الجزائر وبداية عصر جديد.

www.opu-dz.com

رقم النشر: 4352

410 دج